محمد راتب صديق

تجربتي
في الفن والحياة

الجزء الأول

الهيئة المصرية العامة للكتاب

محمد راتب صديق

تجربتى فى الفن والحياة

الجزء الأول

الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٩٨٩

١٩١٩ محمولا على الكتف .. الخادم تمرق بى عبر شـوارع القاهرة وأزقتها .. تشاهد تلك الجموع الغاضبة تتقدم فى مسيرتها .. رايات وأعلام خضراء .. ترفعهـا الأيدى .. هتافات تدوى تقابلها رصاصات تطلق البعض يقع صريعا والبعض يتفرق .. الى حين .. ليتجمع ثانية .. والهتافات تستمر والرصاص يدوى ..

لم أكن أعى شيئا مما يحدث وأنـا فى الثانية من عمرى .. ولكن تلك المشاهد كانت تتطلب تفسيرا ..

عقلى الصغير لا يستطيع .. !

انها الثورة .. ثورة مصر ضد الاحتلال الانجليزى ولكن هيهات أن أفهم شيئا من هـذه الكلمات التى قالها والدى تفسـيرا .. فى ذاك الحين ..

بقيت تلك الأصوات الهاتفة فى عنفوان .. تخرج من الحنـاجر المتعبة فى بحة وحشرجة .. وطلقات الرصـاص تدوى لاسكاتها ..

ترك هذا كله .. ترك علامات حفرت وترسبت فى نفسى .. وفى العمق .. أثارا لا تمحى .... !

فى سن الرابعة دخلت الكتاب لحفظ القرآن ولأتعلم الحساب .. وكانت تجربة قاسية على فى تلك السن فقد كانت هناك توصية مسموعة من الشيخة ذكية التى اعتادت الحضور الى المنزل كل يوم وفى ساعة معينة لتقرأ شيئا من القرآن الكريم ولها أجر على ذلك . وكانت الشيخة ذكية هذه قريبة لشيخ الكتاب الضرير . وكان لتوصيتها هذه أثر كبير حتى أن شيخ الكتاب الضرير هذا الذى كان يعطى الأجر مضاعفا للعناية بى لم يكن له شغل يشغله سوى الاهتمام بى وتحفيظى القرآن فى أسرع وقت ممكن . فكان يسأل عنى عندما أحضر الى الكتاب ويبدأ فى سماع ما حفظته فى اليوم السابق من الآيات وهو يصحح لى الخطأ تلو الخطأ وكان هذا مقبولا لولا أنه كان يمسك بيدى اليمنى مفتوحة فى يده اليسرى حيث كنت أسير على يساره وهو يمشى وأنا بجانبه أقرأ له ما حفظته فى فناء المدرسة وكان كل خطأ أقع فيه يشفعه عند تصحيحه لى بضربى « بالزخمة » على يدى التى يمسكها بقوة فى يده « والزخمة » هذه عبارة عن سير من الجلد طوله حوالى القدم مثبت فى مقبض من خشب ... وكان هذا الضرب يؤلمنى جدا ولكنى كنت أكتم ألمى ولا أصرخ أبدا ، وبذلك لم يكن يعرف الشيخ الضرير مقدار ألمى حتى حدث فى يوم من الأيام ان زاد الضرب أكثر مما ينبغى لغلام فى الرابعة أو الخامسة من عمره فشعرت بقسوة الضرب وبألم شديد لم أستطع تحمله فسحبت يدى من يده بكل قوة وجريت نحو باب المدرسة مسرعا وأنا أنظر خلفى الى « سيدنا » كما كنا نسميه . هل سيلحق بى ؟ لقد وقف ذاهلا ينادى على .. يا ولد .. يا ولد .. لم يتحرك من مكانه فقد كان ضريرا ، وكنت أكتم ألمى دائما ولكن كما وجدت نفسى أجرى خارج المدرسة وجدت دموعى تنهمر وذهبت الى البيت صارخا باكيا وكانت يدى قد تورمت تماما من الضرب .. وأمضيت خمس سنوات فى مدرسة محمد على الابتدائية بالسيدة زينب فقد

رسبت فى الابتدائية فى الحساب • وأنى لا أذكر فى سنى دراستى فى المدرسة الابتدائية بالنسبة لدروس الرسم سـوى مدرس شاب يرسم بيده اليسرى كان يعطينا دروس الرسم وبدأ يطور الدروس التقليدية الى دروس من الخيـال فكان •• على سـبيل المثال •• يعجبه كثيرا (بائع الأوز) الذى كان يسير فى الشـوارع يسوق أمامه قطيعا من الأوز وفى يده عصا طويلة للتحكم فى سيره وكان هـذا الموضـوع مثيرا فعلا للتلاميذ فى هذه السن •

ولكن حدث لى حادث مع هذا المدرس اذ أنه لم يعجبه رسـمى (للأوزة) كما ينبغى وكان فى يده مسطرة فضربنى بسنها فنزلت على ركن عينى فأسالت منها الدم وعولجت فورا وعلمت أن الناظر وبخـه ولكنى كرهت دروس الرسـم بسبب هذا المدرس •

فى السنة الأولى الدراسية فى المدرسـة الخديوية الثانويـة كان أستاذنا فى دروس الرسـم ذا مزاج خاص ورؤيا خاصة للفن وتعليم الفن وكنا فى ذاك الوقت نتعلم الرسم بطريقة لا يمكن أن نصـل بها الى أية قيمة فنية على الاطلاق •

وقـد رسبت فى مـادة الرسم فى الدور الأول ولم أتمكن من الحصول على ٤ درجات من ٢٠ درجة كى أحصل على النجـاح •• ولكنى وفقت فى الملحق أو كان هذا شفقة لطالب نجح فى كل العلوم ما عدا مادة « تافهة » مثل مادة الرسـم •• وقد نقلت الى الثانيـة الثانوية بعد أن حصلت على ٦ درجات فى هذه المـادة •

وفى هذا العام ١٩٣١ ــ ١٩٣٢ على ما أذكر •

وفى أول حصة للرسم دخل علينا شاب فى الثلاثين من عمره عاد لتوه من بعثة فى لندن يلبس بذلة سـوداء سماحة فى وجهه وبسمة رقيقة على شفتيه وبدأ الدرس بشرح على السبورة لبعض التوجيهات

فى رسم المنظور واندمج فى الشرح بدرجة جعلت الطلبة جميعا يندمجون معه فعلا فى كل كلمة يقولها وكل خط يخطه على السبورة .. لقد شدنا هذا الرجل بحماسة للمادة ومنذ هذه اللحظة أحببت حصة الرسم ولم تمر بضعة شهور الا واجد نفسى وقد اختارنى الأستاذ عضوا فى جمعية الرسم أى أننى أصبحت من المتازين فى مادة الرسم وأصبحت درجاتى فى هذه المادة ترتفع الى ١٥ ــ ١٨ من ٢٠ درجة .

لقد كان تأثير الأستاذ على قويا لعدة أسباب .. كان يحب المادة وكان جادا كل الجد فى دروسه وكان يحب الطلبة .

وفى جمعية الرسم بعد الظهر بعد الانتهاء من الدروس كان يجتمع بنا الساعات الطوال ونحن وهو مستغرقون فى أعمال ذات طابع أكثر طموحا من دروس الرسم الرسمية .

وانتقلت الى السنة الثالثة الثانوية لنيل شهادة الكفاءة وداومت العمل برغبة قوية فى الرسم سواء فى الحصص الرسمية أو فى جمعية الرسم بعد انتهاء الحصص .

انى لأذكر اسم هذا الأستاذ بالحب والوفاء وهو الأستاذ محمد سعيد الغرابلى ... رحمه الله .

لقد تعلمت منه الكثير الجديد .

***

قررت الانتقال مع أختى للسكن فى بيتنا حيث ولدت ونشأت فى عزبة المنيب بالجيزة .. ولهذا فقد حولت أوراقى الى المدرسة السعيدية بالجيزة لقربها من محل اقامتى .

وصادفنى فى السنة الرابعة الثانوية بالمدرسة السعيدية أستاذ

لمادة الرسم لم يعرف سوى الطريقة الروتينية المتـادة فى تدريس الرسم وشعرت بالفرق الشاسـع بين الأستاذ الغرابلى وهذا الأستاذ ولم أستطع كتم شعورى فصارحته بذلك .. بل انى قلت له بالحرف الواحد « انه يجدر به أن يتعلم قبل أن يعلم » وصدم الأستاذ . كنت قاسيا وقد شاب كلامى .. شىء من الغرور .. وشعرت بذلك فتلطفت معه وقلت له انى تعودت على طريقة معينة من أستاذ معين فى المدرسة الخديوية وهو أستاذ عاد حديثا من بعثة لدراسـة الفن فى انجلترا وأنـا شخصيا معجب بطريقته فى التدريس بل انى استفدت كثيرا منه .

كانت حجرة الرسم فى ذلك الحين تلاصقها حجرة صغيرة هى مكتب أساتذة الرسم فذهب هـذا الأستاذ الى هذا المكتب وعـاد بعد برهة ومعه شاب طويل القامة باسم الوجه وجاء الاثنان الى حيث كنت أجلس وأنـا منهمك فى عملى .

وبدأ يسألنى هذا الشاب عن الأستاذ الآخر الذى كان يدرس لى الرسم فى المدرسـة الخديوية وعندما عرف اسمه .. قال لى فعلا انه أستاذ ممتـاز وأن لى كل الحق فى الاعجـاب به بل انه زميل له فى الدراسة فى مدرسة المعلمين وأنه هو الآخر عـاد لتوه من بعثة لتعلم الرسم فى انجلترا وبدأ يحدثنى ويسألنى عن الأستاذ الغرابلى وكيف كانت طريقته وطلب منى أن أحضر كراسـة الرسم الخاصـة بى من المدرسة الخديوية حيث أن الأستاذ الغرابلى كان قد احتفظ بها .

لقد استرحت لهذا الأستاذ .. كان حديثه مريحـا وابتسامتـه مرحبة وفى ملامحه تشجيع واطمئنان ولقد وجدت فى مدحه لأسـتاذى السابق ما جعلنى اطمئن اليه وبدأ يشجعنى على الانضمام الى جماعة الرسم وضرب لى موعدا بعد الحصـة وفى « الفسحة » بعد الغذاء لأقابله فى المكتب لأتعرف على الزمـلاء من أعضـاء الجمعية ويرينى بعض أعمالهم . وفعلا تقابلنا وبدأنا زيارة قاعة الرسم وعلى جدرانها

علقت بعض الأعمال لأعضـاء الجمعية ومررت سريعا وهو يحـاول لفت نظرى الى بعضها والى القيمـة المحققة فيها ولكنى مررت بغير تعليق منى حتى لفت نظرى بعض الأعمال بالقلم الرصـاص وجدت فيها شـيئا جذبنى اليها : احسـاس طيب ومقدرة على اظهار هـذا الاحساس . وسألت الأستاذ لمن هـذه الأعمال فابتسم وقـال انها لرئيس الجمعية كامل التلمسانى ، فاظهرت اعجـابى بها وقررت ان انضم لجمعية الرسم وبدأت العمل فى جمعيـة الرسم فى المدرسـة السعيدية وأنـا فى السنة الرابعة الثانوية وتحت اشراف الأسـتاذ يوسف العفيفى وكنت سعيدا بالتقائى بهذا الأستاذ .

كان انسانا قبل كل شىء ولهـذا كان أسـتاذا مربيا من الطراز الأول .. لقد كانت هناك صداقة وحب متبادل بينه وبين الطلبة . انه أعزب ومقيم فى « الداخلية » مع طلبة القسم الداخلى ، يدخن كثيرا ولا يبخل علينا بسجائره البحارى ... كنا نسهر الليالى الطوال والكل يعمل فى جد ــ ان الأستاذ لا ينتقد ولكنـه يشجع « ويحمس » وقد يناقش فى بعض التفصيلات .

كان بعض أعضاء الجمعية لم تنعقد بينهم الألفة والصـداقة .. وكان أحدهم يتصرف بعنجهية وتحفظ شديدين فى حديثه ومعاملاته مع الزملاء وقد راقبته عن كثب ورغبت فى ازالة الحواجز بين هـذا الزميل وباقى الزملاء ــ فقد كان زميلا ذا موهبة طيبة ... كان الزميل سعد الخـادم .

كان كامل التلمسانى يعمل فى جزء من ستارة المسرح من أسفل وقد صعدت أنـا على سلم أرسم وألون الستارة من أعلى .. وكان الزميل .. سعد الخادم .. يقف بجوار كامل التلمسانى فى تأنق واضح ويعمل فى صمت وتحفظ فى الرسم ، وراقبت الموقف ثم طلبت من كامل التلمسانى « جردل » البوية فرفعه الى وأنـا على السلم . وفجـأة

انفلت من يدى ليلبس رأس سعد الخادم تماما وتسيل الألوان على رأسه ووجهه وملابسه • وصمت الزملاء جميعا مراقبين الموقف وما يمكن أن يحدث نتيجة لهذه الحادثة • وفى وسط الصمت التام من الزملاء والأستاذ •• رفع سعد الخادم « الجردل » من رأسه وظهر وجهه وقد صبغ الألوان ، وسمعناه يضحك فى غير غضب بل فى مرح • ونزلت من على السلم لأعتذر له ، ولكنه قال انها حادثة لطيفة غير مقصودة • ومنذ هذه اللحظة أصبحت الألفة تجمع الجميع ، بل هى صداقة استمرت عشرات السنين فيما بعد •• كامل التلمسانى •• فتحى البكرى •• سعد الخادم •• كمال الملاخ •• عبد العزيز سليمان •• كمال نور ولحق بنا جيل لاحق •• فؤاد كامل •• أبو خليل لطفى •• وغيرهم ••

كانت فترة رائعة أمضيناها مع أستاذ رائع انسان صديق وأخ أكبر نعرض عليه مشاكلنا الخاصة لنحلها سويا يعرف عنا كل شىء•• لذا كانت قيادته سلسة وسهلة ومقبولة دائما •

بعد الحصول على شهادة البكالوريا ١٩٣٦ تقدمت بأوراقى « لمدرسة الحربية » لأكون ضابطا بالجيش ، وكان أستاذنا يوسف العفيفى يشجعنى على هذا الاختيار الذى لم يكن فى الواقع سوى اختيار أهلى وليس اختيارى •

ويذكر لى زملاء لنا تخرجوا قبلنا والتحقوا بالجيش مهندسين أمثال رمزى عمر وغيره أن الجيش سيعطينى بعض الفرص لممارسة هوايتى فى الرسم ولكن كلامهم فى هذا الصدد لم يكونوا هم أنفسهم مقتنعين به تماما ، ومن ثم فلم يكن مقنعا بالنسبة لى ، فقد كانوا يفكرون فى المستقبل وأن الفن فى ذاته ليس من فروع الدراسة التى تؤمن مستقبلا ماديا على المستوى اللائق •

وكنت مترددا طوال الوقت فى مصيرى •

هـل الجندية هي مستقبلي أم هنــاك كليــة أخرى قد تكون أوفق ... ان مدرسة الفنون الجميلة لم تكن قبلة لي بالمرة لانني لم أسمع كلمة طيبة واحدة عن هذه المدرسة من أستاذنا في ذلك الوقت .

***

في يوم من الأيام ــ وقد تزوج أستاذنا يوسف العفيفي ــ كنت أزوره في منزله حين رزق بمولودته الأولى « بوران » قال لي ان زميلي سعد الخادم الذي أصبح صديقا حميما لي بعد « جردل البوية » ــ قد تمكن عن طريق بعض أقربائه أن يحظى ببعثة للتخصص في تدريس اللغة الفرنسية بفرنسا ، ولكنه تمكن بمساعدة أستاذنا أن يحول البعثة الى لندن للتخصص في تعلم فن الرسم ، ليصبح مدرسا للرسم . بل انه يعمل اجراءات السفر من استخراج الجواز وحجز مكان على السفينة الفرنسية « ماريت باشا » التي ستبحر من ميناء الاسكندرية الى باريس ولندن .

وفجأة تغير الموقف كلية بالنسبة لتفكيري . وفي بضعة أسـابيع تمكنت من تدبير مبلغ من بيع بعض أملاكي وأتممت جميع الاجراءات للالتحــاق بنفس المدرســة التي حجزت فيهــا ادارة البعثات مكانا لزميلي سعد الخادم .. وبالفعل وضعت نفسي تحت اشراف البعثات وحجزوا لي في نفس المدرســة « مدرســة تشلسي للفنون الجميلة » بلندن . وسافرت على نفس الباخرة مع سعد ، بل اننا سكنا ســويا في السكن القريب من المدرســة بناء على توصية المدرسة .. وبدأنــا الدراسة في تشلسي .. وكانت الحياة في لندن جديدة كل الجدة على حياتنا في القاهرة : ركبت الباخرة « ماريت باشا » من الاسكندرية كان معي زميلي سعد الخادم ... كانت السفينة فرنسية كما ذكرت والطعام فيها جيد للغاية .. ولم يمض علينا من يوم نعمنا فيه بهذا الطعام الجيد ، حتى زهدناه طوال يومين كاملين ونحن لا نخرج من

« القمرة » . فقد ارتفعت الأمواج وأصابنا دوار البحر وكان معنا اثنان من المصريين .. أحدهما زار انجلترا من قبل لدراسة الزراعة وهو عائد اليها الآن . وهو من النوع الذى يعرف كيف يستمتع بحياته الدنيا بجميع أشكالها ، والآخر ذاهب لدراسة الطب .. وهو جاد متحفظ لم يعرف من الدنيا غير مدرسته وبلدته الريفية فهو ريفى أصيل .. وكنا نحن الأربعة المصريين صحبة عجيبة .. لكل شخصيته المتميزة .. ولكنا أمضينا الرحلة فى صحبة ممتعة ومسلية .. فقد كانت وجهتنا جميعا مارسيليا ـ باريس .. لندن غير أن الزراعى كان سيرحل من لندن الى ريدنج فيما بعد .

وفى مارسيليا وجدنا محلات « الشربات » ، يقوم بالبيع آنسات جميلات . كان هذا جديدا علينا فى ذلك الوقت عام ١٩٣٦ .. غير أننا لاحظنا أن زميلنا الريفى دارس الطب يطيل النظر الى البائعات بطريقة لفتت أنظارنا ، بل انه « تسمر » تماما أمام المحل ، وأخذ يطلب المزيد ثم المزيد .. حتى انتزعناه بالقوة من أمام البائعة وهى تضحك مستمتعة .

لم يكن بيننا من يتكلم الفرنسية غير (سعد الخادم) .. فان ما حصلناه منها فى المدارس الثانوية لم يكن يتعدى تصريف الأفعال وتكوين بعض الجمل والقراءة بالعافية لبعض الكتب المدرسية ، ولم يكن لنا خبرة بالكلام والتعامل به كلية .

ركبنا القطار من مارسيليا الى باريس وكانت رحلة طويلة ولكنها ممتعة .. فكان كل ما نراه جديدا علينا : المناظر الطبيعية .. الناس .. الكلام .. والتعامل .. ونحن نرقب كل هذا فيما يشبه الصمت والتأمل .. وكان زميلنا سعد يتولى عنا الكلام والشرح اذا لزم الأمر .. واذا ما أحرجنا فكنا ننطق ببضع كلمات فى نطق غير سليم .. فكانوا يستعيدوننا هذه الكلمات القليلة لكى يفهموا ما قلناه ..

وكان يعتريني الحرج فأستنجد بسعد الخادم في الأحوال الصعبة .

ومن باريس الى ديب Dieppe الى نيوهافن New Haven عبر المانش ومنها الى لندن .

نزلنا جميعا في فندق صغير أذكر أنه كان فندق فيكتوريا .. وخرجنا في المساء لنتفرج على لندن بقيادة زكي دارس الزراعة الذي كانت له خبرة سابقة بلندن .. وذهبنا الى حانة (Pub) وتناولنا بضع كئوس من الويسكي . وأعتقد أني في هذه الليلة قد فقدت توازني لفترة محدودة ، لكثرة ما تناولت من خمر حتى أنني وجدتها متعة أن أصعد أو أحاول أن أصعد السلم الكهربائي في عكس اتجاهه أي عندما يكون في حالة نزول ، واستمرت المحاولة لبضع دقائق تمكنت فعلا من الصعود في عكس الاتجاه ، وفي نهاية السلم لاحظت أن بعضا من الانجليز وقفوا لبرهة قصيرة يشاهدون المحاولة ثم انصرفوا .. خجلت من نفسي .. وكانت هذه هي المرة الأولى والأخيرة لافراطي في تناول الخمر مهما كانت المناسبة .

في الصباح تناولنا افطارنا في الفندق وذهبنا الى قلم البعثات المصرية حيث كنت قد وضعت نفسي تحت اشراف البعثات ولو أنني كنت أتعلم على نفقتي الخاصة وقابلنا المشرف على البعثات الذي وجهنا الى مدرسة تشلسي للفنون الجميلة أنا وزميلي سعد .. وفعلا ذهبنا الى المدرسة وأخبرنا أننا مقبولون فعلا بالمدرسة وأن زميلي سعد قد دفعت له البعثات المصاريف ، أما أنا فطلبوا مني المصاريف ولم تكن باهظة بالمرة فدفعت « للترم » الأول في السنة .. وقد أرسلتنا ادارة المدرسة كطلبنا لأقرب بنسيون «Boarding House» وكان فعلا في شارع قريب جدا «Oaklq St.»

وذهبنا لتونا اليه وقرعنا الباب فاستقبلتنا سيده تعدت المتين من عمرها ورحبت بنا وقالت ان ادارة المدرسة قد ابلغتها باننا قادمون

اليها • وكان ترحيبها بنا مشوبا بدهشة وأعتقد أن الدهشــة كانت لاننا أنــا وسعد كنا من ذوى الجلد الأبيض ، وكانت السيدة تنتظر اثنين من المصريين •• والمصريــون عموما من ذوى اللون المشــوب بالسمرة •• افريقيون •

نزلنا نحن الاثنين فى حجرة واحدة ذات سريرين وكنا نتشارك فى ثمن التدفئة فأنا أضع شلنا فى المدفــأة فتعمل لمدة معينة ثم يضــع زميلى للمرة الأخرى • كانت صاحبة المنزل «Miss Cock» عانســا فقدت خطيبها فى حادث ولم تتزوج من بعده وكان فنانا تشكيليا ، وكان هــذا من أســباب عنايتهــا بنا حيث أننــا كنا ندرس الفن التشــكيلى •

ذهبنا الى المدرسة •

وقابلنا مدير المدرسة «Mr. Wiliam Som» وعرضت عليه بعض أعمالى فى المدرسة الثانوية وكانت لا تتعدى بعض الدراسات بالقلم الرصاص فشجعنى وقال انك تملك « يدا قوية ماهرة » •

وأعطانى بعض النصــائح بخصوص الدراســة وهى تتلخص فى تنوع الدروس •

١ ــ طبيعة حية •

٢ ــ اتيــك •

٣ ــ رسم من الذاكرة •

٤ ــ منظــور •

٥ ــ عمــارة •

٦ ــ تشريح •

٧ ــ نحــت •

ووعيت ما قال ثم سلمنى لأستاذ بعد أن أعطانى جدولا بالدروس .

وصادف فى أول يوم لى فى المدرسة أن كان الدرس كما يسمونه رسم من « الانتيك » .

وكان هذا عبارة عن الدراسة بالقلم الرصاص من تمثال رومانى أو اغريقى فى أحسن الأحوال .

دخلت القاعة .. قاعة رحبة .. تدفئة بالكهرباء .. أرض باركيه موزع بها مقاعد مثبت بها حوامل للوحات مما نسميه « حمار » . والقاعة نظيفة للغاية والأرضية دائما تلمع .. هذا وقد اشتريت كراسة ولوحة خشبية وأقلاما وكل ما يلزم من نفس المدرسة .. وبدأت العمل فى حماس زائد وكان الموديل عبارة عن رأس حصان افريقى من الجبس .. وبدأت الرسم ما يقرب من الساعة وأنا أحاول أن أنقل بدقة ما فى التمثال من تفاصيل على الورق وأحاول المحاكاة الدقيقة بكل ما أوتيت من مهارة .

ثم جاء الأستاذ وكان شابا رقيقا باسم الوجه ، حيانى واستأذن فى الجلوس مكانى لتصليح الرسم وبدأ التصليح بالنظر الى التمثال مرة ثم رسم خطا بل خطوطا كثيرة غير ما رسمت ، ومن هذه الخطوط الكثيرة والعديدة كان لابد أن يكون هناك خط واحد صحيح يمثل ويحاكى خط التمثال ... وعلى كل حال لقد أعجبت بالأستاذ وبدأ بينى وبينه نوع من التقرب فكان يهتم بى كثيرا .. وقد التقيت به بعد بضع سنوات فى مصر وكان ضابطا فى الجيش الانجليزى فى الحرب الأخيرة «Robert Medly» وكان هذا اسمه وكان فنانا انجليزيا لامعا فى ذلك الوقت . كانت طريقته هذه مثار تفكيرى .. لماذا يحاول محاكاة الطبيعة بالعديد من الخطوط ؟ فهو يجرب دائما حتى يجد الخط الملائم لهذه المحاكاة .. لماذا لا يجرب بعقله وبفطنته

ويضع خطا واحد معبرا عما يريده . كان هـذا السؤال يتردد فى ذهنى من حين الى آخر ولم أجد الجواب الصحيح الا بعد فترة طويلة ، فلم تكن لى خبرة فى ذلك الوقت تكفى للاجابة على السؤال .. لم أكن أتعدى التاسـعة عشرة من عمرى وكنت مازلت فى بداية الدرس على هذا المستوى .

فى اليوم الثانى كانت هناك مفاجأة .. لى أنـا على الأقل .. كان الدرس درس تشريح .. الأستاذ رجل كهل اسـمه «G. Day» وقد وقف فى جانب الاستراد ووقفت بجانبه فوق الاستراد الذى يعلو قليلا عن أرض الحجرة فتاة لم تتعد الثامنة عشرة من عمرها ملتفـة بروب أزرق وبجانبها مدفـأة .

وبدأ الأستاذ يشرح الدرس وكان عن عضلات الذراع والكتف وكانت الكلمات تخرج من فمه مضغومة وقد « أكل » ثلاثة أرباعهـا ولم أفهم شيئا مما قال وفجأة أمر الفتاة بأن تخلع « الروب » وببساطة خلعت الفتاة الروب ووقفت عارية تماما أمامنا .

كانت تجربتى الأولى فى رؤية فتاة عارية تماما وبهذا الجمـال الرائع وفى عز النهار أمام الجمع ، أمام خمسين عينا لشباب لم يتخط العشرين .

أقول الحق ان عينى تسمرتا تماما أمام هـذا الجسد البض الرائع .. لم يذهب فكرى مع كلمات الأستاذ عن عضـلات الذراع أو الكتف وتكويناتهما .. لقد ذهب فكرى وحسى كله مع عينى وهى تقوم « بمسح » هـذا الجسد كله .. الاسـتدارة الرائعـة للنهود المتحفزة ، والليونة الوديعة فى استدارة الأكتاف ، وتلك الأفخـاذ أعمدة من المرمر الحساس جدا والتى تحمل أردافا مسـتديرة تكاد تهتز تحت النظر .. ولا أقول اللمس .. وتلك الأقـدام الرقيقـة البضة الناعمة وقد حملت ذلك الجسم القارع فى رقة ، ثم تلك الهالة

من الشعر الذهبى التى انسدلت على أكتافها .. انها كانت رائعة فى كل شىء .. هكذا رأتها بعين الشاب ذى التسعة عشر ربيعا الذى فوجىء بهذا الجسد يقف عاريا فى لحظة لم يكن يتوقعها تماما .

انها كانت المرة الأولى .

ولقد تغيرت الرؤية تماما بعد ذلك لقد اعتدت على ذلك ولم يصبح جسم المرأة العارى يثير فى غرائز ما وأنا ارسم بل كان يثير فى كل ما هو عنوى .

***

كانت دروس الطبيعة الحية من الموديل تستهوينى أكثر من غيرها .. لم أكن أشعر نحو محاكاة التماثيل القديمة أو حتى محاولة فهمها عن طريق رسمها بأى ميل ، وكنت أعتقد أنها لا تحتاج الا لمهارات ودقة فى الرؤية بالعين وقياس النسب ثم دقة فى النقل .

ربما كانت مفيدة لبعض الدارسين ولكن أنا شخصيا لم أشعر نحوها بأى ميل .

الموديل الحى الانسان الأنثى بالذات كانت تستهوينى دائما .. ولم يكن بالمدرسة حسب الجداول المعطاة لنا سوى يوم واحد ٤ ساعات مع الموديل الحى .. ولكن كانت هناك دروس مسائية حرة اشتركت بها على الفور وكانت الموديل تقف للرسم خمس دقائق فقط ، ثم تغير الوقفة أو الجلسة وكنت أرسم سريعا خطا واحدا بالقلم على كراس رسم ذى ورق رفيع شفاف .. كانت كروكيات سريعة ولكنى بلا وعى كبير بتعليمات الأستاذ «Medly» كنت أرسم الموديل بخط واحد محدد مصمم رائق صاف وكانت هذه الكروكيات السريعة تسعدنى وتشعرنى بأنى اكسب شيئا أكثر جدية من الدروس الرسمية الصباحية . لم يكن هناك أساتذة فى المساء ولكن كان هناك مساعدون اذا طلبت مساعدتهم جاؤوك .. وأنت فى حل من طلبهم .

***

كنت فى المدرسة السعيدية مشتركا فى فريق المدرسة المكون من أربعة للتجديف وكان يشرف على الفريق أستاذ اللغة الانجليزية وكان رجلا ممتازا « مستر بيفن » وكنا نتدرب فى نادى التجديف للجامعة المصرية الراسى على شاطىء النيل بالقرب من كوبرى الجلاء أو (كوبرى بديعة) كما كان يسمى فى ذلك الوقت سنة ١٩٣٥ وكان لنا مدرب ايطالى ممتاز يدعى « سرتنينو » وكان يتنبأ لى بمستقبل طيب فى رياضة التجديف وكان الفريق يتدرب بجدية طوال عامين وفعلا اتقنت هذه الرياضة الى حد لا بأس به .

وكان المدرب الايطالى يقول ان ضرباتى بالمجداف قوية ، ولكنها تبدو فى غاية السلاسة والسهولة .

وفى تشلسى عرفت أن لها فريقا للتجديف .

ان مدرسة تشلسى للفنون الجميلة كانت قسما من جامعة تضم الهندسة والطب وخلافه .. وكان الفريق يضم أعضاء من جميع الطلاب فى الفروع المختلفة والتحقت فورا بالفريق وبدأت المران وكان المران فى هامر سميث Hammer Semith على نهر التيمس يوم

الأحد من كل أسبوع وهو اليوم المتاح لي • وكان التدريب يتم في قارب ثابت غير متحرك في حوض مقفل •• وكنا نذهب في الصباح الباكر وفي برد قاس ولا تمر علينا سوى بضع دقائق حتى يتصبب العرق ونخلع « السويتر » •

ونبدأ في المران الجاد •• وكان مدرب الفريق — وهو أحد الطلبة القدامى — يراقبني وأنا اتمرن وأضرب المجداف في الماء بشدة فما أدرى الا والمجداف قد كسر قطعتين •• وكانت هذه الحادثة سببا في اختياري للتجديف للفريق الأول ولأدخل أول سباق وآخر سباق في حياتي •• انى لاذكر بالخير وفيقا مصريا كان يدرس الطب معنا في تشلسي وكان عضوا في الفريق وهو الذى قدمنى للفريق •• كان اسمه فوزى على ما أذكر •

انى أذكر هذه الفترة الآن وأنا أشعر بحنين لهذه الرياضة •

لقد كان ذهابي مبكرا للتدريب كل يوم أحد مما جعل صاحبة المنزل تزيد من الاهتمام بتغذيتي قبل التدريب وبعد التدريب •• بل انها كانت تنتظرني أنا وزميلي سعد عند العودة من الدروس المسائية لتعطينا الحلوى مع الشاى بحجة أن أعمالنا الفنية قد اعجبتها •

بل انها بدأت تميزني قليلا عن زميلي •• فقد اعطتني حجرة المرحوم الفنان خطيبها بما فيها من أدوات للرسم للعمل بها بلا أجر •

ومما زاد الطين بلة •• انها كانت تميزني عن زميلي سعد في الطعام وعندما كنت أعود من السينما مثلا في ساعة متأخرة كانت تصنع لي فنجانا من الكاكاو باللبن مع قطعة من الكيك ••• ولم يحظ زميلي سعد بالمعاملة بالمثل أبدا حتى لو طلبها هو بنفسه فكانت ترفضها وبلا اعذار •• لم أعرف السبب في هذا التمييز ولم أسع الى معرفته •

كان يقيم فى حجرة بجوارنا اثنــان من الشبان الانجليز كانت أسرهم تعيش فى الهند وكانوا يتكلمون الانجليزيــة بلكنة خفيفــة هنديــة .

وكانت تعمل فى البيت فتاة تعدت الثلاثين من عمرها ولم تكن جميلة كانت تعمل Chamber Maid خادمة .. وفى يوم من الأيام سمعنا أنــا وزميلى سعد صياحا من هــذه الخادمة وكنا فى غرفتنا .. وقد خرجت هذه الخادمة شبه عارية من غرفة الشابين الانجليزين وكانت وراءها صاحبــة المنزل « مس كوك » وفى يدها (ســكين العيش) تهددها بها .. ولم تجد الخادمة أمامها ســوى غرفتنا فدفعت الباب بيدها ورجتنا باكيــة ان نحميها من صاحبــة المنزل .. فهى شريرة قاسية .. حسب قولها ، فقفلنــا الباب وبدأ زميلى ســعيد يكدس الكراسى وقطــع الأثاث خلف الباب خوفا من دخول صاحبــة المنزل بالرغم من اعتراضى على كل هــذا الحرص وقلت له انه يكفى أن نتصدى لها وستكف فورا عن ثورتها .. حيث أننى أعتقد أنها ســيدة طيبة ولكنها لا تحب « الهلس » ، ولكنه استمر فى تكديس الأثاث خلف الباب وانتهى الحادث بطرد الخادمة والانجليزين من المنزل ..

كان هذا الحادث سببا آخر فى أن يفكر (سعد) فى ترك المنزل الى مكان آخر وفى ليلة زارنا فيها زميلنا الزراعى المصرى ومعه فتــاة شقراء ناعمة ولو أنها لم تكن جميلة ودعانا لمرافقته للتزحلق على الجليد فى صالة من صالات « الاسكاتنج » فى لندن وذكر أنها متعة جميلة .. فوافقت أنــا فورا لأننى كنت قد تعلمت الاسكاتنج على (قبقاب العجــل) فى مصر ، وكنت أذهب مرة فى الأســبوع الى صــالة « الباتيناج » فى شارع سليمان باشا .

وفعلا ذهبنا مع (زكى) واستأجرنا قبقابا ذا ســلاح فى أسفله بدلا من العجل .. وقد امكننى السيطرة فعلا على اتزانى فوق الثلج

بل انني « استأجرت » فتاة لتعلمني التزحلق وذلك زيادة في المتعة .

وفي نهاية السهرة دعانا (زكي) الى الذهاب الى حيث يسكن ، وقد اتضح ان الفتاة التي في صحبته هي ابنة أصحاب المنزل .

وذهبنا الى حيث يسكن زميلنا الزراعي زكي
83 Worwick Road.. Earlé Caisrt

وفعلا كان سكنا طيبا وحجراته فسيحة وله مطلق الحرية في اصطحاب أصدقائه وصديقاته الى حجرته بعكس منزل (مس كوك) فقد كانت لا تسمح باستقبال الأصدقاء والصديقات في غرف النزلاء .. فهنالك « اللونج » (حجرة الجلوس) .

عند ذلك اختمرت في ذهن سعد فكرة ترك منزل (مس كوك) والسكن مع (زكي) ومع الفتاة الشقراء التي كانت في صحبة (زكي) لم يقل شيئا .. في ذاك الوقت ، وصبر حتى اليوم التالي وفاتحني في الموضوع .. فاعترضت بان المكان الجديد يبعد عن المدرسة وسنضطر الى ركوب الأتوبيس الذي سيكلفني بنسا في الذهاب وآخر في الأياب ، وذكرت له حججا أخرى منها أن « مس كوك » طيبة وتولينا عناية و ... و ...

ولكنه كان مصرا .. فان العناية كانت لي أنا وليست له وأنه لم يكن لنا حرية في السهر وفي اصطحاب الأصدقاء والصديقات ... الخ ... الخ ...

وفاجأني سعد بانه لم يعد يطيق الاستمرار في المعيشة في هذا المكان .. وأنه سيدبر الأمر للرحيل بطريقة ما بحيث ترضى عنها « مس كوك » .

وفي ليلة ذهبنا سويا الى النادي المصري وكان في ذاك الوقت في

« بيكر ستريت » Baker St. وهناك وجدنا « الأستاذ حامد سعيد » .

والأستاذ حامد سعيد كان زميلا أصغر سنا من الأساتذة الغرابلي والعفيفي وقد تخرج من مدرسة المعلمين العليا واختار آن يكون مدرسا للرسم ... وقد منح بعثة لدراسة الرسم وهو مدرس بالمدارس الثانوية ... وكانت بعثة صيفية لمدة ٣ شهور ... تمكن بعدها من الحصول على بعثة أخرى مدتها ٣ سنوات وفى الفترة بين البعثتين عاد الى القاهرة ... وكنت قد عزمت على السفر فى هذه الآونة .

وهنا جاءنى الأستاذ يوسف العفيفى وقال لى ان صديقا له وهو مدرس رسم موهوب وجاد سيسافر الى لندن فى بحر الأسابيع القادمة حيث انه حصل على امتداد لبعثته الصيفية لمدة ٣ سنوات وأنه صديق وأخ وينبغى أن تتعرف عليه أنت وسعد فستلتقون به فى لندن وسيكون لكم سندا .

وفعلا ذهبت مع الأستاذ العفيفى الى بيت حامد سعيد ... فى سوق السلاح فوجدته رجلا ضئيل الجسم أسمر اللون ذا شعر غزير مجعد وشكله أقرب الى الهنود فى ذلك الوقت .

وقد رحب بنا وأرانا بعض أعماله وتمنى لنا التوفيق ... وقال اننا سنلتقى فى لندن ان شاء الله .

وهكذا التقينا مع حامد سعيد فى النادى المصرى بلندن وسألنا عن دراستنا بالمدرسة وأوصانا بزيارة المتاحف ... وتواعدنا على اللقاء مرة أخرى .

وذهبنا الى البيت ، وبدأنى سعد الحديث قائلا ان حامد سعيد

أكبر منا سنا وأكثر خبرة فقد كان مدرسا للرسم فى المدارس الثانوية قبل التحاقه بالبعثة .

فوافقت على كلامه ... ولكنى شعرت بأن هنـاك شيئا ما بعد هذا الكلام .. ولكن سعد لم يقل شـيئا فى هـذه الليلة وراح فى سبات عميق .. وفى الصباح فاجأنى قائلا ان الخطـة قد اكتملت فى رأسه فقلت له : خطة ؟ أية خطة ؟ انى لا أفهم شيئا يا سـعيد ... قال سنترك المنزل غدا ونسكن مع زميلنا الزراعى فى Earl's Court ولكن كيف سيمكننا اقناع (مس كوك) ... قال اسـمع يا راتب « ان حامد سعيد جاء الى لندن منذ بضعة أيام فقد كلفته الوزارة وقلم البعثات بالاشراف على دراستنا وأن السفير (حافظ عفيفى) فى ذلك الوقت هو الذى أمر بهذا وأننا سنترك المنزل هنا لنقيم مع المشرف (حامد سعيد) فى Earl's Court وأن السفير نفسـه هو الذى سيطلب (مس كوك) ويكلمها فى التليفون بهذا الأمر » وكنت أعرف ان خيال سعد واسع وحافل ولكنى لم أكن أتصور أنه يمكن أن يصل الى هذا الحد .. بل انه فعلا نفذ الخطة بحذافيرها بعد أن افهمنى دورى فى الخطة .

لقد تأخر هو خـارج المنزل عن موعـد الغـداء ودق جـرس التليفون .. فذهبت « مس كوك » وعادت تقول ان السفير المصرى حافظ عفيفى باشا يطلبنى أنـا فى التليفون .. وذهبت الى التليفون ووجدت سعد على الخط وقال .. قل لمس كوك ان السفير أمرنـا بالاقامة مع المشرف على دراستنا والانتقـال من باكر الى حيث يقيم ليكون قريبا منا وليباشر الاشراف عن قرب .

وانتهت المكالمـة مع سـعد .. وسألتنى مس كوك عما يريده السفير منك فقلت لها ما قاله لى سعد مدعيا انه السفير المصرى .

فبكت « مس كوك » حقيقة بكت .. وقالت أنها تأسف أشــد الأسف لفراقنا وأنها تأمل أن ترانا من وقت الى آخر .

وفعــلا انتقلنـا فى اليوم التـالى الى 83 Worwick Road بعد أن كان سعد قد حجز لنا فى المنزل .

***

فى مرة من المرات التى زرنـا فيها النـادى المصرى .. التقينا بحامد سعيد مرة أخرى وجرنا الحديث عن محـل اقامته وأنه بعيد فعلا عن مكان دراسته .. حيث أنه كان قد اختار أستاذا فرنسيا له أكاديميـة لتعليم الفن فى لندن ووافقت وزارة المعارف على هـذه الدراسة .. وكانت الأكاديميـة تقع بعيدا عن الحى الذى يسـكنه حامد سعيد وعندما عرف حامد سعيد أننا نسـكن فى ووروبك رود Worwick Road. قـال ان الأكاديميـة التى يدرس بهـا تقع فى نفس الشارع ولا تبعد سـوى بضع عشرات الأمتار من مقر سـكننا وتساءل اذا كان من الممكن ايجاد حجرة له فى نفس المنزل .. ولم يمض أسبوع الا وقد جـاء حامد سـعيد واتخذ له غرفـة فى نفس المنزل معنا .

كانت العلاقـة بيننا وبين حامد سعيد لازالت علاقـة ثلاثة من المصريين يدرسون الفن .. تتقابل عند الافطار وفى وجبات الطعـام ولكن العلاقة بدأت تنمو .. فكنا نذهب الى غرفته فى بعض الليـالى لنتحدث عما يشغلنا فى دراساتنا وكان هو يحدثنـا فى حمـاس عن الأسـتاذ الفرنسى Ozenfant الذى يدرس معــه فى أكاديميـة Ozenfant Accademy of fineart والتى تقع فى نفس شـارع سكننا .. كما أسلفت .

***

كان معى .. بضع عشرات من الجنيهات .. ما تبقى من ثمن ما بعته فى مصر من أملاكى وانفقت منه على ملابسى وعلى سفرى والتذاكر والشنط والاعداد للسفر عموما ... الخ .

كنت شابا مازالت غرائزه تحركه وتلك الجنيهات القليلة الزائدة على الحاجة فى ذلك الوقت .. أو هذا ما خيل له .. كان هذا عاملا على الذهاب شوطا بعيدا فى حياة اللهو .. وبدأت أمل الدراسة الروتينية فى « تشلسى » خصوصا وقد حدثت مشادة عنيفة بينى وبين أستاذ العمارة .. اذ انه تلفظ بألفاظ جارحة بالنسبة للمصريين عامة .. وكان ردى عنيفا ليس باللفظ فقط ! .

وكانت شكوى من الأستاذ الى ادارة المدرسة .

واستدعانى مدير المدرسة وشرحت له الموقف فى بضع كلمات .. « اذا كنت قد اخطأت فى الدرس فليكن اللوم والتجريح لشخصى ولكن تجريح المصريين عامة ليس مقبولا بالمرة » .

واقتنع المدير بوجهة نظرى وانتهت المسألة بالاعتذار من الطرفين .

هذه الحادثة الصغيرة كان لها أثر بغير شك فيما بعد فى تغيير سير دراستى .

***

كانت حياة اللهو تستهوينى .. وكانت لقاءات مع بعض الأصدقاء المصريين والصديقات الانجليزيات فى أمسيات حمراء تماما .. وكانت تتكرر هذه الأمسيات بصفة رتيبة ، وكان زميلى سعد الخادم يراقبنى عن كثب . ولاحظ عدم اهتمامى بالدراسة بل تضجرى منها بسبب أو بغير سبب ولاحظ أيضا أن صحتى بدأت تتدهور .. واننى لم أعد أمارس رياضة التجديف التى أحببتها وكنت مواظبا عليها حتى اخفق

فريق تشلسى فى السباق الكبير فقل اهتمامى ولم أعد اهتم بهـذه الرياضـة .

***

فى مساء يوم يعرف زميلى سعد أنه يوم اللقاء مع « الشـلة » دخل على فى الغرفـة وأقفل الباب بالمفتـاح .. وكان متجهم الوجه وصرخ فى وجهى أننى لن أخرج من هـذا الباب أبدا ، ولو تطلب الأمر استعمال القوة معى فانه مستعد لضربى .

ونظرت الى سعد فى ذهول .. ماذا يريد منى وكيف يجرؤ على تهديدى ، كيف يمكنه أن يضربنى وقوتى البدنية تفوق قوته اضعافا .

ماذا تريد يا سعد ؟

قال وقد خفض صوته .. يا راتب .. لقد جئت بنقودك القليلة هذه لتتعلم وتعود الى أهلك وبلدك عضـوا نافعا .. ولكنك أنت الآن تنتحر بدنيا وثقافيـا بهذه الحياة التافهة التى تحياها وهـذه المتع واللذات التافهة .

أفق لنفسك يا راتب .

ذهلت .. جلست على السرير .. هـذا سعد الهادىء الصامت يقول كلاما بحماس وقوة وفى رنة مخلصـة .. هل هـذا هو سعد الذى عرفته منذ سنين طويلة وهو زميـل الدراسـة فى المدرسـة السعيدية .. انه يبدو اليوم فى شكل جديد لم أعرفه من قبل .

لقد كان لكلماته وقع شـديد على نفسى .. لقد أثرت فى بشكل مباشر ربما لأن فكرى الدفين .. كان يسير فى هـذا الاتجاه بغير ان يجرؤ على أن يطفو على السطح .. لقد قال سعد هـذه الكلمات وكنت أرى الدموع فى عينيه .. ثم فتح الباب وخرج وترك البـاب مفتوحا .. كان موقفا عجيبا ورائعا ، لم آكن اتوقعه من سـعد الذى

كنت أعتقد انه لا يأبه الا بذاته وراحاته سعد الصامت .. كان موقفه هذا وكلماته لى ذات أثر لم يدع تفكيرى حتى هـذه اللحظة وكنت كلما اختلفت مع سـعد فيما بعد .. أتذكر موقفه النبيل هـذا .. فأخطىء نفسى .

***

وفعـلا لم أبرح الغرفة بل اننى وقعت فريسـة للمرض وظللت أسابيع طويلة يعالجنى واحد من الشلة .. طبيب لم يتخرج بعد .. وكان انسانا رائعا ، وفعلا شفيت بعد بضـع أسابيع من (تيومونيا حادة) وكانت هـذه الأسابيع التى امضيتها فى الفراش انساب فيها تفكيرى فى كل ما يخص حياتى ومستقبلى ودراستى .. وكان يزورنى حامد سـعيد ويتحدث الى عن الفن والمتـاحف و Ozenfent وطريقته فى التدريس .. حتى أننى أصبحت أفكر فى هذا الأوزنفانت وأتشوق الى رؤيته . وكلما زاد شـوقى الى أوزنفانت زاد مللى من مدرسة الفنون « تشلسى » . وفى هـذه الأثناء زارنا صـديق لحامد سعيد كان يدرس الزراعة فى « ادنبرة » فى اسكتلندة هو د٠عبد الرزاق صدقى وأمضى معنا بعض الوقت وكان فى اجازة .

كان « فرويد » والتحليل النفسى فى ذلك الوقت حاضرا فى فكر المثقفين وغير المثقفين .. الكل يتكلم عن فرويد والسلوك النفسى .. وقد جذبنى هـذا كثيرا وبدأت أقرأ ما يصـل الى يدى من كتب فى علم النفس والتحليل النفسى « فرويد » على وجه الخصوص .

وقد شغلت بهذا عن الدرس فى « تشلسى » .

وفى مسـاء يوم سألت حامد سـعيد عما اذا كان فى الامكان الالتحاق بأكاديمية أوزنفانت لدراسـة الفن ، وقد تعلقت بطريقـة تدريس هذا الأستاذ الكبير مما كان يرويه لنا حامد سعيد .

وكان عبد الرزاق صدقي حاضرا .. فكان رد حامد سعيد أن أوزنفانت أكاديمية خاصة يلتحق بها من يتخرج من كليات ومدارس الفنون العليا بعد ان اكتسبوا خبرات طويلة وبعد دراسة الفن سنوات كما ان أكاديمية أوزنفانت تمنح شهادات تقدير لها قيمتها بغير شك على المستوى الثقافي والفني الرفيع .

ولكن حكومة مصر تطلب شهادة أكاديمية معترف بها لكي أجد الوظيفة والمستقبل المأمون بعد العودة — وأن « تشلسي » تعطى مثل هذه الشهادة التي تعترف بها حكومة مصر والتي تؤمن لي مستقبلي الوظيفي في مصر .

وأنت يا أستاذ حامد .. لقد وافقت حكومة مصر على دراستك مدة ثلاث سنوات مع Ozenfent وأن شهادته في آخر المدة لن تكون مؤهلا أكاديميا لترقيتك وضمان مستقبل أفضل لك .

فكانت اجابته انه حائز على شهادة مدرسة المعلمين العليا في العلوم وانه اختار — تدريس الرسم — حيث قد تمت دراسته على يد أساتذة الرسم في مدرسة المعلمين العليا تحت اشراف الأستاذ حبيب جورجي — وفعلا كان منهم الغرابلي والعفيفي وحامد سعيد وغيرهم .. وأنه أي حامد سعيد .. قد أمن مستقبله الوظيفي بشهادة المعلمين ، وأنه لا يسعى الى ترقيات أو غيرها من الماديات — ولكن يسعى لأن يكون فنانا — وأن خبرة أستاذ كبير مثل Ozenfent هي أحسن ما يمكن الاستفادة به في هذا المكان والزمان .

وقد شعرت أن حامد سعيد على حق بالنسبة لنفسه وأنه صعب على مستقبلي وأن الفن وحده لا يكفي — بل يلزم « الشهادة الأكاديمية » للحصول على وظيفة محترمة .

ولقد قلت له انى زهدت الدراسة في تشلسي وان الدراسة

الأكاديمية الروتينية التى تهدف لعمل « صناع » مهرة للرسم لم تعد تلائمنى على الاطلاق وانى ربما أهجر تعلم الفن وانحو نحوا آخر ، وان الفن يظل هواية لى .

وهنا تدخل عبد الرزاق صدقى فى الحديث واقترح أن أذهب معه الى أدنبرة لدراسة علم النفس — حيث علم بهوايتى له — حيث يمكننى الحصول على درجة B.S.C فى علم النفس وأعود الى مصر ضامنا للوظيفة وللمستقبل .

مضت الأيام وأنا أفكر فيما اقترحه عبد الرزاق صدقى — وقد صادف هوى فى نفسى الى حد كبير — وفى حبى للفن وهل يمكن لى الوصول الى مستوى رفيع كفنان هاو ؟

مرت الأيام وأنا أكاد أكون ممتنعا عن الذهاب للدراسة الصباحية فى تشلسى ولكننى كنت مواظبا على الدراسات المسائية التى كنت أحبها .. فكانت حرة بلا أستاذ وبلا تعاليم روتينية ميتة .

وكانت تنتابنى حالة قلق مستمرة .. حيرة بين الذهاب الى أدنبرة لدراسة علم النفس أو العودة الى مصر والالتحاق بأية كلية فى الجامعة، واستمر القلق يساورنى مدة طويلة وأنا على هذه الحال من التردد والحيرة — الى أن استقر رأيى فى النهاية على الآتى :

اما أن أتمكن من الالتحاق بأكاديمية أوزنفانت أو أعود الى مصر بغير أن أحقق هدفى فى أن أكون فنانا له قيمته لقد تركت مصر وتركت فرصة الالتحاق بالمدرسة الحربية التى كنت مؤهلا لها جسمانيا وشكلا وهيئة ، وأيضا « وساطة كبيرة » فى ذلك الوقت .. تركت الفرصة المضمونة .. الى طريق آخر وفرص أخرى غير مضمونة .. انتى كنت أعرف مقدما وقبل أن أسافر ان الفن لا يبنى مستقبلا مستقرا وفى الظروف المواتية سأكون مدرسا للرسم خاضعا لكل قوانين وظروف الموظفين .

وهل طبيعتى ونشأتى كانت تنشد الاستقرار ــ أم أن المغامرات كانت تستهوينى ؟ .. ــ وهل أنا مثلا أرغب فى دراسة علم النفس وأتخصص لأكون أستاذا له فعلا .. ؟ أم أن علم النفس والتحليل النفسى كان يستهوينى كجزء من الثقافة ؟؟ .

ان سفرى الى لندن كان مغامرة لاشك فيها ــ ان النقود التى كنت سأعيش بها طوال اقامتى فى لندن على مدى ٣ سنوات على الأقل ــ كانت من الضآلة بحيث كنت لا أجد فيها أى متسع لشراء أى شىء غير المسكن والمأكل .. ان الكتب التى كنت اشتريها لم يكن يتعدى ثمن الكتاب ستة بنسات أو شلنا على أكثر تقدير ــ فكنت انتقيها من محلات بيع الكتب المستعملة أما الجديد منها فكانت من الطبعات الرخيصة مثل « بنجوين » ، « بيليكان » وغيرها .

انى شعرت فى هذه اللحظة أننى كنت مغامرا فعلا عندما حضرت الى لندن ولم يكن يأتينى من مصر سوى عشرة جنيهات شهريا فى أحسن الظروف ، وكانت تتناقص فى بعض الأشهر الى النصف .. وكنت أدخن ــ ١٠ سجاير فى كل يوم (٦ بنسات) ــ كيف أحصل عليها حينما لا يصلنى سوى نصف المرتب ؟ .. كنت الجأ الى غسل بعض ملابسى الخفيفة مثل المناديل والجوارب : المنديل = ١ بنس والجورب يساوى ٢ بنس ، ومقدار ما أوفره عن هذا الطريق .. يكون نصيبى من السجاير فى هذا اليوم .. وهكذا .. نعم انها كانت مغامرة ــ ولم أكن أبغى ضمانا للمستقبل عندما حضرت الى لندن لدراسة الفن ــ والفن بالذات . لم أكن آمل فى الاستقرار المادى عن طريق الوظيفة عندما أتم دراستى فى الفن ــ والتى لن تتم أبدا ــ كما عرفت فيما بعد أن الوظيفة لم تكن طريقا للاستقرار المادى ــ كما أن طلب الاستقرار المادى عن طريق دراسة الفن لم يدر فى خلدى لحظة واحدة .

كنت شابا مليئا بالحماس ــ عندى من الشجاعة ما يكفى لأن

أسير الى آخر الشوط الذى اخترته لنفسى مهما تكن العقبات ومهما كان النجاح والاستقرار المادى ليس بغاية لهذا الطريق الذى اخترته عندما سافرت بعيدا عن وطنى لدراسة الفن .. كل هذه الخواطر مرت فى مخيلتى وملأت على فكرى طوال أيام وليال بأكملها وأخيرا وصلت الى قرار .

سأعرض نفسى ورسومى على Ozenfeut — فاذا قبلنى طالبا فى الأكاديمية سرت فى الشوط الى نهايته — واذا لم أقبل فسأرحل فورا — الى مصر لأجد طريقا آخر أكثر نعومة وأكثر فائدة واستقرارا

فى لندن آكاد أعيش على الكفاف عندما يتناقص مرتبى الذى يأتينى من مصر . وانى على استعداد للعيش على الكفاف وأن أكمل الشوط اذا كانت هناك مثالية ترفعنى معها الى المستوى الذى لا أشعر فيه بأى حرمان — بل انى لأجد فى الحرمان سعادة لأنى أحاول تحقيق هدف ومثالية رفيعة .

أما أن استمر فى الدراسة الأكاديمية المملة فى مدرسة تشلسى والتى لا تكسب الطالب الا مهارة فى الصنعة بالرغم من وجود أساتذة فنانين كبار فى هذه المدرسة — فان هذه المهارة فى الصنعة وحتى الشهادات القيمة التى تمنحها المدرسة بعد ثلاث سنوات لم تعد تشجع طموحى ومثاليتى .

زياراتى للمتاحف ومعايشتى للأعمال الرفيعة فى التصوير والنحت — كانت أسعد لحظات تمر بى فى لندن .. كانت لحظات استقبال للقيم ، وكنت ظمآنا لمثل هذه القيم التى لم أعشها من قبل .. ان حياتى تتغير تماما كأنى قد ولدت من جديد — قرآنى .. الأعمال الفنية الخالدة فى المتاحف .. الموسيقى الكلاسيكية الرائعة .. موزارت .. باخ .. بيتهوفن — التى لم آكن أعرف عنها شيئا فى مصر . كل هذا كان يدفعنى الى

طريق المغامرة ــ انها لحظات رائعة فى حياتى تلك التى كنت أصادق فيها عسلا فنيا رائعا ــ فكانت تلك الصداقة ترفعنى الى أحاسيس رفيعة ومعان كانت جديدة على تماما •

داومت على حضور الدراسات المسائية وملات كراسات بخطوط عن الموديل النسائى العارى ــ الذى كان يجذبنى اليه دائما •

وفىيوم من الأيام••لبست أحسن ملابسى : المعطف الجديد الذى دفعت فى ثمنه جنيهين اثنين وشلنين بالتمام وتأنقت فى وضع الكوفية حول رقبتى وحملت معى كراساتى التى خططت فيها تلك الرسوم السريعة التى رسمتها فى الدروس المسائية وذهبت الى أكاديمية أوزنفانت ــ فى نفس الشارع الذى كنا نسكن فيه وعلى بعد بضع مئات من الأمتار •• وفى مبنى قديم مطلى بطلاء أبيض من الخارج ــ يعلو الأرض منه بضع غرف على الواجهة ذات نوافذ صغيرة ــ وقفت أتحقق من أن هذا المبنى هو المقصود ــ باب خشبى ذو لون رمادى رسمت فوقه فى عناية ثلاثة مستطيلات صغيرة متجاورة طلى أحدها باللون الأزرق والثانية بالأبيض والثالثة بالأحمر •• علم فرنسا وابتسمت عندما أدركت الدلالة •• أن Ozenfent فرنسى •••

ورفعت عينى أعلى الباب فوجدت يافطة كبيرة كتب عليها :
Ozenfant Accadimy of Fine Arts

ووقفت برهة أقرأ اليافطة وأنا أعطى لنفسى لحظات أتغلب فيها على تردد بسيط اعترانى ••• ودفعت الباب ودخلت الى قاعة كبيرة بها منضدة عليها « صندوق آلى لبيع السجائر ــ توضع العملة ثم تتسلم العلبة أوتوماتيكيا »•••لفت نظرى هذا الصندوق الذى أرى مثله كل يوم فى المنزل الذى أقطنه واشترى منه سجائرى على الدوام ثم استدرت يمينا لأرى صورا فوتوغرافية ذات قيمة ممتازة من ناحية التصوير الفوتوغرافى وكانت لبعض أعمال النحت المصرى القديم الموجودة فى متحف اللوفر فى باريس •• وهى عبارة عن صفحات

أخذت من « الموسوعة الفوتوجرافية للفن » التى يطبعها متحف اللوفر لبعض مقتنياته الممتازة Encyclopidie Photographie de l'art وهذه الصفحات فصلت بعناية وزينت بها جدران القاعة ــ وقد أخذت بواحدة منها كانت لرأس « الكاتب القاعد القرفصاء » ــ التمثال المصرى القديم ــ وهو من بين أعظم ما انتجه الفنان المصرى القديم على الاطلاق .

لقد تسمرت فعلا أمام صورة هــذا الرأس مكبرة تملأ الصفحة ذات الحجم الكبير نسبيا ــ .. هذا هو فن مصر العظيم الذى لا نعرف عنه شيئا ــ ولم يقل لنا أساتذتنا عنه شيئا .. ان أنظار أساتذتنا كانت تتجه الى الاغريق وأوروبا ــ وكانت أنظارنا تتجه بالتبعية الى نفس الاتجــاه .

ان القاعة كلها تمتلىء بفوتوغرافيات ممتازة عن الفن المصرى ويشاركها أخرى عن الفن السومبرى ــ الذى لم نعرف عنه شــيئا هو الآخر .. كنت انتقل وحدى وعلى أطراف أصابعى وحيدا فى هذه القاعة أشاهد هــذه الفوتوغرافيات ــ اذ انى لم أســمع أية حركة أو صوت يشعرنى بأن المكان مأهول .. وظللت هكذا ما يقرب من النصف ساعة وأنــا مستغرق فى مشاهدة الصور ــ وفى نفس الوقت أذنى مشدودة الى ما وراء الستار الكبير الذى كان يفصل هــذه القاعة عن القاعة التى تليها .. عسى أن أسمع صــوتا أو حركة .. وفجأة سمعت صــوت امرأة تقول Rest Pleas وكنت أعرف أن هذا يقال « للنموذج » الموديل ليأخذ فترة راحة ــ ثم فتح الستار وخرجت منه امرأة تعدت الأربعين من عمرها ذات شعر أشقر ورأتنى أقف أمام الفوتوغرافيات ــ وقدمت نحوى فورا تسألنى عن حاجتى .. فعرفتها بنفسى بأننى مصرى ولى صديق يدعى حامد سعيد يدرس فى الأكاديمية وانى أرغب فى الالتحاق بالدراســة مع الأستاذ أوزنفانت ،

وكانت قد عرفتني بنفسها وان اسمها « شارى » وهى سكرتيرة الأكاديمية .. ثم نادت على حامد سعيد من الداخل فجاء وقابلني .. قائلا : خيرا يا راتب .

قلت لحامد سعيد هامسا :

انى جئت ببعض أعمالى لعرضها على الأستاذ أوزنفانت لأعرف رأيه فيها وعما اذا كان مستواها يؤهلنى لقبولى دارسا فى أكاديميته .

كان كلامى لحامد سعيد بالعربية طبعا — وقد نقله بالانجليزية فورا الى السكرتيرة (شارى دينس) والتى رحبت بى ودعتنى للانتظار داخل قاعة اندرس حتى تتحدث مع الأستاذ فى شأنى . وأزاحت الستار الفاصل بين القاعة الخارجية والقاعة الثانية .. فوجدت قاعة فسيحة يقع فى جانب منها « استراد » يجلس فوقه الموديل وكان رجلا .. وبجانبه موقد كبير ذو مدخنة صاعدة الى أعلى — موقد بالفحم المتوهج يشع دفئا طيبا .. وللعجب وجدت فى هذه القاعة ما ينيف عن الخمسة عشر دارسا بين رجل وامرأة — البعض جالس على مقاعد صغيرة Stools بجانب حامل صغير فوقه لوحته التى يعمل بها ، والبعض الآخر يقف بالقرب من الموقد يدفىء أطرافه .

هذا العدد الكبير من الدارسين فى هذه القاعة ولم أسمع لهم أى صوت أو أية حركة طوال وجودى فى القاعة الخارجية ، ولم يكن يفصل بينى وبينهم سوى ستار من قماش .. لقد كدت أعتقد أن القاعة خالية من الدارسين وأنا اشاهد اللوحات الفوتوغرافية المعلقة فى القاعة الخارجية — كان الكل يعمل فى صمت وجدية .

ثم ما فتىء الموديل ان أخذ وضعه السابق المحدد له فوق « الاستراد » وبدأ الطلبة الدارسون يأخذون مواقعهم أمام أعمالهم .. البعض يرسم واقفا والبعض يرسم جالسا — كل قد اختار زاوية ومكانا يلائمه .

جلست على مقعد فى ركن بعيد وبدأت أتأمل ما حولى .. القاعة لا بأس بها فهى منسجمة نوعاً ما ـ سقفها « جمالون » من زجـاج معلق به ستائر من قمـاش أبيض خفيف للتحكم فى الضوء .. الأرضية أسمنت رمادى .. الحوائط خشنة مطلية بالجير الأبيض .. تذكرت قاعات « تشلسى » الباركيه الفاخر اللامع ، والمدافىء المنتشرة فى المكان كله ـ « تدفئة مركزية » ـ والمقاعد والحوامل الأنيقة .. والطلبـة يتكلمون مع زملائهم وضحكات هنا وهنـاك والأستاذ يجلس مكان الطالب يصحح له الرسوم ، والحركة والكلام والصخب يزداد ويقل حسب المزاج والحالة النفسية للطلبة .

وهنا فى هذه القاعة الخشنة البسيطة بموقدها القديم الذى يزاد له الفحم كلما خبت حرارته .. لم أسمع ضحكة واحدة ، ولم أسـمع كلاما أو صخبـا .. واذا ما أراد دارس شـيئا ما من زميله تـكلم هامسا ـ ولكن لمـاذا هذا الصمت ـ هل هو نظـام مفروض على الدارسـين .. ؟ ومن الذى فرضـه عليهم ـ هـل هو الأسـتاذ أوزنفانت .. أم هى الجدية والاستغراق فى العمل .. جالت بفكرى هذه الخواطر وأنـا انتظر حضور الأستاذ .

وسـمعت السـكرتيرة تقول Rest Pleas أستريح من فضلك ـ وكانت الساعة ١٢ ظهرا تقريبا ـ وكان هناك ستار آخر فى نهاية قاعة الدرس مغلق تماما ولم أكن أعرف ما وراءه .. هل هى قاعة أخرى أم مخزن أم ... ؟

وفجأة وجدت الستار ينشق ويخرج منه رجل فى الخمسين من عمره رشيق القوام يمشى فى خطى خفيفة وينتعل حـذاء « كاوتش » لا يسمع له صـوت اذا ما تحرك صاحبه وفوق « بنطلون » رمادى من الصـوف يرتدى هذا الرجل جاكتة بيضاء لها أكمام محكمة تماما

على معصميه « بأستك » مشدود عليها .. وعلى عينيه نظارة شبية ــ رفعها بيده معلقا اياها على جبينه لينظر بعيدا .

وكنت أراقب هذا الرجل من لحظة شقه للستار وخروجه منه ، ولم يدر فى خلدى أبدا أن هــذا الرجل هو الأستاذ أوزنفانت .. فلقد كنت أعتقد انه فى الخــارج وانه سيأتى من الباب ــ من حيث أتيت أنــا وليس من وراء هذا الستار المغلق .

ذهبت اليه السكرتيرة تحدثه بالفرنسية التى لم أسمع منها سوى كلمــة Egyptian ففهمت أنها ربما تكون تتحدث عنى .

وفعلا فقد صدق حدسى ــ وقد نظر الى الأستاذ من بعيد ــ ثم دعتنى السكرتيرة الى الاقتراب من الأستاذ وهى تحدثنى بالانجليزية حيث ان فرنسيتى فى ذلك الحين كانت تساوى صفرا تقريبا .

قدمتنى الى الأستاذ ــ وكررت اسمى عدة مرات حتى يعلق جيدا فى سمعه وبدأ الأستاذ يوجه الى أسئلة عن دراساتى فى الفن وفى أى المدارس أدرس ومن هم أساتذتى ولكن فى اقتضاب شديد ؛ وكان يوجه الأســئلة بالفرنسية وكانت الســكرتيرة تترجم بالانجليزية ــ وبفراستى فهمت من الاقتضاب الشديد فى كلام الأستاذ أن السكرتيرة تطوعت بالمزيد من الأسئلة لم يسألها الأستاذ .. بل لمعلوماتها هى .. « شارى دينسى » السكرتيرة ــ فنانة تدرس مع أوزنفانت منذ فترة طويلة وكانت فى باريس قبل حضوره الى لندن وهى مجرية الجنسية وتتكلم عدة لغات وتقوم بالترجمــة من الفرنسية للطلبة الدارســين الذين لا يعرفون الفرنسية .

وعند ذلك طلب الأستاذ أن يرى أمثلة من رســومى فأعطيتــه كراستين سطرت فيهما رسوما ودراسات للعارى فى الدروس المسائية فى « تشلسى » وكانت عبــارة عن خطوط دقيقة حاســمة معبرة عن

جسم المرأة العاري في أوضاع جالسة ومستلقية وواقفة وكانت الخطوط قد رسمت بعناية ــ عن حب ومزاج رائق ــ فقد كنت أحب هذا النوع من العمل .. الاقتصـاد الكبير في الخطوط كان يخدم ما احسسته نحو جسـم المرأة ، فكانت الخطوط تنسـاب في بساطة تامة في كل الاتجاهات ، وكانت تقول شيئا دائما خلال تلك الفترة القصيرة التي عشتها مع الدرس المسائي ومع موديل معين أعجبت به وأحببته فعلا . فكان ملهما لهذه الخطوط المعبرة .. كانت بنتا رائعة .. اذا وقفت كانت لوقفتها رشاقة في شمم ، واذا استلقت أخذت وضعا متجاوبا تماما مع ذلك الحس الرشيق الهادىء في كبرياء ــ الواقع ان هـذه الرسوم القليلة التي كنت أرسـمها في الدروس المسائيـة عن هـذه الموديل كانت دائما ناجحة .

بدأ الأستاذ أوزنفانت يقلب الرسوم ببطء واحدة تلو الأخرى .. وأنـا اكاد أمسك بأنفاسي .. وتلك الرسـوم التي كنت أعجب بهـا أراها والأستاذ يقلبها سيئة للغاية .. وكيف رسمتها بهذا القبح .. ان الأستاذ سيرفضني .. فأنا مبتدىء وأمامي شوط طويل .

هذه الخواطر كانت تمر بي في تلك اللحظات القصيرة التي يقلب فيها الأستاذ تلك الرسـوم التي لاتكاد ترى من رقتهـا على الورق الشفاف .. وبدأ يتكلم « بالفرنسية طبعا » ولم أتبين لأول وهـلة غير كلمات عن Composition واشارات استحسان .. لمستها من حركة يديه وشفتيه .. ومن ثم (وبغير أن أفهم الكثير) تحرك الأستاذ بنفسه وأخذ حاملا خشبيا في يد وأمسك في اليد الأخرى كرسـيا Stoal ووضع الحامل وبجانبه الكرسي وقال ما معناه انه يمكنني أن أبدأ العمل فورا .. وقال لي السكرتيرة .. عندئذ .. بأن الأستاذ وجد في رسومك بالقلم الرصـاص بداية طيبة تنبىء عن موهبـة وأنك مقبول منذ اليوم .. فشكرتهـا وخرجت الى القاعـة الأولى وأشعلت سيجارة كنت أنفث دخانها براحة كبيرة .

لقد تحدد مستقبلى .. اذن .. انه الفن . علم النفس والتحليل النفسى جزء من ثقافة .. العودة الى مصر لم تعد فى الحسبان .. كل تفكيرى انصب على الجوانب العملية — أولا كيف أدبر مصاريف الأكاديمية ؟؟ — انها مصاريف باهظة بالنسبة لى شخصيا — خمسة عشر جنيها وخمسة عشر شلنا كل ثلاثة أشهر والسنة الدراسية تسعة أشهر — انه مبلغ كبير بالنسبة لمدرسة تشلسى فهى لا تتعدى بضعة عشر جنيها فى السنة .

كنت أحرص على مصاريف مدرسة تشلسى لمدة الدراسة اذ أن ما يأتينى من مصر يكفى للسكن والغذاء ليس الا .

ولكن مصاريف الدراسة فى تشلسى لمدة ثلاث سنوات كاملة — هى المدة المخصصة للحصول على الشهادتين الخاصتين بهذه المدرسة — لا تكفى لعام دراسى واحد عند Ozenfant .

على كل حال ان عندى الآن ما يكفى لدفع مصاريف « الترم » الأول والثانى الباقين فى السنة الدراسية .

وفى اليوم التالى ذهبت الى الأكاديمية وقيدت بها ودفعت المصاريف وأصبحت أحد الدارسين فيها .

فى المساء وبعد العشاء اصطحبنى حامد سعيد الى غرفته وبدأ يحدثنى بأن الخطوة الجريئة التى خطوتها يمكن أن تكون خطوة حاسمة فى حياتى .. انها سترسم طريقى بوضوح لا لبس فيه .. لقد اخترت أن أكون فنانا وليس غير ذلك — انه طريق صعب ليس فيه الا المعاناة ، وان الدراسة فى أكاديمية أوزنفانت لا تؤهلنى لأى شىء آخر ينفعنى فى وظيفة حكومية الا أن أكون فنانا أو على الأقل أركب الطريق الصحيح لأكون فنانا اذا سرت الشوط كله الى النهاية .. وبدأ حامد سعيد يشرح لى المصاعب التى ستقابلنى فى حياتى ومستقبلى

المــادى .. وأن .. وأن ... الخ ولكن كلامه هــذا كان يزيد فى حماسى للسير فى الشوط حتى آخره .

قلت له اننى لم أكن أجهل كل هــذه الاعتبارات التى ذكرها لى وانى عولت على أن أتقدم من « المنزل » لنيل شهادتين معروفتين تؤهلان صاحبهما للتدريس ــ تدريس الرســم فى مدارس التعليم العام ــ واننى سأواظب على حضــور الدروس المسائية فى تشلسى كما انى اشتركت فعلا فى « كورس » عن التشريح و « كورس » عن تاريخ الفن فى مدرسة Slade School of Art London University وانى سأجمع بين أوزنفانت وهــذه الدراسات واننى سأعمل جــادا لبناء نفسى من جديد فنا وثقافة .. واننى .. واننى .. وقد أخذتنى الحماسة .. وابتسم حامد سعيد وقال انه مبسوط لحماستى واصرارى وانه يعتقد فعلا باننى سأصل الى شىء جاد فى نهاية الشوط .

وفى صباح اليوم التالى أفطرنا سويا فى قاعة طعام النزل وذهبنا سويا سيرا على الأقدام الى أكاديمية أوزنفانت للفنون الرفيعــة .. دخلنا من الباب قبل التاســعة صباحا وهو ميعاد بدء الدراســة فى الأكاديمية .

وجدنا السكرتيرة شارى تملأ الموقد بالفحم ثم تشعله .. فحييناها وكانت وحدها لم يحضر « الموديل » بعد كما ان ايا من الطلبــة لم يحضر بعد .. وقــد كانت ــ وظلت هــذه عادتنا فى الذهــاب الى الأكاديمية ــ مبكرين دائما .

وبدأت أعد حامل الرســم والمقعد وأشد الورق على اللوحــة الخشــبية وتثبيته بدبابيس الرسم .. لقد كان هو أول يــوم لى فى أكاديمية أوزنفانت ــ وكان الجو باردا واقتربت من المدفأة لأدفىء يدى .. وكانت المدفأة فى الجانب الأيمن من القاعة وتتوســطها بين الستارتين اللتين يفصــلان القاعات الثلاث ، ولمــا اقتربت من المدفأة

شعرت بحركة خفيفة خلف الستار الداخلى .. ثم انشق الستار وظهر الأستاذ .. أوزنفانت .. وحيانا ثم اختفى وراء الستار .. فعجبت لذلك .. ان الأستاذ يأتى مبكرا قبل كل تلاميذه ليعمل من الصباح حتى الظهر .. وغالبا ما يبقى لنا بعد الظهر يعمل ويعمل فى لوحته الضخمة التى تتجاوز الخمسة عشر مترا مسطحا والتى بدأها منذ نيف وعام بعد تحضيرات عديدة سواء رسوما خطية أو تحضيرات جادة بالألوان ــ انها « الحياة » اسم اللوحة .

كان أوزنفانت فنانا وكاتبا .. ناقدا وفيلسوفا جادا ــ أرسى قواعد « البيوريزم » Purism مع زميله الفنان والمهندس المعمارى العالمى « جانويه » Jeanneuet والذى أطلق عليه أوزنفان نفسه الاسم الذى اشتهر به عالميا فيما بعد وهو « لوكوبيزيه » Lecorbeusier .

لقد أرسى أوزنفان قواعد المدرسة الفنية التشكيلية المذكورة بآرائه وممارسته الفعلية للمبادىء والأسس التى وضعها ونادى بها فى كتاباته العديدة طوال حياته فمن ما بعد « التكوينية التكعيبية » Upred Cubism ، والفكر الجديد Esprit Nauveau الى مانيفستو البيوريزم مع زميله « جانويه » ١٩١٨ ــ ١٩١٩ ــ ١٩٢٠ ... ثم الى « الوثبة » L'Elan وهى مجلة فنية أصدرها بالتعاون مع نخبة ممتازة من الفنانين المعاصرين : ماتيس ، دبران ، بيكاسو ، أبولينير ، ميتسنجر ، وآخرين .

وفى كتابه « الفن » Art و Fowndation of Modern Art ١٩٣٨ ــ رحلة خلال الحياة Journey through life ١٩٣٩ والذى صدر بعد انتهائه من لوحته « الحياة » life أو Biological Life ثم مذكراته التى لم تنشر الا بعد وفاته فى عام ١٩٦٨ .

وفى ١٩٣٢ حصل على وسام :
Chevalier de La Légion d'Houncuer

وفى ١٩٤٩ حصل على وسام :
Officier de la légion d'Honneur

وفى ١٩٢٢ حصل على وسام ميدالية :
Officér de l'ordre des arts et des lettres
Médaille d'Honneur de l'Université de Lund « Suéde»

وفى ١٩٣٦ — ١٩٣٧ كان أستاذا — لكرسى «Chairs» عن تاريخ الفنون وعلم الجمال فى المعهد الفرنسى والليسيه الفرنسى بلندن .

وفى ١٩٣٨ — ١٩٣٩ — أستاذ كرسى الفنون وعلم الجمال فى جامعة واشنطون بأمريكا . وقد أسس « مدرسة أوزنفانت للفنون الرفيعة فى نيويورك وذلك من سنة ١٩٣٩ الى ١٩٥٥ » .

وفى عام ١٩٥٥ عاد الى فرنسا وأسس «l'Ateleir Osenfant» فى كان بجنوب فرنسا .

هكذا كان أوزنفانت منذ بدأ حياته وهو يمارس الخلق الفنى رائدا من رواد الفن الحديث — بل كانوا يطلقون عليه أنه الرأس لطابور رواد الفن الحديث — وبشر بآرائه ونظرياته كتابة وتدريسا ، وعمليا عن طريق لوحاته — فمن أكاديميته فى باريس سنة ١٩٣٢ ، وفى لندن من ١٩٣٥ — ١٩٣٨ حتى أوائل ١٩٣٩ — ثم مدرسته بنيويورك حتى ١٩٥٥ ، ثم مرسمه ومدرسته فى كان بعد ذلك — كان فنانا رائدا وأستاذا على أعلى مستوى من الثقافة والفهم للفن والحياة .

ذكاء لماح وفكر ثاقب واخلاص متناه لفنه وعلمه وتلاميذه .

كان النظام فى أكاديمية أوزنفانت يختلف عنه فى مدارس الفن فى « تشلسى » . الموديل سواء أكان رجلا أم امرأة يأخذ وضعا واحدا

طوال شهر بأكمله . فى مدارس الفن وفى تشاسى على وجه الخصوص كان الموديل يأخذ وضعا واحـدا لمـدة أربع سـاعات فى الدروس الصباحية .. أما فى الدروس المسائية فكان يأخذ أوضاعا سريعة مدة كل منها خمس دقائق فقط .

شهر كامل لوضع واحد للموديل .. هـذا وحده كان كافيـا ليغير فكرى وسلوكى نحو فن الرسم .. هل يعقل أننى أجلس فى مقعدى أو أقف على قدمى أمام اللوحة لارسم وضعا واحدا للموديل طوال شهر كامل ؟ .. كان هـذا أول تساؤل يمر بخاطرى قبل أن أجر خطا واحدا على اللوحة .

بدأت أفكر جديا فى هذه المسألة .. بل انها شغلتنى تماما حينما شرحتها لى السكرتيرة .. وبدأ الطلبـة يحضرون ثم جاء الموديل وكان رجلا ثم بدأت السكرتيرة فى ارشاد الموديل بعد خلع ملابسه للوضـع الذى اختارته له .. وكان وضعا صعبا .. بل مؤلمـا للموديل ــ فى نظرى على الأقل ــ ولكن الموديل المحترف أخذ الوضع فى سـهولة ويسر .

بدأت أنـا اتحرك هنا وهناك اشاهد وضع الموديل من زوايـا مختلفة حتى أختار منها ما يناسبنى .. ثم حملت كرسيا وحاملا ووضعته فى المكان الذى اخترته وكان مكانا بعيدا عن بقية أماكن الطلبة .. حتى أنه كان من الصعب على أحد أن يأتى من خلفى لكى يشاهد ما أرسم فلقد كان الحـائط ملاصقا لى تماما .. كنت خجولا .. وأخشى نظرة تهكم لمـا أرسـم من كائن من كان .. لقد كان الجو مشدودا بالنسبة لليوم الأول ولتجربتى الأولى فى هذا المكان .

بدأت العمل فى تأن .. لم أخط خطا واحدا ، ولكنى كنت أتأمل الموديل وأتحسس كل خطوطه وأختار منها ما يناسبنى للبدء به .

ومرت ساعة ولم أخط شيئا على الورقة ، وصحوت من تأملى على صوت السكرتيرة «Rest Please» استرح من فضــلك .. والكلام موجه للموديل ــ فجلس الموديل وهو يحرك أطرافه ويدفئها بالقرب من الموقــد .. وكنت لازلت أرقب حركتــه وخطوطه .. ثم أشعلت سيجارة وبدأت أدخنها .. هدوء عجيب فى المكان الطلبــة يعملون فى جد ، والأستاذ يعمل فى داخل قاعته .. ولا أسمع صوتا شاذا يعلو ، والكل يتحرك فى هدوء تام .

كنت أقارن بين هذا الهدوء والقاعة ممتلئة بأكثر من ١٥ طالبا ــ وبين قاعــة مدرسة تشلسى .. والصخب الذى كان يشــوش على تفكيرى خصوصا وقت راحة الموديل .. دخنت السيجارة ثم رميت بنهايتها (العقب) على الأرض « الأسمنت » ودستها بقدمى لاطفئها ، وما ان انتهيت من هــذه الحركة التى كنت قد تعودتها فى مدرســة تشلسى وعلىالباركيه اللامع ــ حتى انفرج الستار وخرج الأستاذ الذى لمح حركتى مع عقب السيجــارة وذهب من فوره الى حيث توجــد « طفايات » صغيرة من المعدن على رف جانبى وجاء بواحدة وفى سكون تام وهو يمشى على أطراف أصابعه وضع « الطفاية » على ركن جانبى من الحامل .. ونظر الى وابتسم بغير كلمة واحدة ــ أعتقد أن وجهى قد احمر قليلا من الخجل ــ ولو أننى لم أنظر فى مرآة فى تلك اللحظة ولكننى أحسست أن وجهى قد عرته سخونة طفيفة .. وكان الدرس الأول لى من الأستاذ .

انتهت فترة الراحة للموديل ــ وأخذ مكانه ووضعه الأول ــ وبدأت أتأمل الموديل وأحــاول أن أبدأ الرســم .. ولكننى لم أبدأ الرسم أبدا من هذا الموديل لم أعرف لمــاذا .. ؟ .. ولكن ربما يكون لشعورى بأن الرجل يأخذ وضعا صعبا قاسيا وهو يتألم .. ولكن فى صبر وصمت .. وان شعورى هــذا قد شغل تفكيرى كلية على

ما أعتقد — على كل حال لقد كان هـذا هو آخر يوم فى الشـهر لهذا الرجل الموديل •• وظلت لوحتى بيضاء حتى بداية الشهر الجديد•

كانت الموديل فتـاة •• وكان الوضـع جالسـا والسـاق فوق الساق •• وقد لفت نظرى وضع الساق فوق الساق والتقاء خطوط الساق العلوية مع الساق السفلى وكانت هـذه هى ما بدأت بهـا رسومى مع الأستاذ أوزنفانت •• دراسة ساق فوق ساق مجرد دراسة للخطوط — التقاءها وتباعدها — رحلتهـا وحيدة ثم مع جارتها •• وصفها للسطح الممتلىء •• هذه كانت المشاكل التى صادفتنى فى هذه الدراسة •• كانت دراسة واعية فى هذه المرة •• دراساتى من الموديل فى تشلسى كانت على ما أعتقد نصف واعية •• ولذلك كانت العمليـة هنا صعبة •• وربما كانت أقل لمعانا من تلك الدراسات النصف واعية أو التلقائية اذا شئنا •• كان هـذا ما يبدو لى فى المرحلة الأولى من الدراسة •• الكروكيات السريعـة النصف واعية كانت لها حـلاوة ، وحلاوة لم تكن لتلك الدراسات الواعية أو قل الأكثر (وعيا) • كان الخط هنا يزحف ببطء شـديد مستقيم وينحنى أو ينكسر بالضرورة التعبيرية والجمالية — ذلك الانسياب والسـهولة فى الانطـلاق فى الدراسات السابقة بدأت تذوب تحت الوعى بقيم أخرى •

رحلة الخط تسحب العين معها فاذا كان الخط سـهلا كانت الرحلة سهلة وسريعة وتقل متعتها •• الخط بطىء قد يسرع فى بعض من رحلته وقد يبطىء فى البعض الآخر وله وقفات تستريح عنده العين ثم تبدأ الرحلة من جديد •• هـذه متعة للعين فى رحلتها وهى تراقب هذه الحركة الموسيقية المدروسة •• كان هـذا درسا رائعـا لى من الأستاذ أوزنفانت عندما كان يشرح ذلك لأحد الدارسين والكل مجتمع حوله يستمع لهذا الشرح — ان الأستاذ كان يشرح المشكل الخـاص بالدارس على أنه مشكل عـام ومبدأ هام فى العمل الفنى ، ولذا كان

الجميع يتركون أعمالهم ويلتفون حول الأستاذ وهو يمر على الدارسين ليستمعوا الى شرحه — كان الأستاذ يخرج من مرسمه الذى لا يفصله عنا سوى ستار من القماش •• فى حوالى الساعة الثانية عشر ظهرا ليبدأ المرور على الدارسين •• كان نقده يشدنا جميعا فالكل من حوله •• كان نقده يتناول المشكل من جوانبه الفنية والموسيقية والمعمارية والثقافية والحضارية •• انها محاضرة رائعة يلقيها الأستاذ من بداية مشكل صغير وجده عند أحد الدارسين — ثم ينتقل الى الآخرين •• قد يقول شيئا وقد يمر بلا كلام •• كان حديثه دائما بالفرنسية ، وكانت السكرتيرة تترجم الى الانجليزية •• كان يعرف الانجليزية ولكن كانت له سيطرة تامة على لغته الفرنسية ، وطلاقته فيها كانت هى السبب فى عدم استعماله للانجليزية التى كان ينطقها أحيانا بلكنة فرنسية •

جاءنى أوزنفانت •• وتأمل بداية عملى ولم يتكلم هذه المرة •• وجاءنى فى اليوم التالى وكان العمل يتقدم ببطء •• وقال ••.. «Good» وابتسم وذهب الى آخر — وفى المرة التالية وضع لى نقدا بناء لم انسه ولم يترك ذاكرتى حتى الآن • الخط يسير فى رحلة موسيقيا ومعماريا بشكل مقبول وطيب •• ولكن الخط لا يصف السطح الممتلىء داخل انحناءاته كما ينبغى — ان الشكل الذى يحده الخط يرى وكأن الخط قد قطع بسكين ، وأن الخط لا يستشعر الامتلاء الذى يحده •

أمسك أوزنفانت بالقلم الرصاص الذى كنت استعمله وقد دببت سنه رفيعا طويلا •• أمسك بالقلم من طرفه غير المدبب وبدأ يشرح فى ركن من اللوحة كيف يمكن رسم الخط مع احتفاظه بكل خصائصه المعمارية والجمالية بحيث تضاف اليه صفة أخرى الا وهى وصفه للسطح الذى يحده — وبدأ « يبنى » — وكلمة يبنى هنا لها دلالتها

الكبيرة — فانى فعلا شعرت أنه يبنى الخط — لقد بدأ يرسم أقواسا دقيقة تنحنى بخفة وبانحناءات دقيقة نحو السطح الممتلىء •• ثم عكس اتجاه الانحناءات •• وظهر واضحا أن السطح الممتلىء بدا بوضوح ممتلئا فعلا فى الحالة الأولى وفى الحالة الثانية — أى بعد تغيير اتجاه الانحناءات ظهر امتلاء السطح المعاكس والذى لا يراد اظهاره ممتلئا •

كانت هذه العلامات البسيطة بالقلم التى خطها على ركن لوحتى توضيحا عمليا لا يحتاج الى أى كلام •• وتركنى وذهب •• لقد استوعبت الدرس •

ان شرح أوزنفانت لهذه العملية بين لى ان اكتساب مهارة ما لا يكون لمجرد اكتساب المهارة — ولكن المهارة والمعرفة ينبغى أن يكون لها هدف وغرض جمالى فى مجال الفن والا أصبحت مهارة أكاديمية خاملة •• الخط فى رحلته الايقاعية والمعمارية هو فى حالتى هذه نهاية شكل ونهاية كتلة ونهاية سطح ممتلىء فاذا عجز هذا الخط — بكل القيم الجمالية التى يحملها — فان قيمته تظل ناقصة بل وتنقص الكثير من قيمة « الفورم » الكلى •• اذا لم تتكامل معه •• وهذا التكامل سيضيف الكثير الى الخط والى « الفورم » والانفصام سيحطم الكثير من قيمة الاثنين •

ان المهارات التى كان أساتذتنا فى مدرسة الفنون بتشلسى يهتمون بها هى المهارات التى تمكننا من نقل الشكل الظاهر للعين فى الطبيعة المراد رسمها ، أى المهارات التى تسهل نقل ما يقع على شبكية عين الدارس من مظهر الشكل حرفا بحرف بلا أى « تفسير » أو أية محاولة لاكتشاف القيم الجمالية فى الطبيعة المرسومة •

يقول أوزنفانت فى هذا المجال •

ان نقل الطبيعة حرفا بحرف ليس له صلة بالفن •• انه عمل

ميكانيكي آلي مثله كمن يغترف المـاء من دلو مملوء ليضعه في دلو آخر فارغ فيمتليء الدلو الفـارغ بنفس المـاء الذي كان في الدلو الأول .. ان الطبيعـة تقع على شبـكية العين فتنقل كمـا هي على اللوحة .. ينبغي للطبيعة أن تدخل صدر الفنان وقلبه وعقله وماضيه وحاضره حتى تخرج شـيئا آخر غير الطبيعة المرئيـة بتلك النظرة العابرة .. النظرة الفوتوغرافية .. حتى تخرج طبيعة مثقفة مشحونة بوجدان الفنان .. وهنا ينبغي للمهارات التي يكتسبها الدارس أن تكون مهارات تؤدي الى هـذا الغرض ـ الى تثقيف الطبيعة بوجدان الفنان ـ الى تحقيق القيم الجمالية التي يستشفها الفنان في الطبيعة ـ واذا لم تحقق المهارات المكتسبة هـذه القيم فلا خير منهـا ، فانهـا مهارات ميتة » .

لقـد استهواني « الخط » واستحوذ على اهتمـامي .. كانت الموديل جالسة وقد شبكت يديها في بعضها وكانت حركة الأصـابع مع بعضها لها ايقاع موسيقي جميل ـ علاقة الخطوط .. التفافها ثم التحامها ثم افتراقها وترددها وهي تصفف تلك الأصابع المتشابكة .. شدتني هذه الأصابع اليها .. وبدأت أتأمل هـذه الأصابع المتشابكة فترة من الزمن واستوعبت ايقاعاتها واحتضنت تلك الايقاعات في نفسي فترة حتى نضجت في فكري وبدأت العمل في اللوحة . وفي نهاية المدة كانت تلك الأصابع .. أصابع اليدين المتشابكة .. قد ملأت سطح اللوحة وزادت ايقاعاتها بايقاعات أخرى جديدة عليها ، هي ايقاعات أصابع القدمين وقد تآلفت معها في تكوين متكامل بالخطوط الحساسة المحسوبة .. بوعي كامل لكل القيم فيها .. كانت هـذه أول لوحة ناجحة لي في رأيي .. كما امتدحها أوزنفانت وزملائي في الدراسـة أيضا .. وقد عجبت في نفسي كيف كنت أرسم الموديل كاملا في خمس دقائق ، وأرسـم بضع خطوط لأصـابع اليد والقـدم في شـهر كامل ... ؟؟

كانت هذه خطوط أولى خطواتى نحو الدراسة الواعية واكتساب حاسة النقد الذاتى ومراجعة نفسى فى كل خطوة بل مراجعة الأستاذ حتى ان نمو هذا الحس بالنقد الذاتى قد سبب لى أزمة بل وأزمات فيما بعد .

هذه اللوحة قد أعجب بها الأستاذ المرحوم يوسف العفيفى عندما عدت الى مصر فأهديتها له ــ ولا أعرف أين هى الآن .

كانت دراساتى بالقلم الرصاص كما كان يدرس الجميع ، سوى رجل وسيدة من الانجليز المتقدمين فى السن يرسمون بالألوان الزيتية ، وسوى سيدة شقراء طويلة القوام مسز جولد فنجر Mrs. Gold Finger وكان زوجهــا معماريا له قيمته ، فكانت تعمــل بالنحت وتشــكيل الصلصال .. أما باقى الدارسين فكان القلم الرصاص هو وسيلتهم فى الدراسة .

كنت أستمع الى نقد الأستاذ للعضوين اللذين يصوران بالألوان الزيتية وأنصت الى كل كلمــة يقولها .. اذ أنى كنت أعتقد أنه لابد لى ان أنتقل الى هــذه المرحــلة وهى التصوير بالألوان الزيتية .. انها ثابتة وباقية .. فكنت أنصت حتى استوعب تعليماته فى هــذا المضمار .. كانت دراستى مع أوزنفانت تسير فى طريق سليم وكنت أشعر بثقة فى نفسى كلما أحرزت تقدما يلاحظه الأستاذ وينوه به .. وكان هناك طريق آخر لا يقل أهمية عن هــذا الطريق يسير موازيا له ومكملا له فى نفس الوقت وكان لابد للتقدم فى الطريق الأول من أن يصاحبه ويلازمه تقدم فى الطريق الآخر .

العطلة الأسبوعية كانت يومى السبت والأحد .. وذلك بخلاف الأمسيات التى لم يكن لى غير البيت أقضيها فيه ــ الا ما ندر ــ حيث أننى كنت أحسب الميزانية بالبنس الواحد .

فى غرفة حامد سـعيد فى ٨٣ Warwick Road كنـا كثيرا

ما نجتمع أنـا وزميلي سعد الخـادم وبعض الزملاء والزميـلات من الدارسين والدارسات فى أكاديمية أوزنفانت .. كنا نجتمع دائما حول كتاب من الكتب يتولى أحدنا القراءة ــ وغالبا ما يكون القـارىء حامد سعيد ــ ونحن نستمع ، وقد يدور النقاش حول نقطة ما بين الحين والآخر .. كانت تمضى ساعات فى هـذه القراءة والنقاش ــ وكان الكتاب وموضوعه يقترح فى سطوره كتابا آخر وموضـوعا آخر ، وهكذا كانت تسير هـذه الأمسيات مع حامد سعيد فى قراءات ومناقشات جادة ممتعة .. وكانت هذه الأمسيات والقراءات تفتح لى أبوابا كثيرة للفكر والتأمل .. فقد كانت تتناول مسائل على مستوى عال من الثقافة والفكر .

وكانت « الميزانية » هى المتحكمة دائما فى الكثير مما كنت أود فعله أو شراءه من الكتب وخلافه ــ ولكنى وجدت حلا ممتازا لهذه العقبة . فى لندن محـلات لبيع الكتب المستعملة وهى دائما فى حالة جيدة استغنى عنها أصحابها بعد قراءتها ــ فكنت أذهب الى هـذه المحلات وبمبلغ لا يزيد على خمسة شلنات كنت أخرج بما لا يقل عن نصف دستة من الكتب القيمـة .. كما أن الطبعـات الرخيصة مثل Pelican' Every Man's' Penguin وغـيرها والتى لا يتـعدى ثمن الكتاب منها بضع بنسات ــ كانت كفيلة بسد حاجتى الى القراءة .. أما الكتب الغالية والتى لم أكن أستطيع شراءها فكنت اما ان استعيرها من حامد سعيد أو سعد الخادم أو أجدها فى المكتبات العامة .

وكان يوم السبت مخصصا دائمـا ــ الا ما ندر ــ لزيـارة المتاحف .. المتحف الأهلى على وجه الخصوص National Musuem ويوم الأحد المتحف البريطـانى فى الصباح ثم فى المكتبة الرائعـة الخاصة بالمتحف British Musuim . وبالمتحف كافيتريا صـغيرة كنت أتناول بعض السندوتشات وفنجانا من القهوة ثم أطلب الكتـاب

الذى لم أستطع شراءه أو أجده عند الأصــدقاء ، وكان الكتــاب يأتينى فى دقائق بل فى ثوان فى بعض الأحيان •• ومن الكتب التى قرأتها فى مكتبة المتحف البريطانى الجزء الثالث من كتاب تاريخ الفن لايلى فور Elie Foure الخاص بالنهضــة الايطــالية •• وكانت قراءته صعبة ولكنها ممتعة للغاية •• لقد ألهب خيالى هذا « الطبيب » الكاتب الرائع بفهمه العميق للفن والفنانين وأسلوبه الفنى المرادف والمعبر تماما عن العمل الفنى الذى يكتب عنه • ففى اعتقادى أن كتاباته ما هى الا تعادل أدبى لا يقل روعة عن العمل الفنى نفســه المتناول • بل هو يــساويه ويطابقه فى المعنى والقيمة •• كان الكتاب يلازمنى دائمــا فى أمسياتى •• طالمــا هو فى متنــاول يدى ســواء بالشراء أم بالاستعمارة •

القراءة كان يصحبها القاموس دائما لأن انجليزيتى لم تكن على المستوى الرفيع ، بل انى لم أترك فى سطر كلمة لم أكن أعرف معناها الا بحثت عنهــا بل ودونتها فى كراسة كانت ترافق الكتاب دائما ، وبهذه الطريقة كانت انجليزيتى تتحسن بشكل ملحوظ ، ومع ذلك فلم أترك القاموس أبدا طوال قراءتى حتى اليوم •• ان الكراســة التى ترافقنى فى قراءتى لكتــاب كنت أدون فيها مقتطفات مما كنت أعتقد فى أهميتــه ســواء ما كنت أقبله وأراه متمشــيا مع آرائى أو ما أجده غير متمش • وكنت فى هــذه الحالة أعود الى الكراســة لأناقش هذا الرأى المعاكس وأضع على هامشه ما أراه أنــا ، وقد يتغير رأيى فيما بعد عندما يزداد نضوج أفكارى ، فكنت أعود مرة ثانية لنفس الكراســة وأدون ملاحظاتى بما وصلت اليه •• كان فى هذه الطريقة فائدة كبيرة لى فى هضم ما أقرأ •

ان فى مكتبتى الآن عشرات من هذه الكراسات التى اعتز بهــا « غير ما فقدته منها والجزء الأكبر من مكتبتى عند الانتقال السريع

من باريس الى القاهرة ابـان الحرب العالمية الأخيرة سنة ١٩٤٠ » .

كان للأستاذ حامد سعيد فضل كبير فى هـذا المضمار .. كان قارئاً يلتهم الكتب التهاماً ، ولكن بهدف ثابت يضعه هو لنفسه . انه يريد بناء شخصيته الواعيـة المثقفة ــ فهو يبحث عن كل ما يحقق له ذلك .

كان حامد سعيد قدوة رائعـة لنا ــ ليس بالنصح والارشـاد ولكن بما يعمله هو نفسه .

وبذلك الجو الجدى الرائع الذى يحيط به ســواء فى العمل فى الأكاديمية أو فى مجال القراءة واختيار المواضيع والكتب أو فى زياراته للمتاحف واختيـاره للأحسن دائمـا ــ كانت صحبته ممتعة ومناقشاته جادة ومفيـدة .. وكان لا يبخـل على برأى أو نصيحـة أو كتاب .. وكان له أصدقاء عديدون . يأتون من مصر ســواء فى بعثات طويلة أم بعثات صيفية .. فيزورونه فى البيت الذى كنا نقيم فيه معا .. بل ان الكثير منهم كانوا يقيمون معنا حتى أن البيت أصبح معظم سكانه من المصريين .. وانى لأذكر من الشخصيات الفاضـلة التى زارتنـا أو التى أقامت معنا .. الأساتذة : محمد فؤاد جـلال وأسرته .. وعبد الرزاق صدقى .. والسيدة عدالات حرمه ــ التى لم تكن حرمه فى ذلك الوقت .. والأستاذ الدكتور عبـاس عمار ــ عبد العزيز سلامة ــ سعيد بدرى ــ والرحالة محمد ثابت وغيرهم .. وكنا نستمتع دائما بما يدور من مناقشـات جادة ، فمنهم من كان يدرس علم النفس ومنهم من كان يدرس علم الأجنـاس ومنهم الزراعة وعلم الوراثة . فكانت الأحـاديث والمناقشـات تتعـدد وتتنوع فى الأمسيات .. وكنت فعلا أجد متعة كبيرة فى تتبع هـذه الأحاديث من هؤلاء الأفاضــل كل فى عمله .. وكل فى تخصصه .. لذلك عندما

كانت تتجه الأحاديث والمناقشة الى الفن كانت آراءهم طريفة ولو أنها تكون غالبا شخصية ولكنها ، أمينة لأشخاصهم •

استمرت الدراسة جادة فى آكاديمية اوزنفانت ، وعملى فى تقدم مطرد وقراءاتى تتعدد وتنمو فى أكثر من اتجاه وفى حدود الامكانيات التى ذكرتها ، ولكنى أحسست بأن القراءة واعـادة قراءة ما قرأت كانت أفيد لى من التنقل السريع بين الكتب والمواضيع المختلفة ، لأن استفادتى الحقة ونمو ثقافتى كانت فى هضم وتأمل ما قرأت •• ان ما فى الكتب هو خبرة لأناس عاشوا وقرأوا وازدادت خبراتهم ، وهم يعطوننا هـذه الخبرة مركزة مهضـومة فى أعمالهم وكتبهم •• وهذه الخبرة المهضومة ينبغى لنا أن نهضمها بالفكر والتفكير والتأمل الطويل حتى تزداد بها خبراتنا نحن •• ان المعرفة والثقافة ليست مجرد معلومات نستقيها من الكتب فى شتى النواحى لنتشدق بها فى أحاديثنا ، ولكن الثقافة هى خبرات مهضومة ووعى بتلك الخبرات والقيم •• لقد تعلمت هـذا ببطء ــ وكلما تقدمت بى الأيام والشهور ــ ولا أقول السنون ــ لأن رجوعى المستمر الى كراساتى التى كنت أدون فيهـا مقتطفات من الكتب التى قرأتهـا ومراجعتها بالفكر والمناقشة الجوانية ــ بل واضافة مقتطفات أخرى متوافقة أو متناقضة من مؤلفين مختلفين وكتابات مغايرة ــ كانت هـذه المراجعة وتأمل تلك الآراء وامتحانها ــ كانت فى كثير من الأحيان تستدعى اعـادة قراءة كتاب ما ، أو البحث عن كتب أخرى فى نفس المواضيع حتى تلتئم الحلقات فى فكرى وتتضح المعالم •

وبهذه الطريقة فى القراءة واعـادة القراءة والتأمل فيما أقرأ ، ومراجعة آراء متوافقة أو متناقضة كنت أشعر بأن خبراتى تنمو بشكل طبيعى وحقيقى وأن قراءاتى ليست لمجرد معلومات تحشد •

كانت القراءة والكتب تستنفد وقتا كبيرا من حياتى ، فمعظم

الأمسيات كانت للقراءة ، والقراءة كانت تستمر ساعات طويلة حتى أن نظرى قد تأثر فعلا وأنا فى سن العشرين لم أتعدها بعد ــ واضطررت لعمل نظـارة طبية للقراءة ولم تكلفنى سـوى شلنين ونصف شلن تبرعت بها للمستشفى الذى عملت عنده كشف النظارة ــ وهنـاك أكتشفت أن عينى اليمنى خاملة منذ الصغر ، ونصحنى الدكتور بان أستغنى عن عينى اليسرى فى الاستعمال بربط عصابة سـوداء عليها واستعمال اليمنى لتقوى .. ولكن لم يكن هذا ممكنا وان وقتى فى لندن ــ وهو لا يتعدى بضع سنين قليلة ــ لايكفى لمران عينى اليمنى، حيث أنها وحدها لا تكفى حاليا لا للقراءة ولا للرسـم .. فتركت التفكير فى هـذا الاقتراح ــ واستعملت النظارة فى القراءة والكتابة فقط ــ اما الرسم والرؤية العادية فكانت لا تحتاج لنظارة ما .

كان هناك طريق آخر غير طريق القراءة والكتب .. طريق يسير موازيا ومصاحبـا له ــ له نفس الأهميـة بل ربما يفوقه تأثيرا فى ثقافتى ونمو خبراتى وشخصيتى .. هـذا الطريق هو الاتصـال المباشر بالأعمال الفنية الممتازة لكبار الفنانين من مصـورين ونحاتين ومعماريين وغيرهم .

من خـلال العرض البسيط لصـور فوتوغرافيـة فى طبعـات « الموسوعة الفوتوغرافية للفن » التى تصـدر عن متحف اللوفر فى باريس الذى كان فى القاعة الأولى « المدخل » لأكاديمية أوزنفانت والتى كانت عبارة عن الفن المصرى القديم « مجموعة اللوفر » وكذا الفن « السومبرى » من نفس المجموعة ــ من خـلال هذا العرض وتأملى اليومى للوحاته عشقت الفنين معا ــ وكان أوزنفانت يطلق على الفن المصرى القديم « الشمسى » والفن السومبرى « القمرى » .. وكان تقديره وتفهمـه للفن المصرى القديم على أعلى مستوى وكذا السومبرى .

كان فى المتحف البريطانى قسم كبير خاص بالفن المصرى القديم — وكثيرا ما كنت أذهب الى هذا القسم فى صحبة حامد سعيد وكانت صحبة هذا الرجل فى المتاحف ممتعة حقا .. فهو أولا عاشق للفن المصرى القديم بل انه متعصب له .. وثانيا ان قراءاته وثقافته ورؤياه كانت متكاملة ، وتقييمه للأعمال الفنية كان على جانب كبير من التقييم الصحيح .. ولذلك فان ما كان يبديه من الملاحظات على بعض الأعمال الفنية فى المتاحف كانت مشوقة لنا فى الاقتراب من هذه الأعمال واستشفاف ما بها من قيم .

فى المتحف البريطانى وفى القسم المصرى وفى أولى ساعات فتح المتحف كنت أجد نفسى وقد افترشت الأرض الرخامية وعليها معطفى السميك أمام أحد التماثيل المصرية القديمة ، وكانت هذه الجلسة تأخذ الوقت الكافى لتأمل العمل وتمحيصه حتى استوعب القيمة وتنتقل الى داخلى عقلا ونفسا وقلبا .. أعيشها بالكيان كله .. كانت هذه الجلسة تمتد فى بعض الأيام الى الساعات أمام أحد التماثيل الرائعة « زوجة رمسيس » Queen of Ramsis كان هذا التمثال يستحوذ على مشاعرى كلها .. انها جميلة فتانة .. صارمة فى جمالها.. شامخة فى عزة وجلال .. لها نظرة الى الماوراء — تتعدى كل الحدود — هذه قيم رائعة تنساب من خلال بناء للشكل ينطق فى كل بوصة منه بالقيم .. هذا الشعر الذى ينسدل على الكتفين فى تؤدة وقوة ويترك للأذن مجالا لتعرض نفسها فى فراغ محسوب جميل ، وتلك الأكتاف القوية الرقيقة فى استدارتها تكتمل بذراعين منسابين الى جانب الجسم فى استدارة تكاد تشف عن عضلات الذراع فى رقة وحساب دقيقين .. ثم صدر ناهد فى انسجام تام مع كل ما سبق.. انها رائعة .. عشقتها وصادقتها .. وتعلمت منها الكثير .. واشتريت من المتحف صورة فوتوغرافية لها وكانت هذه الصورة أمامى فى

البيت أراها وأتأملها صباحا ومساء .. كانت لى صديقة .. ولم أكن أزور القسم المصرى فى المتحف الا وأعودها بجلسة طويلة أمامها .. لا أقول لها شيئا ولكن بعد فترة تبدأنى هى بالكلام .. كانت تقول وتتحدث طويلا .. وفى كل مرة من زياراتى العديدة كان حديثها يعمق فكرى وحسى ووجدانى .. وحتى اليوم وقد تخطيت الستين من عمرى .. ان هذا التمثال الرائع لزوجة رمسيس الثانى لم يبرح مخيلتى بل أن رؤية صورته تملؤنى فرحا رصينا عميقا ينبع من الداخل .. ان هذا الفرح الرصين العميق الذى تملؤنى به رؤية هذا العمل الفنى الرائع لا يضارعه فى هذا سوى أعمال فنان ايطالى عظيم هو المصور ـ بيروديللا فرانشيسكا Pierro Della Franchesca

فى صدر الصالة الرئيسية فى المتحف الأهلى National Musuem بلندن توجد ثلاثة أعمال لهذا الفنان الايطالى العظيم « ديللا فرانشيسكا » فى صدر الصالة الكبيرة وعلى يمين الباب الموصل لقاعة أخرى وعلى يساره كانت لوحتان لهذا الفنان العظيم ، وقد رسمها « بالتمبرا » ونفذ الرسم على الخشب ، على يسار الناظر كانت لوحة العماد Baptism : المسيح عيسى قد وقف فى وسط اللوحة وبداه فى وضع صلاة خاشعة ، ويوحنا (المعمدان) Baptist يصب الماء فوق رأس المسيح عيسى ، وشجرة ينبثق ساقها من الأرض الى أعلى حيث تقف على جانبها الأيسر ثلاث فتيات .. ملائكة .

بيرو ديللا فرانشيسكا كان عالما رياضيا وأستاذا لعلم الرياضة Mathmatics وكان الحساب الهندسى الدقيق يحكم كل أعماله المصورة .. ان كل خط وكل مساحة وكل كتلة أو فراغ كان محسوبا ومقدرا بدقة العالم وحس الفنان فى نفس الوقت .. ان القيم التى كانت تشع من هذه اللوحة وفى جميع أعمال هذا الفنان « سنة ١٤٠٠ » كانت تقارب فى محصلتها ـ القيم التى كانت

تشع من تمثال « زوجة رمسيس الثاني » : الحس الرياضي وذلك الفرح الرصين الذي يشيع فينا شيئاً فشيئا كلما آدركنا ان ذلك الحساب الرياضي المحكم يحمل في طياته خيالا حافلا بالقيم الوجدانية.. ويزداد ذلك الفرح والسرور الدفين العميق كلما تبدت لنا تلك القيم وأسفر عنها ذلك النظام الهندسي الرائع .. هذه الفتيات الملائكة الثلاث اللاتي وقفن يباركن المسيح في عماده ليشع عنهن أعمق الحس بالفرح في بنائهن الشامخ ورقتهن المحسوبة .. ورأس المسيح عيسى تستسلم ولكن في مهابة وعزة يحملها جسده وبناؤه المعماري .. ينهض في كل جزء من أجزائه بالقيم .. ثم على يمين الناظر لوحة أخرى : « الميلاد » Mativity والطفل عيسى راقد والملائكة تغني على ايقاع الآلات الموسيقية — وكأني وأنا أشاهد هذه اللوحة أسمع موسيقى سماوية فعلا .. والفرح يغمرني بتأمل تلك الفتيات الملائكة وقد انفرجت شفاههن عن تراتيل سماوية . وهناك لوحة أخرى لنفس الفنان ، لقديس قطع رأس الوحش « الشر » .

لقد تعلمت الكثير من بيرو ديللا فرانشيسكا — حسابه الرياضي وحسه المرهف الفياض بالفرح الروحاني الرصين ، وتكويناته التي حسبت كل دقيقة فيها .. لقد علمني هذا الرجل وغرس في نفسي أعمق الأثر .. واني لأدين له في ثقافتي وفني بالكثير والكثير جدا .

في ظروفي في ذلك الحين لم آكن أعرف عن الموسيقى الأوروبية الكلاسيكية شيئا على الاطلاق ، بل اني لم آكن قد سمعت أبدا أسماء مثل باخ أو موزارت .. أو حتى بتهوفن .. كل ما كنت أعرفه كان عن الطرب والأغاني السائدة في ذلك الحين .. كان لي قريب جاوز السبعين من عمره وكان هاويا للموسيقى وهو مثقف يجيد الفرنسية وله مكتبة غنية بالفرنسية والعربية .. وفي هذه السن كان يأتي الينا بين الحين والحين ليشرب فنجانا من القهوة ويحكي لنا « أنا وأخي »

عن أهل الفن والموسيقى ، وقد تتطور الحكاية الى ضرب الأمثلة فكان يعطى الأمثلة غناء بصوت به « حشرجة » السن .. ولكن كانت هذه الأمثلة من الغناء فيها صـدق واحساس عميق ، فقد كانت أغاني وتواشيح قديمة .. وتطورت هذه الزيارات لما وجد قريبنا هـذا استجابة واستحسانا لرواياته وغنائه الى أن أحضر « عوده » ـ وقد اهداه لى فيما بعد ـ وبدأ يعلمنى الضرب على العود والغناء أيضا .. ولكنى لم أوفق .. فاعتذرت له بعد شوط طويل ورجوته أن يسمعنى هو ضربه على العود مصاحبا لغنائه .

لقد أحببت التواشيح فى ذلك الوقت وأحببت الغنـاء القديم بصوت ذلك الشيخ الأجش .. كان هذا هو كل نصيبى من الثقافـة الموسيقيـة .. ولكن هنـا فى لندن بدأت اتفتح تماما للموسيـقى الكلاسيكية .

كانت لنا زميلة فى أكاديمية أوزنفانت .. « فيزى » Fuzzy هى أخت لزوجة الناقد الكبير هربرت ريد .. Herbirt Read متدينة شـديدة التمسك بدينها تلبس زيا خاصا له حزام عريض مشدود على وسطها ـ وقد جاءت من أدنبرة لتدرس مع أوزنفانت فترة من الزمن ثم تسـافر الى رومـا فى منحـة للدراسـة هنـاك . أعارتنـا Fuzzy مجموعة ضخمة من الاسطوانات الكلاسيكية وبها منوعات كثيرة لكبار الموسيقيين ، وبدأت انتبه الى هذه الموسيقى التى شدتنى تماما اليها واستمعت على « فونوغراف » يدار باليد ـ على نماذج من السيمفونيات والكونشرتات لأعلام الموسيقى ـ وقد شـدنى تماما اليه فى ذلك الحـين « موزارت » : الهافنر والجـوبتر Hafner, Juppiter سيمفونيتان كنت أستمع اليهما دائما ، وكانت الحركات البطيئة تشـدنى بما فيها من تأمـل متفائل ، وكانت قوة موزارت فى ذلك الفرح الكبير الذى كانت تشعه موسيقاه فى نفسى .

بيرو ديللا فرانشيسكا يساوى موزارت (فى ذلك الحس بالفرح الكبير) •

كان المتحف الأهـلى بلندن يضم مجموعــة كبيرة من أعـــمال التصوير لكل مدارس التصـــوير الأوروبية والايطـالية والفرنسية والأسبانية والهولندية والبلجيكية والانجليزية وكانت المجموعة من الكبر بالنسبة لدارس مثلى •• أكبر من أن أستوعبها فى ذلك الحين فلجـــأت الى اختيار الأحسن والأوفق بالنسبة لى وركزت دراساتى عليـــه •• بحيث أن ترددى المستمر على المتحف كان يقتصر فى معظم الأحيـــان على عدد من اللوحات المختارة ــ وكان يزيد شيئا كلما تعددت مرات الزيارة للمتحف •• وكان لهذا نفع أكبر لى حيث أن تكريسى الزيارة لدراسة وتأمل عمل واحد أو اثنين كان يجعل القيم تتكشف لى أكثر وأكثر ، وكانت الدراســة تبتعد عن السطحية تماما •

من المدرسة الفرنسية شدنى اليه اثنان من المصورين الكبار : أولهما بوسان Poussin ــ وذلك للحساب الهندسى والرياضى المحكم الذى يسيطر على لوحاته فى تكوينها العام وفى كل تفصيلة فيها مهمـــا دقت •• ذلك الفنان الذى قـــال : « انى لم أترك شـــيئا » I left Nothing بمعنى انه لم يترك شيئا بغير تحقيق وتصميم •

كان بوســـان •• أستاذا آخر لى ســـعدت بصحبته فى المتحف الأهـــلى بلندن ثم بعد ذلك فى متحف اللوفر بباريس مع مجموعتــــه الكبيرة الرائعة •

ان دراستى للوحات هذا الفنان كانت تنصب على هندسـيته المحكمة التى تسيطر على كل تفصيلة وكل دقيقة فى اللوحة .. كان بوسان هو فرنسا فى ذلك الحين (القرن ١٧) وان مدارس الفن التى جاءت بعده كانت تستقى منه ومن فنه وخصـوصا حسابه الرياضى وهندسيته .

وكان المصور الثانى هو كلود لورين .. وسيأتى ذكره فيما بعد .

فى الربيع الثانى من عام ١٩٣٧ حدث أن لحقت بى ضائقة مالية حيث انه لم يصلنى من مصر أى نقود حسب العـادة .. فأرسـلت الخطاب تلو الخطاب لاستفسر عن الأسـباب ، وكان يأتينى الرد دائما بأن النقود قد أرسلت .. واستفسر فى البنك فلا أجد شيئا .. ويمر شهر ويأتى الشهر التالى والنقود لم تصل .. وشعرت بضيق شديد .. وعزمت على تغيير سكنى لكى أوفر بضـع شلنات فى الأسبوع حتى تأتينى النقود .. وكانلى زميل انجليزى فى مدرسة تشلسى قابلته بالصدفة بالقرب من سكنى وسألنى عن دراستى الجديدة مع أوزتفانت فتحدثنا قليلا وسألته اذا كان يعرف سكنا فى هـذه المنطقة رخيصـا نسبيا حيث اننى كنت أدفع حوالى ٣٠ شلنا فى الأسبوع ــ فقال ان والدته عندها سكن واقامة لى بأقل من هـذا المبلغ فذهبت معه فى الحـال الى والدته .. وقابلت والدته ورأيت الحجرة فكانت حجرة رحبة ونظيفـة ومحتوياتهـا من فرش أحسن بكثير من سـكنى فى Worwick Road ووجدت ان الأجر الأسـبوعى ينقص بضـع شلنات .. فقبلت .. وكانت والدة الزميل هاشة باشة مرحبة بى ..

ووعدت بأن أنقل حاجياتي الى الغرفة في اليوم التالي . وذهبت الى البيت وبدأت أرتب حاجياتي في الشنط .

قابلني حامد سعيد فأخبرته بما عولت عليه لأوفر بضع شلنات في الأسبوع وخصوصا وأن المرتب الشهري لم يصلني شهرين متواليين ..ففكر قليلا وسألني أين يوجد هذا المنزل وهل به حجرة أخرى .. انه يود الانتقال من هذا المنزل أيضا لازدحامه بالسكان والمعارف .. وانه يود أن يعتزل المعارف قليلا ليتفرغ لقراءاته وعمله ... الخ .. واصطحبته فعلا الى المنزل الجديد وقابلنا السيدة صاحبة المنزل وعرفتها بصديقي المصري حامد سعيد وانه يرغب في الاقامة معي اذا وجدت غرفة خالية في المنزل .. وقد شعرت للحظة خاطفة ان الابتسامة التي قابلتني بها قد اختفت فور رؤيتها لحامد سعيد ، وطلبت مني أن أتبعها منفردا وتركت حامد سعيد ينتظر ، ودخلنا الى الصالة وبدأت الحديث بما يفهم منه انها قبلتني بل رحبت بي لأني أولا زميل لابنها في الدراسة وثانيا لأن لوني أبيض وشعري بني ولكن زميلي .. حامد سعيد أسمر داكن ، وشعره أكرت وهو يفرقه من المنتصف على طريقة الهنود .. انه هندي أكثر منه مصري.. هكذا حدثتني السيدة الانجليزية صاحبة المنزل ، وأسفت لأنها لن تستطيع قبوله في المنزل لا لتعصب منها ضد اللون أو الجنس ــ ولكن لأن زبائنها من سكان المنزل ــ وكلهم من الانجليز والاسكتلنديين ربما يتركون المنزل اذا علموا بأنني قبلت الملونين .

وقد حاولت التصدي لهذا الكلام الغير مقبول على الاطلاق « وخصوصا وان حامد سعيد فنان مثقف وو .. الخ » ولكنها ابتسمت ولم تزد..وكانت النتيجة انني اعتذرت أنا أيضا عن الاقامة في منزلها وذهبت الى حامد سعيد ثائرا حيث كان ينتظر في الردهة الخارجية ، وقبل أن انطق بحرف واحد قال لي لقد فهمت كل شيء وبدأ يهدىء من ثائرتي وقال لا داعي للثورة على الاطلاق انها كانت صريحة على الأقل ،

وقد يكون لها عذر فيما فعلت وقالت .. وأنه أي حامد سعيد ـــ لم يتأثر اطلاقا بما حدث ، ونزلنا الى بيتنا وقد خسرت حجرة جميلة ورخيصة » .

وفي اليوم التالي بدأت أبحث عن سكن آخر في نفس الحي وقريب من الأكاديمية وفعلا وجدت غرفة صغيرة (مسروقة) بين الدورين ويفتح بابها على السلالم مباشرة حجرة صغيرة نظيفة بها كل ما يلزم : سرير ــ دولاب ــ كرسي ــ منضدة صغيرة ــ ومدفأة و Ring سخان صغير بالغاز مثل المدفأة .. سكن فقط لا تقدم أيه وجبات للطعام والأجر كان عشر شلنات فقط أسبوعيا فقبلت فورا وانتقلت بحاجياتي في نفس اليوم .

بدأت أرتب حياتي الجديدة .. أولا .. الميزانية .. قسمت ما بقي معي من نقود ـــ ٢ جنيه أجرة ٤ أسابيع للغرفة ـــ واجبة الدفع فورا ومقدما ..هكذا أردت أن اطمئن على أجرة السكن ولمدة شهر كامل .. ثم الغذاء ثلاث وجبات . الافطار لبن وكورن فليكس لن يكلفني سوى بضع بنسات .. والغداء .. لا أستطيع أن آكل في مطعم لأن هذا سيكلفني أكثر من شلن ونصف مع التواضع الشديد .. والعشاء .. ان الميزانية لا تكفي .. والجنيهات الباقية ستتبخر سريعا اذا لم أجد حلا للأكل غير المطاعم .. وحتى اذا وصلتني النقود من مصر كالمعتاد فانها لن تكفي على الاطلاق وخصوصا وان مصاريف الأكاديمية كانت باهظة لا تحتملها ميزانيتي .

وهكذا كان الغذاء :

١ ـــ جزء من رغيف من الخبز ـــ ١ بنس .

٢ ـــ مكرونة أقوم بسلقها مع قطعة من الزبد ـــ ٥ بنسات .

٣ ـــ بيضة مقلية (مستوردة) ٥ر١ بنس .

المجموع ١ + ٥ + ٥ر١ = ٥ر٧ بنس للغذاء يضاف اليها فى بعض الأحيان ١ بنس واحد صابع موز وكذا ٥ر١ حبة طماطم صغيرة •

فكان الغذاء يتكلف حوالى ١٠ بنسات •

أما العشــاء :

فكان نصف رغيف من الخبز الأسمر Brown Pread + قطعة من الجبن الشيدر ٦ بنسات •

هكذا كان غذاء يوم كامل يكلفنى أقل من شلنين ــ وقد توازنت الميزانية بهذا النظــام ــ المسكن ٢ جنيه شهريا ، المــأكل ٦٠ شلنا شهريا أى جنيه •• الجملة خمسة جنيهات لا غير •• أما السجاير فقد اختصرتها الى نصف علبة صغيرة أى خمسة سجاير فى اليوم تقسم على اليوم بالساعة •• أما الغسيل فكنت أتولى غسل كل ما أستطيع غسله بنفسى ، ســوى القمصان التى كانت تحتاج الى الكى فكنت أرسلها الى الغسيل وأدفع الثمن •

مر الشهر الأول على هذا النظام ومر الشهر التالى وقد اشتدت الأزمة حيث انه لم تصلنى أية نقود من مصر طوال ثلاثة أشهر كاملة •

وتلقيت « نوتة » تركتها صاحبة المنزل على الطــاولة فى المدخل تذكرنى فيها بأجرة الحجرة •• أخذت الورقة ولم أجبها بشىء فى ذات اليوم •• وفى صباح اليوم التالى قابلتها وذكرت لها الموقف بالضبط وأن النقود لم تصــلنى من مصر بعد وأنــا فى انتظارها من لحظــة لأخرى واننى ســبق أن كنت اسدد الشــهر مقدما وليس أســبوعا بأسبوع •• ووافقت صاحبة المنزل على الانتظار •• وقد استرحت قليلا من استجابة صاحبة المنزل واستعدادها للصبر •• ولكن قامت مشــكلة أخرى •• ان ما معى من النقود لا يكفى لأكله واحدة فى اليوم ــ اذا فلتقسم الأكلة الواحدة على وجبتين للغذاء والعشاء ••

والواقع انني كنت اكتفى فى العشاء بقطعة صغيرة من الجبن وقطعة كبيرة من الخبز •• ولكنى بعد فترة مرضت •• واصبت بأرق شبه دائم وضعفت صحتى وكان يعودنى زملائى سعد الخادم والأستاذ حامد سعيد من وقت لآخر ومعهم بعض الحلوى من الشيكولاتة ، وكنت أتمنى فى ضميرى ان تستبدل الشيكولاتة برغيف كبير من الخبز وقطعة كبيرة من الجبن •

كنت أصبر على آلامى وأخفى الكثير منها ، والجزء الأكبر منها من الضائقة المالية — انهم يعلمون أن نقودى التى ترسل لى شهريا متأخرة ، ولكنهم لم يعلموا تماما أن ما بيدى لا يكفى لأى شىء على الاطلاق •• حتى وصلت بى الحال أن أستبدل امتلاء معدتى بأى أكل بامتلائها بالماء حتى أشعر بأى امتلاء •• وزاد الأرق المستمر ألما على ألم •• فكنت أسير على قدمى فى شوارع لندن الساعات الطوال حتى يلم بى التعب بل الارهاق التام فيجبرنى على النوم بضع ساعات قلائل لا تتجاوز الثلاث عند الفجر •• استمرت هذه الحال فترة لا بأس بها •• شحذت فيها عزيمتى تماما •• وشعرت بأننى رغم كل هذا قوى ، وأنه كلما أرهق جسدى وضعف ارتفعت معنوياتى وظلت ترتفع على الألم •

وقد شعرت فيما بعد كم كسبت من هذه الفترة — وكم كان الألم مدرسة رائعة تربت فيها عزائمى وتحركت داخلها همسة رقيقة من روحانية ، كانت بداية لمعركة روحية داخل النفس •• بدأت تأخذ مكانها بعد ذلك بشهور طويلة •• انى لازلت أذكر هذه الفترة وأتأمل معطياتها الآن — وكم أقول لنفسى — كم كنت شجاعا قويا فى ذلك الحين وقد تحملت الكثير الذى لم أستطع تحمله بنفس الدرجة فيما بعد فى أزمة أخرى سيأتى ذكرها فى السياق بعد مرور سنوات عديدة وفى سن الخمسين •

كنا فى نهاية السنة الدراسية تقريبا .. وقد أعلن أوزنفانت عن مسابقة مفتوحة للفنانين جائزتها مجانية فى أكاديميته لفترة دراسية .. فلم أتردد فى التقدم الى المسابقة ــ فقد كنت ألتمس أى مخرج يسهل لى الاستمرار فى الدراسة والتخفيف من أعبائى المالية .. كنت لا ازال مريضا منقطعا عن الذهاب الى الأكاديمية عندما فوجئت بالسكرتيرة (شارى دينسى) تعودنى فى البيت ثم تنقل لى خبرا سارا الا وهو حصولى على الجائزة وفوزى فى المسابقة .. أى أنه أصبح أمامى فترة دراسية كاملة فى أكاديمية أوزنفانت بغير أن أدفع شيئا .. انه مبلغ كبير فعلا بالنسبة لى الذى تم توفيره بالفوز بهذه المسابقة .. فشكرت السكرتيرة ورجوت ألا تكون هذه المنحة قدمت الى للمساعدة وليست للاستحقاق .. فأجابت السكرتيرة بحماس ، مؤكدة بأنى كنت أكثر المتقدمين استحقاقا ، وان الجائزة كانت للتفوق وليست لأى سبب آخر .. فشعرت بسرور وراحة تكتنفنى بعد هذا التأكيد الصادق من شارى دينسى ورحلت عنى شارى وهى تتمنى لى الشفاء العاجل .. وبعد رحيلها وجدتنى أقف على قدمى : دب النشاط فى جسدى .. بل قل دبت الحياة فى ثانية فقد كنت منهوكا تماما .. وما لبث الا قليلا حتى عادنى حامد سعيد وهنأنى بالمنحة وقد علم منى بأن السكرتيرة قد عادتنى وأبلغتنى الخبر .. وسلم وخرج .

فى مرحلة الضعف والمرض هذه كانت تأملاتى وأفكارى تسبح مع ما قرأت وما أقرأ . كنت أقرأ عن غاندى .. وقوة اللاعنف ــ وقد ملأنى الكتاب بحماس رائع لهذا الرجل العظيم ، وأعتقد ان هذا الكتاب عن سيرة هذا الرجل ــ غاندى ــ قد ترك فى نفسى آثارا بعيدة فى تكوين الشخصية .

لم يمر يومان الا وقد وصلنى خطابان ــ أحدهما من هيئة البريد البريطانية عن تأخير خطاب لى جاءنى من مصر حيث ان الطائرة التى

كانت تحمل البريد قد حــدث لها حادث وان الخطابات قد أصابهـا البلل والتلف من جراء سقوطها فى ماء البحر .. وبداخــل المظروف مظروف آخر ــ ممزق جزئيــا ــ وجزء من الكتابــة (مشلفطة) من تأثير المياه ، والكتابة كانت عبارة عن اسمى وعنوانى والخطاب من مصر وبداخله شيك بمبلغ ١٠ جنيه .. وتاريخ الخطــاب متأخر عن موعد وصوله بحوالى أربعة شهور ــ كانت مفاجأة لى لقد وصــلت النقود المتأخرة وكانوا صادقين فى القاهرة لمــا اخطرونى بأنهم أرسلوا النقود فى مواعيدها ــ واما الخطاب الثانى فكان من القاهرة وكانت مفاجأة أخرى لمــا وجدت بداخله شيكين اثنين بأكثر من ٢٥ جنيها .. مع الاعتذار بأن الشيك الأول كان أرسل الى عنوان خاطىء وأعيد الى القاهرة وبالرجــوع الى خطاباتى للقــاهرة راجعوا العنوان وصحح وتسلمت جميع الشيكات المتأخرة مع زيــادة فى المبلغ تعويضــا عن التأخير .. شكرا لله .. صمت طويلا .. للشكر .. لقد أصبح فى يدى مبلغ ضخم يقرب من الأربعين جنيها .. فعلا كان مبلغا ضخما بالنسبة لى فى ذلك الوقت بعد ما عانيت وقاسيت .

ارتديت ملابسى وذهبت لزيارة زميلى سعد الخادم وحامد سعيد فى « وورويك رود » .. وعلما منى بأن النقود وصلتنى فعلا وأنه أصبح فى يدى مبــلغ محترم اقترح على ســعد أن نذهب الى باريس لزيارتها ــ وكان معرض باريس الدولى لسنة ١٩٣٧ مقاما فيها فى ذلك الحين ــ فوافقت فورا لانى مشوق فعلا لزيارة باريس ومتحف اللوفر على وجه الخصوص ، خصــوصا وأن تمثال الكاتب المصرى الذى رأيته فى صور فوتوغرافية ــ ليس الا ــ مازال عالقا فى ذهنى ، وكذا رأس « جودا » السومبرى .

وفعلا بدأنا الاستعداد للسفر ــ وقد كنا نحن الاثنين فى بداية الأجازة الدراسية وقدرها ثلاثة شهور .. ولم نكن نعرف أى أحد

فى باريس نلجأ اليه اذا احتجنا الى المشورة ، ولكننى تذكرت زميلة لنا فى أكاديمية أوزنفانت — فنانة موهوبة .. ذكية جدا .. جميلة جدا .. متحررة جدا : بريم كارنجتون .. انجليزية من أسرة عريقة — كانت صديقة لحامد سعيد لفترة ما أثناء دراستها بأكاديمية أوزنفانت .. وكانت دائما على استعداد لتشبع رغباتها مهما كانت ومهما خالفت تقاليد المجتمع .

زارنا فنان سيريالى كبير ذو مكانة عالمية هو « ماكس ارنست » جاء من باريس ليحضر افتتاح معرض له فى لندن وكان على علاقة بأوزنفانت — وفى الافتتاح .. ذهبنا جميعا — الدارسون وأوزنفانت نفسه ، وكان ماكس ارنست نفسه قد ذهب الى معرضه فى شكل يكاد يكون أكثر سيريالية من رسومه .. البنطلون « فردة » واحدة والساق الأخرى مكشوفة بها فردة حذاء وجورب ورباط للجورب ملتف على الساق .. أما القدم الأخرى فبغير حذاء ، وشعره « مفروق » فى المنتصف تماما الى شقين — شق صبغ باللون الأزرق والشق الآخر باللون الأبيض — وفى نهاية حفل افتتاح المعرض .. التقينا به فى جلسة خاصة ، والتقى بريم كارنجتون ، وما لبثت أن تركت الدراسة بأكاديمية أوزنفانت ورحلت مع ماكس ارنست الى باريس لتقيم معه فى عش واحد سواء أكان عشا للزوجية أم غيرها ، فهى لم تكن تأبه لهذه الأشياء على الاطلاق — الواقع انى أسوق هذه الحادثة لأننا عندما قررنا أنا وسعيد زيارة باريس فكرنا أن نزور « بريم كارنجتون » فهى خير عون لنا على ارشادنا للمتاحف وغيرها فى باريس .. وقد تمكنت من الحصول على عنوانها فى باريس من سكرتيرة أوزنفانت التى كانت تراسلها .

ركبنا القطار الى نيوهافن ووصلنا اليها فى المساء ثم ركبنا المركب « المعدية » لنعبر (المانش) الى ديب فى فرنسا ، وكان الجو باردا

على ظهر المركب — وقد تأثر سعد الخادم تأثرا شـديدا من البرد حتى انه رقد وتغطى بكل ما لديه مما يصلح للغطـاء كما أعطيته معطفى أيضا ولكنه ظل يرتجف من البرد ، وقد خفت عليـه كثيرا لأنه كان نحيفا ضعيف البنية •• ولكنه أحس ببعض الدفء بعد أن طلب منى أن أجلس فوق رجليه الاثنين حيث كان لا يشـعر بهما من شـدة برودتهما •• على كل حال •• انتهت الرحلة الى « ديبب » ووصـلنا الى باريس بالقطار ؛ وكان وجود سعد معى عاملا مساعدا فى التفاهم لأنه كان يجيد الفرنسية التى لم أكن أعرف منها سـوى ما درسناه فى المدارس الثانوية — وهو فنان لا يصلح لشيء — سوى النجاح فى الامتحان بالحصـول على ٩ درجات من ٣٠ درجة ولاشيء بعد ذلك •

نزلنا فى فنـدق صغير — أجره معقول للغاية لا يتعدى بضـع فرنكات فى الليلة الواحدة مع الافطار — والفرنك الفرنسى فى ذاك الوقت كان يعادل ٧ مليمات لاغير وكانت وجبة الافطـار الفرنسية على عكس وجبة الافطار الانجليزية التى تتكون من بيض ولحم وزبد ومربى وكيك فى بعض الأحيان مع الشاى طبعا — والشاى كان يقدم مع كل الوجبات فى انجلترا — أما وجبة الافطـار الفرنسية فكانت لا تتعدى « سلطانية صغيرة » « بول » بها قهوة باللبن ومعها « ترتين » أى قطعة من الخبز عليها قليل من الزبد • اما الغذاء الفرنسى فهو وجبة رئيسية دسـمة بعكس الغذاء الانجليزى — والواقع كنت أفضـل الطريقة الانجليزية لأن الافطار الجيد كان يساعد على تحمل البرد وعلى العمل — أما فى فرنسا فما كانت تمر ساعة أو ساعتان حتى أجد نفسى جوعانا ضعيفا أمام البرد •

استرحنا فى الفندق فترة الصـباح ثم خرجنا نسير فى شـوارع باريس الفسيحة نشاهد بناياتها النظيفـة وهى منسقة فى هندسـة رائعة — كل باريس نسقت فى نظـام هندسى بديع — وشـوارعها

وبناياتها وحدائقها ــ وكنت أشعر بفارق كبير بينها وبين لندن بمبانيها المتماثلة ــ الشارع الواحد تصطف فيه المبانى على الجانبين كلها متماثلة ومتطابقة تماما فى عمارتها وشكلها ولونها وأبوابها ونوافذها ــ ولم نكن نعرف بيتنا الا اذا تحققنا من الرقم المرسوم على أعمدته التى اسودت من الدخان الذى يغطيها • أما باريس فرائعة ــ هكذا ظهرت لى لأول وهلة بهندسيتها التى تتخلل كل شيء ــ وتصميماتها المعمارية التى تمتاز دائما بحسن الذوق والجمال • سرنا على أقدامنا نجوب الشوارع ونشاهد (الفترينات) والتنسيق الجميل فى عرض البضائع بها •• كان التنسيق يأخذ دائما طابعا هندسيا • كانت « الفترينة » فى محال باريس عبارة عن لوحة نسقها فنان ذو ذوق رفيع ــ وكنت أشعر ان هــذا التنسيق جزء من التنسيق العام الذى يشــمل الشوارع والبنايات والحدائق •• هندســة محكومة بذوق رفيع •• هــذه هى باريس •

بعد أن تعبت أقدامنا من المشى الطويل الممتع ونحن نشاهــد الشوارع والمحلات ، وأناقة السيدات وهن يسرعن الخطى دائما فى مشيتهن ــ ذهبنا الى مطعم صغير « كافيتريا » فى حديقة صغيرة وجلسنا فى ركن ثم جاء « الجرسون » وكان واحدا لا غير ، وقد سأله سعد عما يمكن تقديمه لنا واختار سعد بعض المــأكولات الخفيفة وتناولناها وكانت حسنة وكافية تماما ، والحساب كان تافها لا يتعدى فرنكات قليلة • وعندما انتهينا من الحساب وقلت ان ما تناولناه من طعــام يساوى أضعافا مضاعفة اذا ما تناولنا مثله فى لندن ــ فقال ســعد « نعم وسنعود غدا وكل يوم لنتناول غذاءنا فى هذا المطعم » •

وفى اليوم التالى جئنا لنفس المطعم وجلسنا فى نفس الركن وعلى نفس الطاولة وحضر نفس « الجارسون » وحيانا بابتسامة رقيقة ــ فقد عرفنا من قبل •• ثم طلبنا نفس الأصناف ونفس الكميات التى طلبناها

بالأمس .. واستمتعنا فعلا بالغذاء الرخيص الجميل .. وطلب سعد الحساب من الجرسون .. وبكل بساطة وصـل الحسـاب الى ثلاثة أضعاف ما دفعناه بالأمس ـ ولم ينتظر الجرسـون سـؤالنا له عن السبب ، ولكنه قال بكل بساطة انه أخطأ بالأمس فى الحساب وهو يصحح اليوم خطأه ، وخرجنا ولم نعد اليه أبدا .

زرنا المعرض .. معرض باريس الدولى .. زرنا معرضـا آخر للرسم لفنان مصرى فى مكتب مصر للسياحة وكان من أعمال الفنـان على الديب ، الذى توثقت الصلة بينى وبينه بعد ذلك بسنين طويلة .. فى القاهرة .

ثم فى يوم آخر ذهبنا لزيارة « بريم كرينجتون » زوجة ماكس ابرنست التى أخذنا عنوانها من سكرتيرة أكاديمية أوزنفانت ـ ولكننا لم نجد أحدا بالعنوان المذكور ـ وعلمنا فيما بعد بأنهـا أصيبت بمرض نفسى .

زرنا بعض المتـاحف .. وركزنا على اللوفر . وكان فى ذاك الوقت معرض لبعض أعمال سيزان فى أورانجيرى Orangerie فجذب انتباهى هـذا الفنان بشدة .. للمرة الأولى بالرغم من معرفتى لبعض أعماله قبل ذلك ـ ولكن لتركيزى الشديد على الفنون القديمة كان تقديرى لهذا الفنـان ناقصا بل سطحيا .. حتى ذلك الحين .. وسيكون لسيزان تقدير آخر ووزن كبير فى حياتى الفنية فيما بعد .

لم نمكث فى باريس طويلا ـ أسبوعين ـ ثم رحلنا الى لندن .. وهناك التقينا بحامد سعيد الذى اقترح أن نمضى أجازة لبضعة أسابيع فى اسكتلندا .. وكنا نسمع عنها الكثير من د. عبد الرزاق صدقى الذى كان يدرس فى أدنبره العاصمة فى ذلك الحين .

منطقة البحيرات Lake Districts وهى من أجمـل المناطق

فى اسكتلندة . وأدنبرة نفسها وما يحيط بها من تلال خضراء مدينــة جميلة .. وفعلا وافقنا على تمضية بضعة أسابيع فى اسكتلندة .. لم أشــأ أن تكون اجازتى داخل حجرة فى بيت مقفل .. أردت أن أسكن الخــلاء فى خيمة صغيرة .. وقد علمت أن بجوار أدنبرة تلالا جميلة يمكن أن « أعسكر » بها وأنصب خيمتى اذا أردت .. ولم أتردد فى تنفيذ تلك الفكرة .. اشتريت خيمة لشخص واحد « هايك » ومشمعا للأرض وبضــع بطاطين ثقيلة و « تورش » بطــارية كبيرة للاضاءة وترموسا كبيرا للمــاء وكل ما يلزم لحياة الخيمة ــ وقد كنت « جوالا » فى فرقة الكشافة بالمدرسة السعيدية وتعلمت شيئا ما عن حياة المعســكرات ــ وأخذت معى كتبى وبضــع أوراق وأقــلام للرســم ، وركبنا الأوتوبيس Green Coach الى أدنبرة : رحــلة طويلة ولكنها ممتعة للغاية .

وصلنا أدنبرة وبدأنا البحث عن مسكن لحامد سعيد وسعد الخادم، وقد فضــل حامد سعيد أن يســكن كل منهما فى مسكن مخــالف لمسكن الآخر ويكون اللقاء فى ساعة معينة من ساعات النهار ، وقد وفق الاثنان لمسكن جميل ــ أما أنــا فقد علمت أنه يمكننى أن أنصب خيمتى فى تل من تلال بيرنت ايلاند Burnet Island التى اخترناها للاقامة بها ــ وفعلا حملت خيمتى وحاجياتى على كتفى وصعدت الى التل وهنــاك نصبت الخيمة وشددت حبالها جيدا بالأوتاد التى دفنتها جيدا بالأرض وفرشــت المشمع Ground chout وتأكدت من أن أطراف الخيمة لا ينفذ منها شىء ثم ثبت البطارية « التورش » فى سقف الخيمة بحيث يلقى ضوؤها على صفحات الكتاب الذى أقرأه فى المســاء وأنــا راقد .. وفرشــت البطاطين ومخــدة صغيرة تحت الرأس .. أتممت كل هذا وأقفلت الخيمة جيدا وكان الغروب يقترب والسحــ

تملأ السماء ، وجلست خارج الخيمة أشاهد سير السحب والخضرة والتلال .

شعرت براحة كبيرة بعد أن رتبت سكنى الجديد .. ثم ما لبث المنظر .. بل المناظر التى تتغير بتغير الضـوء وبانتقال السحب – أن أخذت بكل اهتمامى ، وانسابت أفكارى مع حركة السحب ، وتعلق خيالى بتلك السعة الغير محدودة من السماء ، بل انها تزداد لا محدودية كلما اندمجت معها فى تأملاتى .. ونسيت الخيمة وكل ما فى الخيمة .. نسيت كل شيء .. غير حركة السحب فى ألوانها الرمادية المتغيرة كلما اقترب المساء .. تلك الحركة المستمرة التى لا تتوقف أبدا .. ثم ذلك الفضاء اللانهـائى الذى تسبح فيه تلك السحب .. هـذه اللحظات القصار – وأنـا وحدى فوق التل فى برنت ايلاند فى اسكتلنده .. كان لها أثر كبير فى حياتى وفى فنى أيضا بالتبعية .. كنت أقرأ طوال الليل على ضوء التورش المعلق فى سقف الخيمة حتى يدب النعاس فى أجفانى فأطفىء الطورش وأنـام .

فى الصباح كنت أجوس خلال المنطقة أتعرف على ما فيهـا ثم أجلب المـاء من صنبور كان على مقربـة من مكانى – وأبحث عن أصداف التقطها وبعض الأحجار الزلطية أتأمل أشكالها وتكويناتها – وخصوصا بعد ان قرأت مقالا طويلا لهنرى مور عن الزلط وأشكاله وتأثير تلك الأشكال المنحوتة بعوامل طبيعية فى أعماله النحتية ، وانه كان يتعلم منها الكثير . والواقع أنه تكلم عن « الحصاة » الزلطـة والقيمة النحتية الرائعـة التى ينبغى لكل مثال أن يستوعبهـا وان يودعها تماثيله وأعماله النحتية والا أصبحت هشة خالية من « الدفع الداخلى » الذى يكسبها صـلابة ومعمارية نحتية . هنرى مور حقق هذه القيمة فى أعماله بغير شك .. وفى اعتقادى أنه حقق أكثر من ذلك

باضافة الجانب الانسانى والوجدانى فى أعماله الصرحية العظيمة .. فى رأيى هنرى مور أعظم نحات فى عصرنا هذا .

لقد التقيت « بحصاة زلطه » أعجبنى تكوينها . وعلى هدى مقال هنرى مور بدأت أتأمل قيمتها النحتية ثم شكلها الموحى الى الكثير من الخيــال ــ يفجر فيه أحاسيس كثيرة لم أستطع تجسيـدها فى مخيلتى ــ ولكنى بدأت أرسم من الزلط مضيفا اليها تلك الأحاسيس التى أثارتها فى خيالى ــ وكانت النتيجة رسما موحيا لتلك الأحاسيس وبه بعض من تلك القيمة التى استوعبتها من الزلطة .. هــذا الرسم مازال عندى حتى الآن ــ وهو أول تجربة للتجسيم بالتون وامتــلاء الفورم ــ هذه التجربة انهت تجربتى فى دراسة الخط ، بصرف النظر عن القيمة الفعلية التى وصلت اليها فى تشكيل فورم هــذه « الزلطة » فى « برنت ايلاند » اسكتلندة .. واصلت قراءتى فى الأوقات التى كنت لا أرسم فيها ، وفى الليل حيث لا يوجد أنيس أو جليس فوق هذا التل الموحش ، وفى ضــوء المصباح الخافت « تورش » ــ اذكر اننى كنت أقرأ فى هــذا الزمــان والمكان كتابا لالدس هكسـلى ــ Text and Pretet Aldus Huxely وهو عبــارة عن مقــالات متنوعــة فى مجــالات مختلفة وكانت قراءة هــذا الكتــاب متعة كبيرة لى فقد تعرفت على مجالات كثيرة فى الشعر والأدب وغيرهــا كانت بعيدة عن قراءاتى حتى ذلك الحين ، ومنها كانت بعض الأشعار « لوالت وتمان » Walt Whitman لم أفهمها بعقلى جيدا ولكنهــا ملكت على مشاعرى وأحاسيسى وكنت أعيد قراءتها مرات ومرات .. وبقى أثرها يتضح شيئا فشيئا متبلورا ببطء .. ينمو كلمــا نموت أنــا وكلما ازدادت مشاعرى ارهافا .

كنت أزور حامد سعيد وسعد الخادم بين الفينــة والفينــة .. نتحدث قليــلا عما نفعله .. وكنت انتهز الفرصــة لاغتسل فى منزل

أحدهما حيث ان حياة الخيمة لا تعطيني الفرصة كاملة .. وفي بعض الأيام كنت أحن لأكلة ساخنة .. فكنت أذهب الى حامد سعيد وسعد لنتناول تلك الأكلة الساخنة في مطعم ما .. وأني لأذكر حادثا طريفا في المطعم .. كان حامد سعيد أكبرنا سنا — فهو يكبرني بما يقارب العشر سنوات — وكان يتقدم بالنيابة عنا للكلام وطلب الحساب وغيره — وفي هذه المرة بدأ هـذه العملية مع الجرسون الذي نظر الى سعد الخادم بياضه الشديد وشعره الأشقر وقال له في حدة : لماذا لا تتكلم انت وانت أدرى بلغتك (الانجليزية طبعا) من هذا الأجنبي ، وذهب عنا مسرعا ، وقد بلغت بنا الدهشة من قحة هـذا الرجل أولا ثم غلبنا الضحك لأن الرجل (اتخم) في زميلنا سعد واعتبره انجليزيا ينبغي له التقدم بالكلام بلغته الانجليزية ... !

في صباح يوم وكان الوقت مبكرا جدا على استيقاظي حيث كنت أسهر كثيرا في القراءة — شعرت بأن الخيمة تهدم على رأسي حيث اقتلع أحد أوتادها وان هنـاك شخصـا ما يحاول اقتلاع « وتد » آخر .. فأخرجت رأسي من باب الخيمة لأرى من الفاعل وفوجئت بطفل صغير لا يتجاوز السابعة من عمره وهو يلهو باقتلاع أوتاد الخيمة ، فسألته لماذا فعل ذلك .. وما هو غرضه .. فلم يحر جوابا وأعتقد انه روع عندما رأى رأسي تخرج من باب الخيمة ثم ذهب بعيدا وهو يمشي على مهل بغير أن يلتفت وراءه .. وفي اليوم التالي صحوت مبكرا فوجدته جالسا بالقرب من الخيمة ساكنا .. فخرجت وحييته تحيـة الصباح فردها على الفور .. وسألته عن اسمه فذكره لي وسألني عن اسـمي وماذا أفعل أنـا هنا — فقلت له انى رسـام حضرت لأقضي اجازتي في هـذه البقعة الجميلة ، وبدأ يحدثني في اطمئنان — دخلت الخيمة بعد الاستئذان طبعا — لكي أحضر « الترموس » لاحضـار المـاء فادهشني انه تطوع ليقوم بهذه المهمة بدلا مني — واستمرت

علاقتى بل قل صداقتى مع « دافيد » David طوال الأيام التى أمضيتها هناك .. يحضر فى الصباح لتبادل التحية وبعض الكلمات ويحضر لى الماء ثم يذهب بعد قليل ، ولم أعرف عنه أكثر من انه يقطن مع عائلته فى مكان غير بعيد .

انتهت الاجازة وحزمت خيمتى وأمتعتى وحملتها على ظهرى وذهبنا جميعا عائدين الى لندن ، وقد حققت أنا أكثر من فائدة فى هذه الرحلة : الخلوة والتأمل .. كتاب يدعو الى التفكير والتأمل .. مزاولة الرسم لتحقيق الفورم بالتظليل الباتى .. ثم الوفر الكبير الذى حققته من استعمالى الخيمة فلم أصرف من النقود فى هذه الرحلة الا أقل من نصف ما صرفه زملائى علما بأنى حملت عليه ثمن الخيمة والمعدات .

عدنا الى لندن بعد رحلتين ممتعتين : الأولى الى باريس .. ثم الثانية الى اسكتلندة ــ وبقيت معى نقود كثيرة متوفرة ــ وخصوصا وأن الفترة الدراسية المقبلة ستكون مجانية وقد فزت بالجائزة من أكاديمية أوز تقافت .

فى الطريق قال لى سعد انه يريد تغيير سكنه ، وأنه كان قد وجد سكنا رائعا قريبا منا نحن الثلاثة وهو عبارة عن حجرة كبيرة تزيد على ثمانية أمتار طولا وستة أمتار عرضا مفروشة فرشا جميلا بسريرين تخفيهما ستارة جميلة ويجاور السريرين حوض للغسيل فى دولاب جميل « موبيليا » .. وان الحجرة بها مدفأة كبيرة عليها ساعة أثرية قديمة داخل فانوس زجاجى .. وان الحجرة تطل على حديقة من خلال شباك كبير بعرض الحجرة Bawindaw ولها حديقة زجاجية صغيرة مليئة بأصص الزرع والزهور .

أخذ يصف لى الحجرة وهو يأسف لأن ايجارها مرتفع وان

مرتبه لا يحتمل هـذا الايجار خصوصا وان الايجار لا يشمل أية خدمات أخرى سوى الحجرة فقط ـ فسألته كم ايجـارها فقـال ٢ جنيه و ٢ شلن أسبوعيا غير ثمن غاز المدفـأة والذى سيتكلف كثيرا لكبر حجم الحجرة ـ وسألنى لمـاذا لا نعود ونسكن سويا وخصوصا وان حالتى المـالية قد تحسنت نوعا بجائزة المجانية أولا وبوصـول النقود المتأخرة من مصر وانتظام وصولها بعد ذلك • وقد كان وصف سعد للغرفة مشوقا فقلت له لنذهب لنرى الغرفة سـويا ولنعرف اذا كانت مازالت خالية ـ فقد كانت خالية كما ذكر لى قبل سفرنا الى اسكتلندة مباشرة • وفعلا ذهبنا لمشاهدة الحجرة ووجدناها مازالت خالية • وصاحبها رجل اسكتلندى فى غاية الطيبة والذكاء فى نفس الوقـة • وللأول وهلة أعجبتنى الغرفة وقررت مشاركة سعد فيهـا ، وان اتساعهـا ليعطينا فرصـة مزاولة الرسـم فيها اذا شـئنا نحن الاثنين معا •

وفعلا أجرنا الحجرة على الفور ونقلنا حاجياتنا اليها ـ والواقع ان أصحاب المنزل الاسكتلنديين كانوا فخورين بالحجرة وأعطوها كل العناية من فرش وموبيليا وسجاد ونظافة تامة • سـعدنا أنـا وسـعد بالحجرة ونظافتها واتساعها وخصوصا الكرسيين (فوتيل) المريحين للغاية على جانبى المدفـأة التى كنا نتناوب وضـع الشلن فيها كلمـا انتهى مفعول الشلن الأول • وسارت الأمور هكذا وكنا نحضر طعامنا بأنفسنا وكثيرا ما كان يشاركنا حامد سعيد فى طعامنا وهو دائما شىء سهل تحضيره فى وقت قصير •

انتهت الأجازة وذهب سعد الى مدرسته وذهبت أنا وحامد سعيد الى آكاديمية أوزنفانت ـ وكان سعد يستفسر منى دائما عما اتعلمه من أوزنفانت وكان يرى أعمـالى تتقدم عنه ـ وبدأ هو يرسـم فى البيت •

كان لسعد الخادم خيال حافل كما عرفته فى المدرسة السعيدية — وبدأ يمارس شيئا من هذا فى رسومه بالمنزل — وكان دائم الشكوى من مدرسة تشلسى — ان التعليم فيها يتبع منهاجا أكاديميا ميتا — واذا كان هذا المنهاج لم يناسبنى أنا فهو من باب أولى لا يناسب خيال سعد الخصب بتصوراته الخرافية والاسطورية التى كان يبدع فيها • وفعلا تعقد سعد من المدرسة تماما وخصوصا وقد فشل فى الامتحان ، وأن تقارير المدرسة التى كانت ترسل الى البعثات كانت سيئة وكادت تهدد بقاءه فى البعثة حتى أنه ذهب الى مدير المدرسة ويليمسون وقال له ان هذه التقارير تسيء اليه وانها ربما تتسبب فى فقدانه المنحة وانه من جانبه سيعمل كل ما فى وسعه للتقدم المطلوب فى العمل — ولكن رد المدير كما ذكره لى سعد شخصيا كان قاسيا اذ قال له انه اذا بذل كل ما فى وسعه فلن يجدى شيئا لأن قدراته أقل من المستوى المطلوب • ان هذا الرأى لا يقلل من موهبة سعد ولا من قدراته وان دل على شيء فهو يدل على قصر نظر مدير المدرسة ويليمسون وقال له ان هذه التقارير تسيء اليه وأنها هدف واحد أن يخلقوا من الطالب شخصية تجيد الرسم بمعنى المهارة فى نقل الطبيعة حرفا بحرف أو بمعنى أصح اعطاء صورة هى أقرب ما يكون مما تصوره عدسة الكاميرا من الطبيعة بطريقة خادعة وكلما زادت مهارة الرسام فى الخداع بهذه الطريقة صفق له هذا النوع من الأساتذة • وللأسف الشديد أن بعضا من أساتذتى تشلسى هم من الفنانين المرموقين وعلى رأسهم كان هنرى مور ، جراهام سزرلاند وغيرهم••ولكن كانت غاية المدرسة فى تخريج الطلبة ليتجاوزوا الامتحان أولا وذلك لاجادتهم « شبه » الطبيعة ولا أقول الطبيعة • انهم كانوا ينقلون ما يقع على الشيء المرسوم من ظل ونور — وهذا كل شيء وما فيه ما يمس الطبيعة فى أعماقها ولا يمس أى فهم لها على

الاطلاق • وسيأتى فى السياق رأى أكبر فنان نحات فى العالم أجمع فى حقبتنا هذه فى تدريس الفن ألا وهو هنرى مور •

لقد حزنت لسعد ــ انه فنـان موهوب لم يفهمه أسـاتذته فى تشلسى ــ وقد بدأ يتململ تماما وقد كتب الى البعثـات لتحويـل دراسته الى دراسة مع فنان مرموق وقد اختار هنرى مور بالذات ــ ولو أن هنرى مور ليس هو الفنان الذى ينبغى لسعد اختياره أسـتاذا ومرشدا فهو بعيد كل البعد عن خط سعد فى التصوير • وسعد بطبيعته بعيد عن النحتية وخط هنرى مور فى الفن ــ وقد رفض الطرفان طلب سعد • هنرى مور ليس عنده استوديو أو أكاديمية خاصـة ولا يقبل طلابا • والبعثات تود من سعد أن يحصل على الشهادة التى أرسل الى تشلسى لنيلها ــ وهذه الشهادة لن ينالها سعد ــ ولم ينلها فعلا ــ وقد تعقد سعد تماما من هــذا الموقف العجيب •• وزاد الطين بلة •• صلته بحامد سعيد ، فى تلك اللحظة ، اذ ساءت لقسوة حامد سعيد فى نقده لسعد ــ حتى اننى شعرت بان حامد سعيد يتعمد محو شخصية سعد الخادم تماما •• وقد كنت حاضرا فى أكثر من جلسـة فى نقد حامد لسعد للخادم •

وقد زاد هذا من تعقد سعد تماما • وقد شعرت بسوء الموقف وان سعد فنان موهوب ولا ينبغى لأحد مهما كان أن ينتقص من مواهبه بهذا الشكل القاسى • ذهبت الى حامد سعيد فى حجرته ولم يكن معه أحد وفتحت موضوع سعد الخادم والقسوة التى عامل بهـا سعد فى نقده اياه •• فكان رده عجيبا بالنسبة لى •• قال انه أراد أن يعود به الى الصفر ليبدأ من جديد وان ينسى ماضيه الرومانسى ليطرق طريقا أكثر عمقا وأكثر جدية سـواء فى الرسم أو فى اختيار الكتب أو منهاج الحيـاة •

فقلت له فى انفعال : بأن هذا ليس من حق أحد ، وأنه يقوم بالهدم بينما يحتـاج سعد فى هذه اللحظة الى البناء ، وكان الأجدر

به أن يكشف عن جوانب سعد الفنية الخلاقة ويساعده اذا أراد على تنميتها على طريقة سعد وليس على طريقة حامد سعيد • وكنت منفعلا فى كلامى وقد أخذتنى حمية للدفاع عن سعد الذى عرفته عن قرب سنوات طويلة •

وتركت حامد سعيد وخرجت الى منزلنا وأنا عازم تماما على مساعدة سعد على الخروج من حالته النفسية هذه •• ولم أنس بعد كيف أنقذنى هو من حياة اللهو التى كنت قد بدأتها فى الشهور الأولى من حضورنا الى لندن • لقد انقطعت أنا وسعد عن زيارة حامد سعيد فى بيته ــ وكنت اقابله كل يوم فى الأكاديمية بالطبع ولم يدر بيننا أى حديث عن سعد الخادم فى الأيام الأولى بعد مقابلتى اياه وتلك المناقشة الحادة التى دارت بيننا •• ومن جانبى بدأت أعالج الموقف مع سعد بالصبر والاناة والاعجاب الحقيقى بما كان يعمله فى المنزل من رسوم بديعة بها خيال رائع ــ وكنت أول له ان الدراسة بالمدرسة لا هدف لها الا شحذ المهارات وليس أية صلة بالخلق الفنى •• وان حامد سعيد قصد « مسح التختة » على حد تعبيره أى أنك تنسى ما كنت تعجب به من لوحات الرسامة « دافرنو » فى مصر وغيرها وان قراءاتك تأخذ سبيلا آخر أكثر جدية ــ وهذا طبعا تبعا لرأيه فى الجدية ، أما أنت فلك رأى آخر ولك منابع مختلفة للثقافة وتنمية خيالك الى أبعد الحدود ، وأن مقصد الرجل كان خيرا دائما حسب ما يرتئيه وان الخيار لك وعليك أن تمحص آراءه وتقبل منها ما يفيدك وترفض الباقى رفضا باتا ــ وفعلا بدأ سعد يستعيد شخصيته بعد أن كان قد فقدها تماما بعد ما سمعه من مدير مدرسة تشلسى وما سمعه من حامد سعيد • وبعد بضعة أيام زارنا حامد سعيد وتكلمنا فى مواضيع مختلفة ، ولكنى شعرت بأنه ينوى المساعدة لخروج سعد من أزمته ــ وفعلا حدث هذا على مسيرة الأيام ، وخرج سعد من أزمته •

***

بدأت الدراسة فى الأكاديمية •• وكانت « برنت ايلاند » لازالت مائلة فى مخيلتى والزلط والقواقع وما قرأته من مقال هنرى مور عن الزلطة لايزال عالقا فى ذهنى • دراستى السابقة كانت للخط بكل امكانياته الجمالية والتعبيرية على الاطـلاق وما يجده ويحتويه من امتلاء للكتلة على وجه الخصـوص •• وكان ما رسمته فى نهاية الفترة الدراسية السابقة بالخط وحده من يدين وأصابع القدمين مازال هو أحسن ما رسمت فى تلك الفترة •• وفكرت وأنـا أصغى لتعليمـات أوزنفانت لمن كانوا يرسمون بالألوان الزيتية ان استفيد أنـا الآخر من هذه التعليمات مباشرة وذلك بمعالجتى الرسـم بالألوان الزيتية والتى كنت أعتقد بأنها مآلى فى المستقبل •• وفعـلا بدأت التنفيـذ فنقلت الرسم الخطى لليدين وأصـابع القدمين الى الكنفاش طبقـا لتعليمات أوزنفانت التى كنت اسمعها فى طريقة « شف » الرسـم ونقله الى « الكنفاش » وكانت تتلخص فى عدم استـعمال « ورق الكربون » الذى يترك أثرا باللون الأزرق أو الأسود والذى لايحتاج اليه الرسام ويضطر الى تغطيته بلون آخر بألوان الزيت ـ وهو ينصح بدهان الورقة الشفافة بعد نقل الرسم عليها بالقلم الرصـاص بلون يناسب اللون أو الألوان الزيتية التى سيستعملها ويكون الدهـان بألوان الزيت حيث أنها ستذوب فى النهاية مع الألوان الأخرى فهى من نفس مادتها بعكس ورق الكربون الذى سيظل ظاهرا الى حد ما تحت الألوان الزيتية •• لقد نفذت هـذه الخطوة بدقـة ونقلت الرسم بلون وردى على « الكنفاش » ثم احضرت صـندوق الألوان الذى كنت قد اشتريته منذ مدرسة تشلسى ولم استعمله بعد ـ ولما لم يكن عندى أية قطع من القماش القديم لاستعماله فى مسح الفرش فقد اشتريت مترا من قماش جديد وانتحيت ركنا فى القاعة وبدأت اخلط الألوان •

ولمحنى أوزنفانت فغاب لحظة فى مرسمه وخرج متجها نحوى وفى

يده مقص وبغير كلمـة واحدة أخذ متر القماش الجديد وبدأ فى تقطيعه بعناية مقصـودة ورتبها أمامى على الحامل ونطق بضع كلمات بالانجليزيـة هـذه المرة The Artist must have a systim

« ينبغى للفنان أن يكون له نظام فى عمله » .. وكان هـذا درسا لى فى البداية من محاولتى فى التصوير الزيتى .. وبدأت خلط الألوان ثم وضع الألوان بحساب ، وبتذكر كل تعليمات أوزنفانت التى حفظتهـا مما كان يدلى بها لزملاء آخرين ــ وأولها ان الفرشاة وسيلة لنقل اللون من الباليته الى « الكنفاش » ووضعه فى موضعه ليس الا ــ وان أية محاولة لكحت اللون أو سحبه فى اتجاهات عدة بالفرشاة سيتسبب فى فقدان اللون طلاوته ، كما أن عمليـة بناء الفورم باللون ستفقد الكثير .. حفظت هذا عنه وحاولت تطبيقه ــ وانتهيت من « تلوين » وكلمة تلوين مقصودة هنا .. فالعملية كما فهمت فيما بعد كانت مجرد تلوين الرسم الناجح الذى رسمته بنجاح تام بالقلم الرصاص .

وجاء موعد التنفيذ .. وقف أوزنفانت وقد التف حوله جميع الزملاء ليسمعوا كلامه ــ وكانت وقفته الطويلة هذه المرة أمام لوحتى الملونة ــ ونطق ببضع كلمات بالفرنسية وقامت السكرتيرة بترجمتهـا حرفيا الى الانجليزية وهى :

« هذا الولد يرسم بالقلم الرصاص كالملاك

ولكنه يرسم بالألوان كالخنزير الصغير » .

Le garcon dessine comme un ange et pint comme un. petit cochon.

وكنت قد فهمت الكلام بالفرنسية فقد كان واضحا ، ولكنى تعللت بأن أكون مخطئـا فى فهمى وأن الترجمة ستغير منه ــ ولكن الترجمة كانت مطابقة تماما !

أحمر وجهى وصعد الدم فى رأسى ولم أعد أسمع بقية الشرح

والتعليق ولقد عرفت فيما بعد أنه حاول أن يخفف من حدة نقده بأنها المحاولة الأولى ... الخ .

ذهبت الى المنزل حزينا لاخفاقي في المحاولة الأولى لاستعمال الألوان — وبدأت أفكر فيما قاله أوزنفانت .. وقد استمر وقع كلماته في مخيلتي فترات طويلة .

لم أعد الى محاولة التصوير بالزيت طوال دراستي مع أوزنفانت. وعدت الى القلم الرصاص فكنت أسعد حالا ، وبدأت العمل بحماس أنساني التصوير الزيتي تماما .

***

كانت « زنطة » ــ « برنت ايلاند » حاضرة فى فكرى دائما وكان رأس ــ « جودا » السوميرى لا يبرح مخيلتى و « الكاتب القاعد القرفصاء » المصرى من العهد القديم يبرز فى بساطة « الكاتب » ولكن فى عظمة الملوك الالهة ، وتلك النظرة الى الأفق البعيد الى المــاوراء ــ الى المقدس ــ تعلو كل شىء دنيوى • والقيم النحتية والمعمارية تبرز فى كل ضربة ازميل من يد ذلك الفنان الصــانع الذى لم يبخل بجهد على الرأس والأكتاف والصــدر •• وقد لا يصدق ذلك تماما عند معالجته للأرجل • كانت هذه قمما اختزنتها تجربتى الخاصــة ــ مع قيمها الفنية والحضارية والروحية ــ فى فكرى وعقلى بل فى كيانى كله •

بدأت العمل وقد اخترت ساقا ــ بل جزءا من ساق الموديل وكان رجلا •• وكان اتصال الساق من عند الركبة بسمانة الرجل ــ وذلك من الخلف ــ حافزا لى على تحقيق هــذه الكتل واتصالها مع بعض فى تنسيق قوى لا يشذ عن الطبيعة ، ولكنه يقويها ويعطيها معنى أكثر تعبيرا من حقيقتها •• الخط الذى جذب انتباهى طويلا والذى انفقت شهورا طويلة فى دراسته كخط جميل فى ذاته ، وكخط له أكثر من

وظيفة فى وصفه للكتلة المحدودة به .. هـذا الخط بدأ يتلاشى الآن تماما من رسومى .. الخط أصبح نهاية السطح فى انحناءاته ــ هو جزء لا يتجزأ من سطح الكتلة ــ ان القلم كان يبدأ من داخل الكتلة .. من قلبها ويسير فى عملية بناء وليس مجرد رسم وصفى .. عملية بناء حقيقية .. كان القلم كالازميل فى يدى يضرب فى الموقع الملائم ليصنع ويشكل لبنة فى بناء الكتلة .. وأصبح الرسم بالقلم كازميل النحات تماما ينحت ويجوف ويبرز كل الفجوات والنتوءات واصفا السطح المستمر فى تغليفه لتلك الانحنـاءات ، جاهدا فى تحقيق قيم نحتيـة ومعمارية ما أمكن ذلك .. هـذا العمل .. « جزء من ساق رجل » لايزال عندى حتى اليوم أحتفظ به ــ لأنى تعلمت منه الكثير .

ومن هذا المنطلق بدأت صفحة جديدة باركها أوزنفانت بحماس مشجع .. حتى انى خرجت فى ذاك اليوم الذى نلت فيه مديحا من أوزنفانت ــ خرجت الى الشارع فى وقت الراحة أنعم بدفء الشمس الساطعة خارج المرسم . والواقع أننى ما شـعرت بنفسى وأنـا ادندن بنغم بصـوت خافت .. الا وكان حامـد سـعيد يقف ورائى وهو يبتسم ــ وقال : فعلا يا راتب انها خطوة طيبة التى عملتها وقد كان أوزنفانت محقـا فى مديحك اليوم وانى أراك مغتبطـا مدندنا .. لك حق .

واستمر عملى فى الأكاديمية يتقدم ــ وكان التركيز يزداد والقيمة تزداد أربعة أصابع قدم فقط .. دراسـة للفورم ومعمارية فى الأصبع والظفر .. دراسـة لعين واحدة .. تجويف معمارى يشبه الكهف يتوجه حاجب ينساب فوقه فى تؤدة وانسجام ، ثم الجفنان وقد حسـما فيما بينهما بيضـة أودعت بعناية فى ذلك التجويف الكهفى وقد انشق الجفنان عن جسم العين الزجاجى .. وفى وسطه حدقة توسطت جسم العين .. وكل تلك المنحنيات من قوس الحاجب الى تقوس التجويف

الذى جثمت فيه العين وقـد تقوست الجفون فى ترديد عكسى ..
واستدارت الحدقة لتكمل هذا الترديد المعمارى الموسيقى الجميل ..
كل هـذا كنت أراه فى العين وأحس به تماما ، وكانت هى الرؤيـة
الصادقة للطبيعة ــ كما أعتقد . ولكن الى أى حد نجحت فى تحقيق
هـذه الرؤيـة .. لا أعرف .. ولكن كنت أشعر فى كل محاولة أننى
أحقق شيئا من هذه الرؤية ــ وعلى كل حال كانت هذه الرؤية النحتية
المعمارية هى التى كانت تقود خطـاى دائما فى تلك المرحلة التى عشتها
مع الموديل الحى .. مع الطبيعة الحية فى أكاديمية أوزنفانت .

كان عملى يسير ببطء ، ولكن فى الطريق الصحيح .. وكانت
الرؤية تعمق يوما عن يوم . وكان أوزنفانت يصدق على اعتقادى هذا
بتعليقاته الطيبة والمشجعة .. كان عملى فى فن الرسم فى أكاديميـة
أوزنفانت يسـير الى الأحسن وادراكى للقيم الفنيـة يزداد عمقـا
واتساعا ــ كما أن نظرتى للطبيعـة أصبحت تتسـم بالبحث والتأمل
واكتشاف ما هو غير ظاهر .. اكتشاف القانون الرياضى الذى يحكم
كل جزء فى الطبيعة ــ سـواء فى الانسان أو النبات أو الحيوانات ــ
هكذا كانت دراستى تتحول الى دراسة أكثر جدية مما كنت أتوقـع
عندما التحقت بأكاديمية أوزنفانت .

كانت أحاديث أوزنفانت فى نقده للدارسين تنصب على المبـادىء
وعلى القوانين العامة فكانت أشبه بمحاضرة نبعت أسسها وبنودها من
حالات خاصة فى رسوم الدارسين . وكان لهذه الأحاديث أثر كبير فى
نمو تفكيرى .. وكنت كلما ذهبت الى البيت بعد الدراسـة ،كنت
أمحص ما سمعت من أوزنفانت . لم أكن أقبل كل ما يقول على علاته
بالرغم من قلة خبراتى فى ذاك الحين ، وأن سنى الثقافة لم تكد تبلغ
الحلم بعد ، ولكن ساعد على هـذا النمو قراءاتى المستمرة الجـادة
وزياراتى للمتاحف وصداقاتى الكثيرة للأعمـال الفنية الممتازة ..

كمـا كان للموسيقى الرفيعة دورها بلاشـك .. حيث كانت القطع المتازة التى اخترتها ــ تسمع عشرات المرات وفى كل يوم ، حتى أعيشها بكيانى ، فهى عامل كبير فى التثقيف .. فى تثقيفى بالذات . كما كانت سـياحاتى فى المتـاحف لاكتشـاف أصـدقاء جـدد من الأعمـال الجادة ــ عاملا آخر له نفس الأهمية ــ بل ربما أكثر من الموسيقى . تعرفت فى المتحف الأهلى على « جورجيونى » من مدرسـة البندقية الايطالية ــ لفت نظرى برومانسيته الشاعرية فى اضفاء جو من الشاعرية برسم « الهواء » Atmosphere نعم رسم الهواء الذى يسبح فيه الأشخاص ويتخلل كل أجزاء الصور . نعم انه كان يشعرك بوجود الهواء الذى يضفى على أشخاصه المرسومة جوا مليئا بالرقة والنعومة يحيط بهم ويغلفهم .

ثم تعرفت على زميـله ــ (تشيانو) ــ من نفس مدرسـة البندقية ــ بل ان الاثنين وثالثهم ــ (تنتوريتو) ــ قد درسـوا على أستاذ واحد هو الفنان القدير « جيوفانى بللينى » ــ وهو بلاشـك فنان كبير .. ولكن كما قال « ليناردو دافنشى » « ويل للتلميذ الذى لا يتفوق على أستاذه » ــ هـذا العملاق تشيانو تفوق على أستاذه .. بل تفوق على مدرسة البندقية بأسرها .

لقد عشت مع هـذا العمـلاق شهورا طويلة فى المتحف الأهلى بلندن ، وعشت معه بعد ذلك لسنين طويلة فى البندقية فى « الأكاديمية » وفى الكنائس . بل بحثت عن أعماله الأخرى فى المتاحف خارج ايطاليا وخـارج انجلترا ، واشـتريت كل ما اسـتطعت من كتب ونسـخ فوتوغرافية .. وقرأت عنه .. قرأت ما كتبه « الى فور » العظيم Elie Faure عن هـذا العملاق الذى وصل فى لوحته « المسيح يتوج بالشوك » ــ ثم ال « بيتا » Pietta فى أكاديمية البندقية (والتى أكملها فنان آخر بعد وفاته) ــ وصل الى أروع ما وصـل

اليه مصـــور آخر في أي زمـــان أو مكان ــ (اذا استثنينا رمبرانت العظيم) ــ لقد ظل هذا العملاق يصور حتى سن ٩٩ سنة ــ وكان هذا درسا لى ، استمر يرسم حتى سقطت الفرشاة من يده ٠

فنان آخر تعرفت عليه من خلال لوحة له في المتحف الأهـــلي « العذراء والطفل » كانت معالجة هـــذا الفنان للعذراء و « الطرحة » التي تدلت على جبينها سمة معمارية وحسا بالكبر والسعة واللامحدودية Graudeur ٠٠ فسعيت الى معرفة المزيد عنه وعن بقية أعماله وأين توجد ــ انه الفنان الايطـــالي الذى مات ولم يكمل الـ ٢٥ عاما ــ « مزاشيو » Massachio كان يدرس معنا زميل ايطـــالي ــ ريكاردو بريولى Richardo Prioli وكان يزعم بأن نسبه يرتقي الى عائلة Prioli التي قـــام رسامو عصر النهضـــة برسم عاهلها ٠ كان انسانا طيبا رقيقا وكانت له أخت تعيش في لندن هي أســـتاذة اللغة الايطالية في الجامعة ــ وقد استفسرت منه عن أعمال مازاتشيو فقال انه سيبعث الى ايطاليا لاحضـــار فوتوغرافيا من أعمال هـــذا الفنان حيث ان أعماله قليلة وهي محصورة تقريبا في كنيسة صغيرة في فلورنســـا ٠

وفعلا احضر عدة فوتوغرافيات «للفريسكو» في تلك الكنيســـة التي صورها مازاتشيو ٠ كان لهذا الفنان أثر كبير في نفسي ــ وقد كان لأشخاصه هيبة أسطورية وسعة وكبر في نظرة الفنان ، وكدت لا أصدق ان هـــذا الفنان الذى مات ولم يتعد الخامســـة والعشرين من عمره قد حقق ما لم يحققه غيره وقد ناهز المـــائة من عمره ٠ ان أعمال مازاتشيو على قدر اعجابي الشديد بها على قدر ما كان تأثير ما حققه هـــذا الفنان في ذاك العمر داعيا ليأسي ، اننا لم نعرف شـــيئا عن الفن ولم نمسك بفرشاة الا وقد بلغنا العشرين فكيف يمكن لنا أن نحقق (١ : ١٠٠٠) مما حققه هـــذا العملاق وهو لم يتعد الخامسة

والعشرين — ان دراستنا للفن — كما هي الآن في مصر وفي معظم بلاد العالم — كانت تبدأ بعد اتمام الدراسة الثانوية أي حوالي سن العشرين .. أما في ذلك العهد .. عهد مازاتشيو ومن سبقوه ومن جاءوا بعده — كانت دراستهم تبدأ قبل بلوغهم العاشرة . كان الطفل اذا أظهر ميلا لفن الرسم أرسله أبوه الى أستاذ له شهرته يتتلمذ عليه السنين الطوال .. فكان يعمل مع الأستاذ أشياء قد تبدو تافهة من تحضير الكنفاش الى غسيل الفرش وغيرها من العمليات التي ينبغي للصبي أن يتعلمها قبل أن يمسك الفرشاة ليساعد الأستاذ في ملء فراغ باللون في خلفية صورة من صوره .. وهكذا ينشأ الصبي في مرسم الأستاذ يشرب من فنه وأسلوبه وحياته وثقافته حتى يشب عن الطوق ويسمح له بالعمل مستقلا .

والويل للتلميذ الذي لا يتفوق على أستاذه كما قال « ليوناردو دافنشي » . ولم يكن هذا النظام معمولا به في أوروبا وحسب بل بدأ في مصر القديمة والصين والهند ومعظم البلاد الآسيوية .

ينبغي لنا أن نفكر جديا في هذه الحالة التي وصلنا اليها الآن .. ان مدارس الفن — ليس في مصر وحدها ولكن في أنحاء كثيرة من العالم — أصبحت مفسدة وهادرة لكل القيم الجمالية الحقيقية .. وقد طغت الفردية والذاتية على الفن في حقبتنا هذه حتى لم يبق منه الا الفتات .. وان رحلة الفن والفنانين تسير الآن بالعرض ، تتسع رقعتها وتزيد في الاتساع .. ولكن لاشيء الى أعلى .. لاشيء في العمق . كلا .. ربما يقول قائل ان هذا الاتساع مفيد وأنه كلما اتسعت قاعدة الهرم أمكن للقمة أن ترتفع أكثر وأكثر .. أرجو ذلك .. وربما رأينا قمما في القرن الواحد والعشرين تناطح ما سبقها من قمم .. على كل حال لقد كنت محظوظا اذ أمكنني أن أجد أستاذا أتتلمذ عليه .. ولكن جاء هذا متأخرا جدا .. هل يكفي أن أتتلمذ

وأنـا فى سـن العشرين لمـدة عامين أو ثلاثـة مع أسـتاذ كبير مثل أوزنفانت ٠٠٠٠ ؟ كنت أتمنى لو بدأت حياة التلمذة الفنية وأنـا لم أتجاوز العاشرة ٠٠ ربما كانت الفرصـة آكبر مما هى الآن لتكوين الشخصية مبكرا ، وبالتالى الوصـول الى طبقات أعلى ٠

ان الفن التشكيلى بالذات ــ بخلاف معظم الفنون الأخرى ــ يحتـاج الى وقت طويل لتكتمـل الخبرة ، وللسيطرة على مشـاكل الأدوات ٠٠ ثم السيطرة على اللغة نفسها ــ لغة التشكيل ــ التى تحتاج فى رأيى الى العمر كله وليس لبضع سـنوات دراسة ٠٠ ان السيطرة على اللغة ٠٠ ثم التحقيق المتكامل لذات الفنان ، لايمكن أن يحدث فى سن مبكرة مثل ما يحدث فى الموسيقى والأدب٠٠وطبعا هناك شواذ مثل (ماساتشيو ورافائيل) ٠٠ ولكن لايمكن مقارنة هؤلاء بعبقرية بعض الموسيقيين العباقرة مثل موزارت الذى ظهرت عبقريته وهو لم يتخط العاشرة ٠

وربما يقال ان فن الطفل له قيمته ، وهو فن تحقق قيمه من أطفال فى سن الخامسة ٠٠ ان الفن التلقائى للطفل شىء ٠٠ والفن الواعى شىء آخر ٠٠ وان القيم فى فن الطفل تأتى بانفعال غريزى تلقـائى ٠٠ ولم ترق تلك القيم الى تلك التى أعطاها لنا فن الكبار الواعى ٠٠ وحتى هـذه القيمة لفن الطفل تنتهى كما أثبتت التجارب ــ عند سن المراهقة ٠٠ ولذلك أقول بأن الفن التشكيلى يحتـاج الى العمر كله لكى تتحقق القيمة على المستوى الرفيع ــ وينبغى لنا أن نفكر جديا فى تدبير أسـلوب لتعليم الفن التشكيلى للأطفـال الموهوبين فى سن مبكرة ٠ وكمـا هو حاصـل الآن فى « الكنسرفتوار » فى مصر ــ فهم يقبلون الطلبة الموهوبين فى الموسيقى ليدرسوا الموسيقى بشكل مركز مع بقيـة العلوم الأخرى طبقا لمناهج التعليم العـام ٠ ويمكن تطبيق هـذا النظـام على الموهوبين فى فن الرسم ليدرسـوا

الرسم بشكل مركز على يد أساتذة وصلوا في فنهم الى مستوى الأساتذة ، لكي نخلق جيلا من الفنانين التشكيليين الذين تستمر رعاية الدولة لهم حتى النهاية .

وفي الجانب الآخر – ينبغي العناية بالطفل في جميع مراحل التعليم ، وذلك بتثقيفه تشكيليا – ووصله بالأعمال الفنية حتى يستطيع تذوقها . ونحن في مصر نعاني الكثير من الأمية التشكيلية فضلا على أمية القراءة والكتابة .

والفنان التشكيلي لا يرتفع اتتاجه وعطاؤه الفني الا اذا كان وراءه قاعدة عريضة من المتذوقين للفن التشكيلي .. بل لابد له من شعب بأسره يسري في عروقه حبه للفن على العموم ، وتذوقه للفن التشكيلي على الخصوص .

لقد ظل عملي الفني يسير قدما – ولكن لم يكن الطريق سهلا – فكانت في الطريق معاناة ومعاناة ، وفشل يعقبه نجاح – ونجاح يعقبه فشل .. بل كان اليأس ينتابني في بعض الحالات وانزوي في بيتي. وألتهم الكتب التهاما ، هربا من الأكاديمية ومواجهة الفشل ، بل ومواجهة أوزنفانت الذي أصبح تقديره لي على درجة طيبة والذي أطلق علينا أنا وحامد سعيد أعمدة الأكاديمية The Pillars of the Accadimy وكان لهذه التسمية أكثر من دلالة ، حيث اننا لم نتقطع عن الدراسة أبدا الا فيما ندر – وثانيا لأننا كنا نأخذ عملنا بجدية تامة – وكان التقدم الراسخ المستمر في أعمالنا واضحا .

انصب اهتمامي على القراءة سواء عندما أشعر بأنني فشلت في أحد رسومي فكنت أعوض هذا الفشل في عملية استقبال من الكتب ومن المتاحف ، وهي أخف وطأة وأقل عناء من عملية العطاء التي كانت كلها معاناة .. وكنت أنحو في قراءاتي في حالات الاسترخاء

ـ من العطاء الفني الى القراءة السهلة ـ وهـذه القراءة السـهلة كانت تعنى بالنسبة لى تراجم الشخصيات المهمة (السير) أو قصصا من الأدب الرفيع الروسي والفرنسي والانجليزي •• وكان للروس مكانة كبيرة فى اعتبارى •

وقد وقع فى يدى كتاب عن حياة « غاندى » الزعيم الهندى ـ وكان قد زار انجلترا فى آونة سابقة وهو فى زيه البسيط جدا وفى تقشفه الذى عرف عنه • وقد قـابل أعلى رؤوس فى الامبراطوريـة البريطانية ـ وهو فى هـذا الزى • قرأت حياة غاندى وكان الكتاب مشوقا للغاية ـ ولم أتركه الا وقد أتممت قراءته ـ وقد توقفت مرات كثيرة أتأمل بعض الأحداث المثيرة التى أهاجت فى كوامن نفسيه ، وكانت كلها تدور حول الايمان بالمبدأ والهدى ، والارادة القوية ، ومقاومة الظلم ، والدفاع عن الحق بلا عنف ، بل بالحب •

فى بدايـة حيـاة غاندى وعند عودتـه من دراسـته للقـانون بانجلترا ـ وقد عاد الى الهند ليعمل بالمحاماة ـ قامت قضية اضطهاد الهنود فى جنوب افريقيا ـ وقد دعى للدفاع عن هذه القضية ـ وبعد تردد لم يدم الا قليلا قرر السفر الى جنوب افريقيا للقيـام بالمهمة • فرتب كل شىء واشترى تذكرة سفر بالقطار بالدرجة الأولى • ثم ركب القطار فعلا وأخذ مكانه المحجوز مقدما بديوان بالدرجة الأولى ، وما كاد القطار يتحرك الا ودخل الديوان رجل ضخم الجثة أبيض أحمر الشعر ••• انجليزى بالطبع من المستعمرين « الأسياد » •• وقد تملل عند رؤيته للهندى « الحقير » الذى جلس أمامه فى الديوان بالدرجة الأولى • وبعد برهة قال الانجليزى بغطرسـة واضحة ـ ان هذا الديوان خصص للبيض فقط وان مكان الهنود فى درجات أدنى ، ولا يحق للهندى أن يركب فى الدرجـة الأولى أبدا ، وان الهندى ينبغى له أن يرحل فورا الى مكان آخر بالقطار فى درجة أدنى • ورد

عليه غاندى فى ثبات وهدوء تامين . انه مواطن هندى وقد دفع ثمن تذكرة بالدرجة الأولى وحجز مكانا فى هـذا الديوان بالذات وان هذا المكان هو مكانه وأن من حقه أن يظل فيه حتى يبلغ غايته .. واستشاط الانجليزى غضـبا « على غـير المعهود فيهم » ــ أعنى الانجليز ــ ولكنهم هم هنا فى غير بلدهم ، كل شىء يتغير فيهم . هم هنا أسياد . . وانه لمن الوقاحة أن يخاطبهم أهـل البلد بهـذه الطريقة وينكروا عليهم رغباتهم . فأعاد الانجليزى أمره الى غاندى بالرحيل فورا الى درجة أدنى ، وكانت لهجته فى هـذه المرة غاضبة . فاجابه غاندى بنفس الهدوء والثبات بأنه يعرف القـانون جيدا وليس من حق أى أحـد أن يزحزحه من مكانه . فما كان من « السـيد » الانجليزى الا أن انقض على غاندى ينهـال عليـه بالضرب والركل وينتزعه انتزاعا من مقعده ليقذف به خارج الديوان .

تشبث غاندى بكل ما أوتى من قوة بمقعده ، بكل جزء يمكنـه التشبث به .. قـاوم العنف بالتمسـك بحقـه ، ولم يرده العنف الا تمسكا بحقه . ولكن غاندى الضعيف البنية بجانب ذلك « الفحل » الانجليزى ــ لم يستطع الثبات طويلا ، فتمكن الانجليزى من انتزاعه والقذف به خارج الديوان ثم أغلق الباب وجلس ينفض « الغبـار والأوساخ » التى نالته من ضرب وركل ذلك الهندى « القذر » . ثم بدأ يحشـو غليونه بالطبـاق ويشعله نافثا دخانه وهو جالس فى استرخاء فى الديوان وحده وكأن لم يحدث شىء : لم تحدث جريمـة قذرة .. لم يقع ظلم فاحش وافتراء من قادر بقوته البدنية ــ على حق ظاهر لا مراء فيه . لم يشعر بجريمته النكراء فى حق واحد من أعظم رجال العصر ، هو فى صف الأنبياء برسالته الرائعـة .. بالحب .. وبالحب وحـده يقاوم الظلم والطغيان .. وقد مر حـدث آخر من (غاندى) علق بذهنى حتى اليوم .

لقد مرضت زوجته وأوصى الطبيب بعدم تناولها الملح — وقد عانت الزوجة من هـذه التوصية وعزمت على ألا تتقيد برأى الطبيب — وعلم غاندى بذلك فذكر لها أن رأى الطبيب كان لصالحها فلا داعى لعصيان أمره . فقالت لغاندى انك لا تشعر بما أعانى بتناولى الطعام بدون ملح فهو غير مستساغ بالمرة ولم تجرب أنت ذلك أبدا . فما كان من غاندى الا أن قال بكل بساطة انه لن يتناول الملح فى طعامه طوال حياته .. وقد كان .

وكان هذا مظهرا اراديا رائعا بالنسبة لى حيث ، اننى كنت أحاول فى هـذه الآونة الامتناع عن التدخين ولم أفلح ، أفلا يمكن أن يكون لى جزء من ارادة غاندى العظيم .... ؟

وكان هناك حدث آخر عظيم استعرضه الكاتب فى استفاضة وتحضير للحدث . أعتقد أنه كان أروع ما فى الكتاب اطلاقا . لقد ظل غانـدى الزعيم الروحى للهند يبث مبـادءه وفلسفته فى شـعب الهند — مبادءه التى بنيت على الحب واللاعنف . ومبادءه التى انتشرت بشكل رائع فى اتباعه من جميع الفرق والملل ليس هنـاك فرق بين فرقة وأخرى . . الهنـد الموحدة هـدف كبير يحلم به ذلك الرجل العظيم .

كان غاندى يعد شعب الهند للمقاومة — مقاومة المستعمر — مقاومة بلا عنف ولا سلاح . مقاومة على أسـاس من الايمان بالحق أولا ، والايمان بأن « العدو المستعمر » ليس كله شرا بل ان فيه من الخير ما يمكن الوصـول اليه عن طريق الحب وعن طريق ذلك الايمان بأن الخير موجود فى باطن ذلك « العدو » .

فى يوم مشـهود اكتملت مسـيرة كبيرة تضم الآلاف ونظمت الصفوف . صف أمامى تتلوه صـفوف متراصـة كل فى موضـعه تماما وكل فى حالة نفسية رائعة من معنويات لا تسمح بأى خلل فى التنظيم النفسى والارادى الرائع الذى بذل غاندى السـنين الطوال

للاعداد له . بدأت المسيرة تزحف .. وتزحف لايمانها بحقها في التحرر .. وفي نظام رائع تتقدم .. تتقدم نحو ماذا .. تتقدم نحو صفوف أخرى متراصة من الجنود الانجليز المستعمرين الذين أمروا بوقف هذا الزحف مهما كان الثمن .. أمروا بوقف هذا الزحف بالنار .. بالرصاص بالقتل .. بكل وسيلة .. انه الحقد اشعلته تلك المسيرة المقدسة تطالب بحقها في الحياة الحرة الكريمة .. تقدمت المسيرة حتى أصبحت في مواجهة الانجليز وقد شرعوا بنادقهم استعدادا لاطلاق النار فورا لدى تقدم آخر .. ونادوا على المسيرة بالتوقف والرجوع الى حيث جاءت والا أفنوها عن آخرها .. ولكن المسيرة ظلت تتقدم وتتقدم . وينادى بعض أفرادها على الجنود الانجليز بأنهم جاءوا يطلبون حقهم في الحرية وأنهم لا يكرهون الانجليز ، وانهم جاءوا مسالمين وأن سلاحهم الوحيد هو ايمانهم بحقهم في الحياة الحرة ، وانهم يحترمون « الانسان » تحت أى زى وفي أية بقعة وحتى تحت زى الجندى الانجليزى المسلح الذى سيطلق الرصاص عليهم بين لحظة وأخرى .

انهم يحترمون بل ويحبون ويقدسون ذلك الجزء الانسانى الخير الذى يكمن في كل البشر مهما كانوا ومهما استحوذ عليهم الشر في بعض لحظات حياتهم .

وكان الجواب شيئا مفزعا ...

اطلق الجنود الانجليز الذين لم يفهموا شيئا في تلك اللحظة سوى أمر قائدهم « اضرب » . وسقط الصف الأول من المسيرة . قتلى وجرحى الا ما ندر .. برز الصف الثانى فورا الى الأمام وظل يتقدم في سيره نحو الجنود وهو ينادى بتلك المعانى الرائعة التى ظل ينادى بها كل فرد في المسيرة قولا وفعلا . انطلق الرصاص مرة ثانية ، وسقط الصف الثانى . ولكن تقدم الصف الثالث الى الأمام.. الى الأمام الى الموت .. الى الشهادة في سبيل الحق والمبدأ .

وهنا وفى تلك اللحظة وقد شاهد الجنود الانجليز ما حدث وما يحدث وهم لا يصدقون أعينهم • القتلى يتساقطون بالعشرات تحت رصاصهم القاتل ويتقدم الصف تلو الصف بايمان ثابت ليلقى مصير من تقدم منهم • هنا تسمرت أيدى الجنود الانجليز على زناد بنادقهم • لم تستطع أصابعهم أن تتحرك من هول ما رأوا — تلك المسيرة الرائعة التى يقتل أفرادها بالعشرات ولا يبدون أى روح انتقامية ، أو أى دفاع مسلح عن أنفسهم • انهم يتسلحون بالحب •• بالايمان •• بالايمان بأن « عدوهم » ليس شرا كله •• وأن الجزء الخير لابد أن يستجيب • وقد استجاب •• وانتصر غاندى •

بعد قراءتى لحياة غاندى ، أردت أن أعرف أكثر عن مبادىء غاندى من الناحية العملية والتحليلية — وقد أعارنى حامد سعيد كتابا لطيفا عن « قوة اللاعنف » Power of Non Violence وقد أعطى الكاتب أمثلة كثيرة كيف يكسب الانسان خصمه بدلا من أن يعاديه•• وقد استمتعت بهذا الكتاب الذى كشف لى عن قدرات كثيرة « للاعنف » ، والتى يمكن تطبيقها فى كل لحظات حياتنا • ثم شدتنى هذه القراءات عن غاندى واللاعنف الى كتاب آخر للكاتب الروسى الكبير الذى عاصر غاندى تقريبا ، وقد كان بينهما مكاتبات على حد تذكرى — وقد اشتريت الكتاب فى طبعة رخيصة وكان عنوانه « اعترافات ومعتقدات تولستوى » Confessions and what I belive كان لهذا الكتاب « زخم » آخر صاحب زخم غاندى ، ولكنه تعداه لمشكلة بل لمشاكل أخرى تخص الدين • الشعور الدينى — والمسيحية•

لقد ولد تولستوى مسيحيا أرثوذوكسيا على دين آبائه •• وعلى حد قوله « لم يكن لى فضل أو حق فى اختيار الدين الذى أتبعه • لقد ولدت هكذا واستمرت معتقداتى ، اتبع دين آبائى التى لم يجر أى نقاش لها من جانبى فاستسلمت لها تماما ، حتى أتى اليوم الذى بدأت فيه اناقش تلك المعتقدات » •

وعندما يبدأ تولستوى يناقش معتقداته الموروثة كان معنى هذا هو بدء الشك فى تلك المعتقدات • لقد بدأ بحثه عن الحقيقة بقراءة الأناجيل الأربعة والتوراة ، وسيرة المسيح وكل ما كتب عنه • درس قوانين الكنيسة وصلاحياتها وما تقوم به من خدمات للدين ، ولكنه لم يجد فى كل هـذا ما يشبع شـوقه الشديد للمعرفة •• لمعرفة الحق •• لمعرفة الله • وفى مجال آخر اعتقد أنه ينبغى له أن يكون كاملا فى كل شىء : الثقافة والأدب • وقد أصبح يشار اليه بالبنان فى روسيا وخارج روسيا • اهتمامه وعنايته بالرياضـة والصيد وكل ما يمكن عمله لاكتماله جسمانيا ، ومعالجة آى قصـور فى معنوياته بدراسـة هـذا القصور والبحث عن الطريق لعلاجه وقد نجح فى كل هـذا « هكذا يقول تولستوى فى اعترافاته » ولكن كل هـذا لم يضىء له الطريق الى اشباع عطشه الشديد للمعرفة •• ترك دينه ومعتقداته الأرثوذكسية وذهب الى غيرها من شعب المسيحية ــ بل ترك المسيحية بأسرها وذهب الى دراسة الأديان المختلفة : البوذية •• الكنفوشيوسية الاسلام واليهودية •• واللاوتزية •

ولم يستطع أن يجد راحة لعقله وروحه •

استغنى عن أملاكه ومزارعه •• استغنى عن أمواله ، وعاش فى بساطة •• يفكر ويتأمل ــ وهو فى ألم مستمر •• قلق دائم •• حيرة طويلة لا تنتهى •• وهناك بعد تلك الرحلة الطويلة استنارت روحـه ووعى عقله ورأى الحقيقـة فى داخل نفسه حين قال قولته الرائعـة The Kingdom of God is within you « مملكة الله بين جنبيك » •• أو •• « الحق فى داخلك » •

وشعر تولستوى براحة بعد ان استقرت روحه بعد رحلة العذاب الطويلة • ولكن هنـاك أشياء لم يستطع البت فيها فورا •• ما هو الموقف بالنسبة للعبـادات الروتينية والكنيسة الأرثوذكسـية التى

نشأ بها .. هل يهجرها الى الابد .. ولكن يهجرها الى أين .. لا يوجد « أين » أخرى أمامه . ان رحلة الشك هذه ـ رحلة العذاب الطويلة التى مر بها ـ تحتاج النفس بعدها الى راحة طويلة .. الى الاستقرار والطمأنينة . ان المعتقدات التى نشأ عليها ما هى الا نظام مرت عليه السنون والأجيال بالصقل والتهذيب حتى أصبح له صفة الاستقرار ـ فلماذا لا يرتمى فى أحضانه مرة أخرى .. ويستريح ويريح ؟

وهكذا عاد تولستوى الى الأورثوذوكسية مرة ثانية ، ولكن هذه المرة بالوعى والتكامل مع الحق بالمعرفة .

ومن حيرة تولستوى المسيحى وتشككه فى معتقداته الموروثة .. الى حيرة أبى حامد الغزالى المسلم وتشككه فى معتقداته الموروثة .

أبو حامد الغزالى .. حجة الاسلام وأكبر المجتهدين فى الدين بغير منازع .. هذا الرجل لم أتشرف بمعرفته من قبل أبدا حتى وجدت له هذا الكتيب الصغير المترجم الى الانجليزية Confessions of gasali « اعترافات الغزالى » ويندرج هذا فى كتابه الأصلى بعنوان « المنقذ من الضلال » .. بالعربية . هذا الرجل الفحل كان أستاذا للدين والفقه الاسلامى ، وكان يمارس أحاديثه ومحاضراته بحصيلة من العلم لم تكن لمثله ، ومرت عليه تلك المحنة الكبرى ـ « محنة الشك فيما هو عليه » .. هل هو على صواب فى أخذ دينه بالوراثة .. لم يبحثه ولم يمحصه ولم يكن له فضل فى اعتناقه واتباعه .

بدأ الشك وبدأت الحيرة فترك المعهد وترك التدريس .

ان علمه ناقص .. ناقص .. « والطبيب الناقص لا يحسن المعالجة . كذلك المعلم الناقص .. لا يحسن التعليم .

هجر الغزالى مهنته وهو فى أوجه كأستاذ ومعلم مرموق ، وآوى الى مكان قصى قضى فيه سنين ، وهو فى تفكر دائم وتأمل مستمر .. رحلة طويلة كلها آلام .. ومعاناة .. حتى من الله عليـه بالاستنارة والمعرفة ونزل من صومعته الى الناس ثانيـة وعـاد الى الاسلام وهو أقوى مما كان ، فقد نال ما تمنى من الاتصال والاستنارة . ولم يكن أمامه كمـا حدث عند تولستوى الا أن يعود الى ما ورث وما نشـأ عليه .. الى دين متكامل لا يحتمل التحوير ولا التبديل .

والعجيب فى الحالين ــ حال تولستوى وحال الغزالى ــ التشابه الكبير .. عند القمة .. وعند القمـة دائما تنمحى الفروق ، وعند القاعدة دائما تكثر الفروق . بعد الحيرة والشك الكبير والوصـول الى المعرفة والاستنارة ، كان على تولستوى والغزالى أن يرتميا مرة ثانية فى أحضان النظام الموروث لكل منهما . ولكن الاثنين قد عرفـا « حقا » واحدا ، حيث لا يوجد الا حق واحد ، فقد تماثلا بل تطابقت معرفتهم بما عرفوا . فى القمة ــ قمة الخواص وان اختلفت طريقهم .. الذى يصلح للكل ــ على اختلافهم ــ فى القاعدة .. عند العوام .

كانت قراءاتى تسير فى هذا الطريق ، والكتاب كان يستدعى كتابا آخر فى نفس الخط ، والموضـوع كان يستدعى موضـوعا مكملا لمـا سبقه . كنت أشعر أن الطريق يتحدد أمام قراءاتى ، وأن المشكلة بدأت تتكون وتتبلور داخلى . لقد قرأت القرآن بل حفظت منه أجزاء كثيرة عن ظهر قلب ، ولكننى لم أكن أفقه مما أقرأ ولا مما أحفظ حرفا واحدا . كنت اقرأه بنغمة رتيبة تشعرنى بأنى أقرأ القرآن ليس الا .

ماذا فهمت من القرآن وماذا فهمت من الدين ؟ .. لاشيء .. لقد مرت على فترات من حيـاتى وأنـا فى سن التاسـعة والعاشرة وما بعدها .. بعد موت والدتى .. وأنـا أقوم بالعبادات من صـلاة

وصوم بشكل روتيني ومستمر . حتى انى كنت أصلى التراويح وأقرأ الأدعية قبل النوم وعند الاستيقاظ فى الصباح ، كما كانت تعلمنى احدى جداتى التى كانت تمارس العبادة عن اقتناع كامل . ولكن لم يستمر هـذا فقد جاءت سن المراهقة فتركت كل هذا ، ولم يبق فى خاطرى منه شيء .. سـوى حفظى لبعض السور الصغيرة التى ما كانت تبرح مخيلتى أبـدا .. ومنهـا « بسـم الله الرحمن الرحيم والضحى والليل اذا سجى .. ما ودعك ربك وما قلى .. صدق الله العظيم » كانت بداية هـذه السـورة القرآنيـة تعود الى خاطرى دائما ، وكانت بقية السورة تختفى من ذاكرتى أحيانا فأستعيد قراءتها حتى تظل حاضرة معى دائما . لم أكن أعرف السبب فى اختيـارى لهذه السورة بالذات ولم اهتم بمعرفة السبب على الاطـلاق . كان فهمى للدين سطحيـا ، وكان لقراءتى لاعترافـات هـذين القطبين : الغزالى وتولستوى أثر كبير فى تفكيرى فى الدين . لقد جرنى حبى للتعرف على هـذا الطريق الى قراءة كثيرة عن التصـوف والمتصوفة ، وعن القديسين والطريق الوعر المليء بالمعاناة والآلام ، ولكن الكل اذا وصلوا كانوا يترنمون بنفس النشيد مع اختلاف أديانهم .

هذا وحده كان يشـدنى شـدا مستمرا للاستمرار فى القراءة والاطـلاع فى قس الخـط .. وليم جيمس .. « منوعـات من التجـارب الدينيـه » Variete of Religious Expriences ايفلـين آنـدر هيـل والطـرق السـبع للتصـوف Seevn Ways of Mysticism — Evelin underhill ثم انا بزنت Anna Peusunte عن التصـوف والمتصوفة . وهـذه القراءات تعدت الى محـاولة قراءة القرآن بفهم لم يكن من قبـل ، ولكن هـذه المحاولة فشلت فى ذلك الحين .. كانت اللغة صعبة . قرأت الانجيل وقرأت التوراة وقرأت الرميانا الهنديةـ وقرأت عن بوذا وتاريخه كله وقرأت عن «كنفوشيوس» وعن «لاوتزى» ـ وكنت

ألتهم هـذه الكتب التهاما ، سـواء ما كنت أشتريه من الطبعـات الرخيصة فى حدود ميزانيتى ، أو ما كنت استعيره من مكتبـة حامد سعيد ، أو ما أذهب لقراءته فى المكتبات العامة .

كانت هـذه القراءات تسير وتحدث أثرها الذى سيشعر نفسه بحدة فيما بعد ويطلب جوابا .

وكان عملى فى الأكاديمية يسير بتؤدة ، ولكن رأسـيا الى أعلى دائما اذا لم نعد الكبوات ، فقد كانت فى معظم الأحيان مفيدة .

فى عام ١٩٣٨ وابان أزمة ميونخ الشهيرة التى فجرتها ألمـانيا وذهب رئيس وزراء بريطانيا فى ذاك الحين ليقابل هتلر ليؤجل تفجر الأزمة ولو الى حين — فى تلك الآونة — سافر أوزنفانت الى أمريكا ، وعلمنا فيما بعد من سكرتيرته بانه تعاقد أو على وشـك التعاقد مع جامعة ييل Yale الأمريكية لكرسى علم الجمـال والفن . وكان الخبر المفاجىء صاعقا بالنسبة لتلاميـذه ، وقد اجتمعوا وقرروا فيما بينهم ارسال برقية احتجاج عنيفة لأوزنفانت لتركهم هكذا ، ومفاجأتهم بهذا القرار وهم ما زالوا فى منتصف الطريق .

وقد وجدت أنـا أن لهجة البرقية عنيفة وغير ملائمـة . وكان حامد سعيد قد ترك الأكاديمية منذ سفر أوزنفانت للتفرغ لدراسـة تاريخ الفن فى معهد « جرتولد » بلندن ، حيث كان يمر بأزمة أشرت اليها بالتفصيل فى مقالى عن حامد سعيد فى مجلة « الفنون » .. ولذلك لم يشترك هو فى هذه البرقية . وقد امتنعت أنـا عن التوقيع على البرقية وقلت اننى سأكتب له خطابا بهذا المعنى . وفعلا كتبت الخطاب . شـكرته على الفترة الرائعة التى أمضيتها تحت اشرافـه وتعاليمه القيمة التى استفدت منها على الدوام ، ولكنى رجوته أن يدلنى على أستاذ آخر وليكن من زملائه فى فرنسا ، لكى أتم تعليمى بقدر المستطاع حيث كنت أشعر أننى مازلت فى بداية الطريق . ومر

ما يقرب من شهرين وأنا أعمل بجد ، والأكاديمية تسير كالعادة حتى يأتي الرد من أوزنفانت • وكنت أرسم في تلك الفترة « تورسو » أي الجزء من جذع وصدر وفخذ الموديل • كان هذا العمل قد أخذ مني مجهودا واستنزافا ، فقد كان ناجحا ، بل انه كان يبلور دراستي عند أوزنفانت طوال المدة التي تزيد على عامين • كنت في اللمسات الأخيرة في هذا العمل الذي كنت أنفذه بقلم « كنتيه » حينما علمنا ان أوزنفانت قد عاد من أمريكا وانه في طريقه الى الأكاديمية • كان هذا خبرا مفاجئا لنا جميعا وبدأنا نستعد للقائه وكان حامد سعيد يأتي من وقت الى آخر للأكاديمية ، وكان حاضرا في هذا اليوم فقد علم بأن أوزنفانت قد عاد من أمريكا • اذن فقد عاد أوزنفانت • لماذا عاد اذا كان كما سمعنا انه ارتبط بكرسي الأستاذية بجامعة « ييل » Yale •• هل عاد فعلا تلبية لرغبة تلاميذه ، أم أن هناك شيئا له عاد ليصفيها قبل سفره النهائي الى أمريكا • لقد انهى عمله في صورة الحياد Life التي استمر العمل فيها أكثر من أربع سنوات كاملة ، يعمل فيها بجد تماما ، وكان هذا العمل أمامنا ينمو على الدوام ويد الأستاذ تعالج المشكل تلو المشكل ، فكان هذا في حد ذاته درسا عمليا كبيرا لنا جميعا • ان الأستاذ يطبق عمليا كل ما يقوله لنا من نقد ، بل هو يطبق كل ما كتبه في كتبه ومقالاته عن Purism وعن الدوائم constants • انه كان أمينا لعقله وفكره ونظريته في تطبيقها بنفسه • وبعد كل هذا أتساءل — هل نجح أوزنفانت في أن يكون فنانا مصورا من الصف الأول ؟ •• ظل هذا السؤال يتردد في نفسي زمانا طويلا بالرغم من اعجابي الشديد بهذا الرجل • هل وصل خطابي الى أوزنفانت ؟ وهل قرأه ؟ لقد علمت من شاري السكرتيرة أن برقية الزملاء قد وصلته فعلا فقد كتب لها بهذا ولكنه لم يذكر شيئا عن خطابي له ••• !

حضر أوزنفانت الى الأكاديمية وكان الجميع في انتظاره ، وكان

لقاءا حارا بين الأستاذ وتلاميذه ، فقد كانت هنـــاك علاقة نمت على مر الأيام ــ علاقة احترام وتقدير وحب بين الأستاذ وتلاميذه •

وبدأ يحدثنا قليلا عن رحلته وأنه أصبح يفضل أمريكا لعمل الفنان عن انجلترا فالجو الفنى هنـــاك أصبح ملائما تماما للفنان ــ ولم تتفق معه فى الرأى • وفى أثناء الحديث التفت الى فجأة وقال لى « هل تعـلم اننى ما عدت من أمريكا الا لأجلك ؟ •• لقد وصـلنى خطابك » •

قال هـــذا أمام الجميع •• الجميـــع ممن أرســلوا له برقيـــة الاحتجاج •• جاءت كلماته هذه مفاجأة سارة لى وقد هزتنى فعلا •• هل صحيح هـــذا الذى يقوله الأستاذ •• هل عاد فعلا من أجلى •• هل كان لخطابى له ذلك « الرد فعل » الذى أثلج صـــدرى وأشعرنى بان لى مكانة عنده • كنت شابا لم أبلغ الواحدة والعشرين واحترامى وتقديرى الكبير لأوزنفانت كان يجعل من كلماته هذه معنى كبيرا فى نفسى •

وقد شعرت بفرح داخلى واعتزاز بالنفس من كلماته هذه سواء قد عاد أوزنفانت من أجلى فعلا أم أن عنده من الأسباب الأهم • المهم انه قال هذه الكلمات فعلا وأمام الجميع •

وبعد ان انتهى اللقاء •• لقاء عودة أوزنفانت واطمأن الجميـــع على استمرار الدراســـة فى أكاديميته بدأنا العمل بجد • وكان هـــذا دائما طابع الدارسين جميعا فى أكاديمية أوزنفانت • وحضر أوزنفانت مبكرا وكانت معه كاميرا وحـــامل ، وازاح الســتار عن عمله الكبير Life وركز الحامل والكاميرا أمام اللوحة وبدأ فى تصـــوير أجزاء تفصيلية من الصورة • لقد أتم اللوحة وهو يسجلها بتفصيلاتها فوتوغرافيا • وعند الظهر أرجأ أوزنفانت عملية التصوير الفوتوغرافى واشعل سيجارة وبدأ يجول جولته النقدية على الدارسين • ثم جـــاء

دوری وكنت قد أكملت دراستي « للتورسو » وما ان وقعت عين أوزنفانت عليــه حتى ســكت لحظــة ثم نطق ببضـــع كلمــات رائعــة .. كانت رائعــة بالنســبة لى .. قــال بالحرف الواحــد : Mon dieu quelle Dignité quelle grandeur « يا ربى .. ما هــذا الجلال .. وما هــذه العظمة » .. لقد فهمت الكلمات الفرنسية فورا فقد اعتدت شيئا فشيئا على فرنسية أوزنفانت .

ولم أسمع ما قاله بعد ذلك .. وقد قال لى حامد سعيد بعد انتهاء كلام أوزنفانت : مبروك يا راتب .. لقد مدحك بما تستحقه فعلا ان هــذا العمل هو أحسن ما وصلت اليه فى هــذه المرحلة وأن أوزنفانت يتنبأ لك بمستقبل كبير فى الفن وذلك فى بقية حديثه عن عملك وعنك . لقد كانت لحظات حاســمة تلك التى عشتها بعد سماعى هذا التقرير من أستاذ كبير الى شاب مازال فى بداية دراسته للفن . كان هــذا حافزا لى للسير الى نهاية الشوط وكانت عزيمتى قد انعقدت على هــذا فعلا .. ظلت « الجــلال » Dignity والعظمــة « الجرانديز » «Grandeur» يلازمان كل نبضــة فى نفسى وفى أعمالى الفنية .

انتهت الفترة الدراســية بعد بضعة أسابيع وبدأت الاجــازة الصيفية — وقد صممت أن ابتعد عن أصدقائى فى لندن وأن أرحل الى مصيف هادىء . ووقع اختيارى فعلا على مصيف ليس من بين المصايف الشــهيرة القريبــة من لندن هو مصيف « رانسجيت » Ransgate لم آخذ معى الى رامسجيت سوى الكتب — كتب كلها تبحث فى الدين « حياة الرهبان والقديسين » كتاب ايفلين اندر هيل « ســبع طرق للتصوف » Seven Ways of Mysticism E. Underhill أربعة أجزاء كبار استعرته من حامد سعيد — وذهبت الى رانسجيت محملا بالكتب ليس الا ، ووجدت سكنا هادئا مع عائلة صغيرة : زوج وزوجة وابن صغير لم يتعد التاسعة من عمره . وبدأت فورا فى ترتيب

أوقاتي . كانت رانسجيت بلدة صغيرة نسبيا تقع على الشاطىء وترتفع عن الشاطىء الرملي بما لا يقل عن خمسين أو ستين درجة سلم يتوسطها كشك صغير من الخشب ونوافذ زجاجية ، جعل كمحطة يستريح فيها النازلون والصاعدون ؛ فزود بمقاعد مريحة . والنوافذ الزجاجية كانت تطل على البحر بطبيعة الحال . كان هذا الكشك بين الشارع والشاطىء الرملي هو مكاني الذى كنت أقضى فيه الساعات الطويلة قارئا ومفكرا في الحاضر .. حاضر الفكر .. فكرى أنا . ثم أسبح لأسبر غور فكر الآخرين الذين أقرأ لهم والذين قرأت لهم من قبل..تلاحم وتضارب بين فكرى وفكر الآخرين..كانت المناقشة تدور داخلي كلما قرأت بضعة سطور تقول شيئا ذا أهمية.كان عقلي يستدعى كل ما عنده مما قرأه ومما هضمه من قراءاته ليناقش هذا الرأى الذى تحداه فى تلك السطور التى يقرأها . كانت تلك السطور التى يقرأها عن طرق التصوف السبعة تقف أمامى فى تحد واضح ، ولكنها فى الوقت نفسه تحرك مكامن سحيقة فى نفسى . تلك السطور التى تحكى عذاب القديسين الذى كانوا يصبونه على أنفسهم عامدين متعمدين بغرض « اعدام الجسد » بكل رغباته الدنيوية لتنطلق الروح فى حرية ، تلك الروح الخالدة تتخلص من ذلك الجسد الفاني لتلقى المقدس ـ لتلقى الله . لتتحد معه فى وحدة أبدية . كانت تلك السطور تهزنى هزا عنيفا فى ذلك الحين . كانت قطرات الدمع تتساقط بغير ارادتي ، وكانت السطور تتوارى خلف هذه القطرات ولكنى مستمر فى القراءة .

وأترك هذه السطور ، ولكن الكتاب يشير الى أمثلة حية من هذا العذاب الارادى لتطهير الجسد كما يقولون . هذا الراهب فى طريقه الى المقدس يسير وقد حمل صليبا ضخما قد دقت فى كل جزء من أجزائه المسامير الحادة . حمل هذا الصليب الضخم تشبها بالمسيح

عندما حملوه صليبه الى حيث صلب • حمل الصليب وأسنان المسامير الحادة قد غرست في لحمه وفي كل خطوة منه في سيره يهتز الصليب وتنغرس المسامير في جسده أكثر وأكثر • صابر •• صابر •

ان الجسد قد مات وان روحه أصبحت معلقة في السماء ، حيث المقدس يرنو اليه من عل فهو لا يشعر بأى ألم • لقد تطهرت روحه وتخلصت من الآلام الدنيوية بل تخلصت من كل الرغبات والشهوات ، بفضل تلك الآلام والعذاب الذى اختاره السائر فى هـذا الطريق •• هكذا يقولون فى هذه السطور •

أن الطريق طويل جدا وشاق جدا لمن أراد الوصـول • وان الحـالات كما كانوا يسـمونها : بين الشـوق والتوبة والتطهر •• والخلاص ــ والوصول •• حيث الكل فى واحد •

سيطرت على تفكيرى طوال اقامتى فى رانسجيت تلك الحالات والأمثلة المضروبة فى الكتاب ــ بل قل ان تفكيرى قد شل تماما ولم يعد يعمل • ان هنـاك عبر الفكر الواعى دوافع ونزعات فى أعمـاق النفس تعمل وتعمل بغير وعى كامل منى • لقد اعترانى شـعور قوى بنقص ذاتى •• بل باحتقار لنفسى • كيف يمكن أن أقف على قدمى بين هؤلاء الجبابرة الذين تجردوا كلية من كل ما هو دنيوى ، وركزوا أبصارهم على كل ما هو علوى •• وأنـا •• أنـا الذى حاولت أكثر من مرة أن أتخلص من عادة قبيحة •• من لذة سخيفة •• ألا وهى التدخين مثلا • لم أستطع ، رغم المحـاولة تلو المحاولة • هل لم يعد عندى ارادة • كنت أتمنى فى تلك اللحظـة أن يكون عندى جزء من ارادة هؤلاء الجبابرة •• ولكن •• هل هى مجرد ارادة فقط •• وما هو مفجر هـذه الارادة •• انه الايمان قبل كل شىء •

هكذا كانت تسير أفكارى •• مرة تقبل ومرة ترفض •• ولكنها على ما أظن كانت حية •

استمرت قراءاتى فى هـذا الخط طويلا ، حتى أن صاحب المنزل الذى أسكنه والذى كان يعمل ليلا ويظل فى البيت نائما بالنهار قد أخذ يقلب فى كتبى وأنا بالطبع غائب فى « صومعتى » فى ذلك الكشك الرائع على الشاطىء وفاجأنى الزوج يوما قبل أن يرحل الى عمله فى المساء ــ وقد تقابلنا صدفة ــ فاجأنى بسؤال غريب .. كان غريبا على سمعى .. « هل أنت تدرس اللاهوت » فأجبته باننى أدرس الفن التشكيلى . « ولماذا كل هذه الكتب عن الدين » ؟ قلت له انها لمجرد التثقيف فى هـذه الناحية ــ وهز كتفيه فى حيرة وتركنى بعد أن حيانى وذهب الى عمله .

كان بالمنزل « سماعة » مستقلة لراديو لا أعرف مكانه ، ولكن صاحبة المنزل قالت لى أننى أستطيع أن استمع للموسيقى اذا ما حركت مفتاحا معينا فى هـذه السماعة وخصوصا يوم الأحد حيث أن موسيقى دينية لمشاهير الموسيقيين الكلاسيكيين تذاع فى ذلك اليوم .. وكان من حظى فى معظم الأحيان أن أحظى بسماع « بـاخ » . وكنت أحرص فى هـذا اليوم ــ يوم الأحد ــ على أمرين : الأول الاستماع الى الموسيقى الدينية ، والثانى أن اصطحب ابنهم الصغير « جون » الى السينما وكان هـذا دائما مدعاة لسروره ومن ثم سرورى . كنت أتحدث معه وهو يلقى على أسئلته فى براءة تامة وكنا نشاهد أى شىء فى السينما وكنت أسر عندما أجد « جون » منتبها تماما متتبعا لأحداث الفيلم . وكنت قبل دخولنا للسينما اشترى له « شيكولاتة » وكانت هذه الأشياء البسيطة كافية لتعقد بينى وبين جون صداقة ، حتى أن نظراته كانت تنم عن الحزن عندما ودعته بعد انتهاء الأجازة ورحلت عن رانسجيت .

كان يوم الأحد هذا يوما مريحا لى .. انه كان ينسينى تفكيرى وتلك الأزمات النفسية التى كانت تعترينى طوال اقامتى ، وعنـدما

اختلى بنفسى .. حتى أن الأزمات كانت تلاحقنى وأكاد أتمنى أن أذهب من هذه الدنيا الى الأبد لأتخلص مما سيطر على من فكر رهيب .. رهيب لاننى لا أجد حلا لشعورى بالضعف ينساب فى كل جزء من ارادتى . حتى أنه حدث فى يوم نزلت فيه الى الشاطىء واستأجرت قاربا بمجدافين ، وركبته وحدى وجدفت وجدفت ودخلت الى مسافة بعيدة فى عرض البحر .

وأنـا أعلم مقدرتى فى التجديف فقد كنت اعتبر « رجل مجداف » (Car's Men) من الطبقة الأولى سواء فى مصر أو فى لندن عندما كنت اجدف فى فريق تشلسى .. ذهبت مسافة بعيدة بالقارب ولم أشعر بأنى بعدت عن الشاطىء كل هـذه المسافة . وأوقفت المجاديف وتركت القارب تتقاذفه الأمواج ولم أعن لحظة واحدة بأن أعود بالقارب الى الشاطىء فقد تملكنى شعور غريب .. شعور بأنى عاجز عن التجديف واننى انطلق الآن الى اللامحدود .. انطلق الى حريتى .. انطلق الى ما يخلصنى من الشـعور بالنقص .. الشعور باحتقار الذات ــ وفعلا تركت القارب يتحرك بحريته .. ولكن هل للقارب حرية .. حرية الحركة ؟ . هل القارب حر فعلا فى أن يسير الى حيث يشاء وتلك الأمواج التى تتلاطم حوله وتقذف به شيئا فشيئا نحو الشاطىء رغما عن ارادته ، ورغما عن أية ارادة لى أيضا .. واقترب القـارب بفعل حركة الأمواج نحو الشاطىء . وبدأت أصحو من تسلسل الأفـكار والأحاسيس سـواء الواعية منها وغير الواعية . أمسكت بالمجاديف مرة ثانية وبدأت أضرب المـاء بقوة نحو الشاطىء .. نحو الحياة .. عدت الى لندن وقد صفيت نفسى بعد تلك الأزمة العارمة . وبدا لى كأن فكرى يعمل فى الطريق الصحيح . ولكن ــ بين الفينة والفينة كانت تزورنى تلك الأفكار عن تطهير النفس عن طريق تعذيب الجسد .. هل هذا هو الصحيح .. وهل اذا كان هـذا صحيحا فى تلك الحالات التى سردتها « اندرهيل » Undershill فى كتابها .. هلا يكون

هناك طريق آخر ؟ انى شخصيا لا أتحمل شكة الدبوس ويقشعر بدنى كله اذا رأيت أى منظر فيه قسوة أو تعذيب • وهل الطريق الى الله مفروش بتلك الطرق الوحشية لاخضاع الجسد وتعذيبه •

الله ••• السلام ••• والطريق الى السلام مفروش دائما بالشوك، ولكن هذا الشوك من نوع واحد دائما •• هل هو شوك يدمى الجسد للتطهير •• أم هو شوك آخر ، شوك معنوى •• معاناة ومعاناة •• تطهر النفس أولا ويطهر الجسد بالتبعية • ان المعاناة فى الخلق •• والعطاء الفنى •• أى فن •• يطهر النفس • ليس هناك خلق فنى بغير معاناة •• وقد مارست أنا نفسى هذه التجربة على طول خط حياتى وتجربتى مع العطاء الفنى • العطاء الفنى تكتنفه على الدوام معاناة حقيقية من الفنان المعطى على طول الطريق — تختمر فكرة العمل الفنى — لوحة أو تمثال — مثلا فى ذهن الفنان ، وقد يتم تصميمها بشكل محدد فى مخيلته ويبدأ التنفيذ • تعترضه المشكلة تلو المشكلة ، فى تعامله مع الخامة — منذ البداية — فيعانى — حتى يجد الحل تلو الحل • ثم تأتى المشاكل الأكبر والأعمق — فى تحقيق العمل فى وحدته وتكامله •• فى ايصاله لمرحلة النضج الكلى لكى يقول العمل ما أراده الفنان بعقله الواعى ، وغير الواعى •• فى رفع القيمة للعمل ، درجة بدرجة حتى يصل الى أقصى ما يستطيعه الفنان • وهذه العملية تشتد صعوبتها وتعمل على شد أعصاب الفنان الى الذروة •• فى مراحلها النهائية ، فتقدم العمل فى هذه المراحل الأخيرة للنضج •• تصبح عبئا ثقيلا — ثقيلا على كل كيان الفنان المبدع •

خلجات النفس ترق وترق حتى تصبح مرهفة تماما •• روحانية تماما •• يحملها العمل الفنى فى مرحلة اكتماله •

وفى هذه المراحل الصعبة من الابداع الفنى قد لا يجد الفنان

الحل للمشاكل التى تتوالى عليه • وهنا تبدأ المعاناة ــ فيجنح الفنان الى احتضان المشكلة وصهرها فى فيض من الفكر والتأمل المركز • وقد تطول فترة الحضانة هــذه أياما وأسابيع •• بل شــهورا فى بعض الأحيان •• حتى يأتى الحل •• بعد الاستنارة •• وبعد عذاب نفسى قد يصحبه مرض جسمانى ــ اننى شخصيا أعيش هــذه التجربة فى معظم حالات الابداع الفنى • انها صــورة مصغرة •• خطوة واحدة من الطريق الصوفى الطويل • انها معاناة نفسية وفكرية •• وليست تعذيبا للجســد الذى يضعنــا فى الطريق الصحيح الى الاســتنارة والمعرفــة •

فى لندن وفى الشهور التالية لعودتى من رانسجيت قرأت لمؤلف كبير كان له أثر كبير فى فكرى ، وتحولت من رومانسية الكتب التى قرأتها عن التصــوف الى فهم عميق • عميق للدين والاخــلاق •• لقد قــرأت برجســون «Bergson» « ينبوعان للدين والاخلاق » Two Sources of morality and Religion كان لهــذا الكتــاب الرائع الفضــل فى تحولى الى فهم حقيقى موضــوعى علمى للدين والاخلاق والينابيع التى تنهل منها • لقد قرأت الكتاب من الغــلاف الى الغلاف وخرجت منه بشيء رائع ••• لنفسى ولكل من أراد :

« ان الحب هو أعظم شيء للانسان »

ان قوة الحب على المستوى الذى يصفه برجسون يمكنها أن تزيل الجبال ــ كنت أقرأ الكتاب لا لأحفظ ما فيه •• ولكننى كنت أقرأ الكتاب لأتمثل وأعيش ما اعجبنى فيه •

بدأت الدراسة فى أكاديمية أوزنفانت فى سبتمبر سنة ١٩٣٨ بعد الاجازة الصيفية وبدأ العمل فيها كالمعتاد وكان حامد سعيد يتغيب عنها الا ما ندر ، وكان أوزنفانت يعاود حلقات نقده كالمعتاد ــ ولكننى شعرت

أنه يتغيب فى رحلات متقطعة الى باريس ويترك الأكاديمية مددا تتراوح بين أسبوع وأسبوعين •

ولم تمض شهور قلائل حتى أعلن أوزنفانت انه سيرحل الى أمريكا فعلا وأنه رتب كل شيء لتسيير الأكاديمية فى طريقها • وقد اختار لها فنانا انجليزيا كبيرا ، وسيبدأ فى الاشراف والتدريس بالأكاديمية من أول سنة ١٩٣٩ ــ أى بعد بضعة أسابيع اذ كنا فى نهاية سنة ١٩٣٨ •

اذن فقد بات رحيل أوزنفانت مؤكدا •• فقد اختار فعلا فنانا ممتازا للاشراف على الأكاديمية •

كان هذا الفنان والذى سبق أن حضرت له بعض الدروس فى تشلسى ــ كان هنرى مور • بلاشك هو نحات عظيم ، وربما كان هذا أحسن اختيار ــ وكما يقولون أحسن خلف لأحسن سلف ــ وقد تأكدت من هذه الأنباء من أوزنفانت نفسه ومن سكرتيرته التى قالت لنا انها ستسافر معه هى أيضا بعد بضعة شهور حينما يستقر أوزنفانت فى أمريكا • وكنت قد طلبت من أوزنفانت ان يدلنى على أستاذ آخر فى باريس لأتم دراستى معه فذكر لى زميله وصديقه « فرناند ليجيه » Fernand Leger وكنت قد رأيت الكثير من أعماله التى عرضت فى لندن ــ وهو بلاشك فنان ممتاز كنت أرجو أن استفيد من الدراسة معه ــ وهو بالفعل كان أحسن من أدرس معهم فى باريس فى ذلك الوقت •

قررت السفر الى باريس فور سفر أوزنفانت • وفعلا بدأت مراسلة فرناند ليجيه على عنوان أكاديميته الذى حصلت عليه من سكرتيرة أوزنفانت • وانتظرت الرد أسبوعا بعد أسبوع ــ ولما لم يصلنى رد ــ فتر حماسى قليلا وخصوصا وقد علمت أن من سيخلف أوزنفانت هو « هنرى مور » • وكنت معجبا بأعماله النحتية كما كانت مقالته الشهيرة عن الزلط والحصى عالقة بذهنى حتى هذه اللحظة •

وفعلا بدأت الأكاديمية تستعد لوداع أوزنفانت ، وعند ذلك ذكرني حامد سعيد بأن أطلب من أوزنفانت شهادة بدراستي معه ورأيه فى ، حيث أن الرأى من مثل من كان فى مكانة أوزنفانت العالمية له قيمة كبيرة فى أى مكان . وفعلا طلبت من السكرتيرة هـذا الطلب وأسرعت الى أوزنفانت تنقل له طلبى فقال انى فكرت فى هـذا ، وجلس يكتب بضعة سطور بالفرنسية وترجمتها السكرتيرة بالانجليزية على ورقة مطبوعة بعنوان الأكاديمية بلندن كتبت بالآلة الكاتبة وسلمت الى وكانت عبارة عن سطرين اثنين :

Rateb Saddik given The Right
Opportunity Will be an artist of international importance.

اطلع الزملاء على نص الشهادة ، وتمنى الأصدقاء أن يكون لهم شرف مثل هذا الرأى . وهنأنى الجميع ــ ولكنى فى الواقع لم يسعدنى هذا الرأى بقدر ما حيرتنى جملة Given the right opportunity (اذا أعطى الفرصة الصحيحة) أين سأجد هـذه الفرصة .. وأين أبحث عنها .. هل هى فى الدراسة مع الآخرين أم انها نضـال متصل مع النفس ــ مع المجتمع .. مع الروتين .. مع الجهـل ؟ فعلا لقد لاقيت كل هذا فيما بعد ، ولم أجد هذه الفرصة المواتية لأكون فنانا ذا أهمية عالمية كما قالها أوزنفانت ، فلقد ذقت العذاب من المجتمع ومن الناس ومن الدولة فى شخص موظفيها ، ومن الأصـدقاء ومن الأقارب ومن الجهل .. كل ذلك كان فى مصر عند عودتى اليها .

سافر أوزنفانت وزارنا هنرى مور لأول مرة بعد رحيل أوزنفانت بضع أسابيع ، وبدأ يتحدث معنا فى أول زيارة . وكان الجميع معجبين بأعماله .. لاشك فى ذلك .

لم يشأ هنرى مور فى أول زيارة للأكاديمية أن يمارس التدريس أو النقد ، ولكنـه فى الزيارات التالية وفى ممارسـة التدريس .. ويا للأسف .. لقد خيب الظن .. انه يمارس التدريس على طريقة

تشلسى .. يطلب من الدارس أن يوليه مقعده ثم يمسك بالقلم ويصحح الرسم بنفسه راسما خطوطا جديدة مسترشدا بالموديل . انه يحاول محاكاة الطبيعة ورسمها كما هى . بل هو يتعمد أن يقيس النسب بالقلم كما كنا نعمل فى تشلسى ليرشد الطالب الى هذه الطريقة السهلة فى قياس نسب الموديل . وليس هذا فقط فانه يمسك الاستيكة ويمحو ثم يرسم ، ويظل هكذا مع الطالب الى ما يقرب من العشر دقائق أو الربع ساعة ، ثم يقوم ويقول قولته المشهورة التى سفرتنى الى باريس .. والتى بعدها لم أحتمل أن أرى هذا الفنان العملاق يدرس الفن بهذه الطريقة . لقد قال بالحرف الواحد : « ان على الدارس أن يتعلم الصنعة التى تمكنه من نقل الطبيعة كما هى ، ثم بعد أن يتم له ذلك وينتهى من دراسته ، فليحاول أن يكون هنرى مور آخر » .

كان هذا الكلام خطيرا من فنان كبير مثل هنرى مور . فان هذا الكلام مضاد على خط مستقيم لما كان يقوله وينادى به الأستاذ أوزنفانت : « لا تأخذ الطبيعة من الطبيعة وتضعها على الكنفاش أو الورق كما تراها عينك ــ فهذا ليس بفن ــ ولكن عليك بان تحتضن الطبيعة فى داخل كيانك ثم تضيف اليها هذا الكيان بتجاربه وثقافته ، ثم تخرج الطبيعة من داخلك معادلا فنيا « للطبيعة + الفنان » تضع هذا المعادل على الكنفاش .. هذا هو الفن أما غير ذلك فهو مهارة .. والمهارة وحدها لا تخلق فنا . وينبغى للفنان أو الدارس للفن أن يعى تماما أن كل ما يخطه على اللوحة من بادىء الأمر أن يكون له دلالة الفن .. أما غير ذلك فيترك للآلة الفوتوغرافية » .

أسفت حقا لهنرى مور الفنان العظيم والمدرس الفاشل من وجهة نظرى على الأقل . لقد أحببت هنرى مور فنانا وشخصية رائعة ومحدثا لبقا ، ولكن مهنة التدريس كما مارسها هو فى تشلسى وهى

محكومة دائما بالامتحان فى آخر الدراسة ، والامتحان عبارة عن امتحان للمهارات ليس الا . وكان هذا طابع مدارس وكليات الفنون ليس فى انجلترا وحدها ولكن فى جميع أنحاء العالم ، فان هذه المدارس والكليات تحتاج الى مقياس للنجاح - والمقياس الوحيد الذى يمكن الاعتماد والاتفاق عليه هو المهارات فى نقل الطبيعة بجانب بعض القيم البسيطة التى يسهل الاتفاق فى موضوعية عليها . ولكن اذا صار الأمر الى عملية تقييم للعمل من وجهة ما أودعه الدارس فيه من قيم جمالية وقيم بلاستيكية ومعنويات - انهار المقياس تماما ، لأن هذا المقياس صعب يحتاج الى ثقافة واسعة .. ثقافة عالية قد ألمت بنواح عديدة وبخبرات طويلة فى جميع النواحى والمدارس الفنية . ان الاتفاق على سلم للقيم Schale of Values موحد صعب للغاية ، بل قلما يوجد ، الا اذا ارتفعت الثقافة الى شمول كبير بين القائمين على عملية « التقييم » . وهذه واحدة مما عانينا ومازلنا نعانى منه فى مصر الآن - التقييم .

وفى هذه اللحظة وأنا فى أسف لخيبة أملى هذه فى هنرى مور النحات العظيم . خيبة أملى فيه كمدرس .

جاءنى الرد من باريس .. ردا مكتوبا بالانجليزية على خطابى الذى أرسلته بالانجليزية .. وكان الرد قد تأخر لسفر فرناند ليجيه الى أمريكا لعمل لوحتين جداريتين لأحد أصحاب الملايين الأمريكيين وقد حول خطابى الى المشرفة على أكاديميته الذى أطلق عليها اسم :
«Academie de l'art contemporain»
« أكاديمية الفن المعاصر » وجاءنى الرد مرحبا بحضورى الى الأكاديمية والالتحاق بها ، وأنهم أيضا قد اهتموا بطلبى ايجاد مكان « بنسيون » قريب من الأكاديمية لاقامتى ، وأنهم فعلا وجدوا هذا المكان وهو

لا يبعد سوى بضع خطوات عن الأكاديمية .. وأعطونى عنوان الأكاديمية فى باريس

Paris 14em XIV 6 Square Henri de Lourmel Denfert Rocheraus

وقد فرحت بوصول هذا الرد وبدأت أعد نفسى للرحيل الى باريس . ولم يمض أسبوع واحد الا وكنت قد رتبت حاجياتى ورسومى واستغنيت عن كل ما ثقل حمله وحجزت لى مكانا فى القطار والعبارة حتى باريس .

لم يودعنى على القطار فى لندن أحد سوى سعد الخادم . لقد ذهبت الى حامد سعيد فى سكنه وكان عنده بعض الأصدقاء الفضلاء ممن أتوا الى لندن للدراسة ، وكنت قد عملت معهم صداقات . ذهبت لأقول له انى ذاهب ، فقال لى ببساطة مع السلامة . وقد قام الأصدقاء كلهم وقالوا لابد من الذهاب لتوديع راتب حتى محطة القطار ، ولكن حامد سعيد منعهم ، وألحوا ومنعهم للمرة الثانية قائلا ان راتب يعرف طريقه للمحطة وليس محتاجا لمن يودعه . ولكن سعد أتى لتوديعى . ركبت القطار وأنا أفكر فيما فعله حامد سعيد من منع الأصدقاء عن الذهاب الى المحطة لتوديعى .

اننى لم أتوقع ان أحدا من هؤلاء الأصدقاء سيفكر فى توديعى ، بل انى لم أكن اهتم على الاطلاق لمثل ذلك ، فانى راحل الى باريس وكلى حماس وشوق اليها وكلى حماس وشوق لفرناند ليجيه .. فقد كنت أحب فنه .

سأكون وحيدا فى باريس بغير أصدقاء أو معارف .. بغير لغة .. غير تلك الكلمات التى مازالت عالقة فى ذهنى منذ المدرسة الثانوية . ولكن تفكيرى كان يعود دائما الى حامد سعيد . لقد كان صديقا مخلصا حقا فى كل السنين التى أمضيناها معا فى لندن . لقد كان صديقا وزميلا فى الدراسة وكان أوزنفانت يجمع بين الاثنين الذين

أتيا من بلاد الفراعنة فى نقده وتقريظه • لماذا لم يقل كلمة واحدة لطيفة يودعنى بها بعد الصداقة التى عشناها معا • لم أجد لهذا التساؤل جوابا •• هل أنا أتيت شيئا معيبا فى حقه ، هل أتيت شيئا يخالف الصلة الطيبة التى كانت بيننا •• هل أغضبته فى شىء ؟ لم أستطع أن أجد جوابا على هذا أتعلل به ـ استساغة لتصرفه • انه لم يفعل شيئا •• وياليته قد فعل شيئا •• لم أجد شيئا ذا بال •• سوى •• أعنى ربما يكون هذا سببا •• كانت لنا زميلة تقاربنى فى السن ألمانية تعيش فى المنفى فى سويسرا حيث طرد هتلر أباها أو أن أباها هرب من بطش هتلر •• مثقفة •• ذكية طيبة تعرف الفرنسية وتنطق الانجليزية بلكنة ألمانية • لم تكن جميلة ولكن كانت لها جاذبية فى ذكائها و « خفة دمها » ، وكانت تحب الموسيقى حبا جما ، وكنت أنا كذلك • وكثيرا ما كنا نذهب سويا لسماع « كونسرت » نعرف مقدما برنامجه • وفى مرة كنا عند حامد سعيد فى حجرته وكانت الشمس فى العصر ساطعة تدفىء الجو ـ وكنا قد اشترينا تذكرتين مقدما « لكونسرت » كان مخصصا Mass in B. Mins لباخ ـ وكنا بطبيعة الحال نصعد الى أعلى التياترو على حسب ميزانيتنا ، وبدأنا نستعد للخروج ـ لكى نلبس « ما على الحبل » استعدادا للقاء مع « باخ » • وقد طلب منا حامد سعيد بعد أن عرف وجهتنا عدم الذهاب الى الكونسرت والمكوث معه فأصررنا على الذهاب ، ولم يستطع منعنا بالحاحه أو باغرائنا بأشياء كثيرة مثل قراءة كذا وكذا على حسب عادته فى الاغراء • تذكرت هذه الحادثة وأنا فى القطار الى نيوهافن ، وتذكرت أننى لمحت استياء يخفيه من اصرارنا • وبعدها بأيام التقيت به فوجدت منه فتورا لم أعره اهتماما فى ذلك الوقت ، خصوصا وأنا كنت فى حماسى للسفر الى باريس وقد قلت لقاءاتنا بطبيعة الحال • ولقد كنت ألمح على وجه حامد عبوسا لا يبرح ملامحه • لقد كان يمر بأزمة فكرية

ونفسية بغير شك ، هكذا كنت أعلل حالته • مرت بذهنى كل هــذه الأحداث • ولكن اقتراب القطار من المحطة النهائية قطع على حبل تفكيرى وبدأت استعد للنزول مع حاجياتى • وعلى « العبارة » الى ديب نسيت كل شيء عن المواقف التى آلمتنى من الأصــدقاء ، ولم يبق فى نفسى الا الحب والتقدير لهم وأن حسناتهم كانت من الكثرة بحيث تمحو أى عدد من السيئات • عبرنا المــانش وكان العبور هينا نوعا ما عن المرات السابقة • ومن ديب الى القطار الى باريس وفى الجمرك كان كل شيء سهلا بعد أن علموا اننى رسام •

على أرض فرنسا تغير كل شيء •• أولا اللغة •• فبالطبع لم أكن أسمع سوى الفرنسية •• واختلفت المناظر ، واختلف الناس •• هم يتكلمون بالفم واليد معا ، ذلك الذى لا يحدث فى انجلترا •• هم يتحركون ويجادلون فى السياسة وفى كل شيء • وبصوت عال حتى الصخب • يدافعون عن آرائهم باندفــاع وانفعال ــ ليس لهم صبر الانجليز وهدوءهم فى المناقشــة • استمتعت كثيرا طوال رحلة القطار الى باريس بمراقبــة المناظر ثم الناس ، ألتقط من أحاديثهم بضــع كلمات وأفهم من اشاراتهم باقى الحديث • وكانت أحاديثهم دائمــا حية ساخنة •

وصل القطار الى باريس •• وكان الوقت فجرا •• وقد بدا نور النهار أو كاد •• نزلت من القطار وأودعت حقــائبى فى أمانات المحطة •• ولكننى لم أترك رسومى فقد حملتها معى •

خرجت من المحطة ومعى عنوان أكاديمية (ليجيه) ولكننى لا أعرف كيف أصل لها ؛ بل لا أعرف كيف أسأل عنها • ولم أعرف فى أى اتجاه أسير ــ أهى قريبة من المحطة •• ؟ •• ولكننى تصرفت سريعــا فقد كان العنوان مكتوبا عندى فى نوتة فناديت على تاكسى وأخرجت له العنوان ، وجعلته يقرأ العنوان ، ثم ابتسم وسمعت منه كلمة We

أما الباقي فلم أفهم منه شيئا . وأوصلني فعلا الى العنوان ، وقرأت رقم البناية واسم Square كما كان مكتوبا ، وأعطيته ما طلبه وزيادة ثم شكرته وانصرف . ولكن الساعة الآن كانت مبكرة جدا .. الخامسة .. فكيف أجرؤ على الصعود الى الأكاديمية وهل من المعقول أن يكون بها انسان مستيقظ .. وهل من الذوق أن أدق الباب في هذه الساعة ؟ ووقفت في حيرة .. لا أعرف كيف أتصرف ، ولكنني حملت رسومي بثقلها ومشيت بلا تفكير وبلا غرض معين . كل ما أردته هو أن أمشي لاستكشف المنطقة ــ وربما وجدت مكانا لأشرب فيه فنجانا من القهوة وأستريح فيه حتى « يطلع النهار » .

ولدهشتي وجدت أكثر من محل والنور الكهربائي مضاء فيه ، وأناسا كثيرين يشربون القهوة ، وبعضهم يتناول بعض « كروسان » و « الشوسون » وغيرها .

ودخلت أحد هذه المحلات وطلبت قهوة . وسألني « الجارسون » أي نوع من القهوة ، وفهمت من كلماته كلمتين « لبن » ، « كونياك » فقلت له فورا «لبن» ، فذهب ليحضر لي ما طلبت . وقد رأيت « الكرواسان » الساخن على البار فذهبت وأشرت الى الجارسون « بالاشارة فقط » اثنين من فضلك بالفرنسية . فقد كنت أعرف هذه الكلمات .. « من المدرسة طبعا » !

شربت القهوة وأكلت الكرواسان ودفعت الثمن ، وسارت العملية ببساطة لم أكن أتوقعها . فقد كنت أعرف كلمات كثيرة من الفرنسية ولكنى أخاف أن أنطقها فيأتي النطق مخالفا للصحيح ، فيسخر مني السامع . ولم أفكر أبدا أنني أجنبي ولست مطالبا أن يكون نطقي سليما أو غير سليم . ولكن كان هذا طبعي ــ فقد كنت حساسا لمثل هذه الأشياء .

تلكأت في المقهى ولكنى اضطررت لمبارحتها حيث كنت أشاهد

الناس تدخل وتلتهم بعض المأكولات فى سرعة . وتشرب القهوة أيضا فى سرعة ، وينطلقون فورا خارج القهوة الى أعمالهم . كان الوقت لا يزال مبكرا ، ولكننى خرجت وحملى معلق فى كتفى — أقصد رسومى — وبدأت رحلة على الأقدام حول مكان المدرسة استمرت أكثر من ساعة . وكنت أحدد لنفسى علامة فى الطريق لكى ترشدنى لطريقى فى العودة الى مكان المدرسة . واقتربت الساعة من السابعة صباحا فقررت الذهاب الى المدرسة وذهبت الى البناية رقم ٦ « سكوير هنرى دولوميل » ودخلت الى البهو .. فسمعت صوتا .. صوت امرأة يقول «Oui monsier» نعم يا سيدى . فتوجهت نحو الصوت ، فوجدت سيدة تجلس وراء مكتب فوقه يافطة صغيرة مكتوب عليها concièrge أى بواب . فلم أنطق بحرف ، وأخرجت العنوان من جيبى وأريتها اياه — ونطقت هى بكلمة واحدة Six السادس .. وبدأت الصعود على السلم . لم أفكر فى الأسانسير ، بل انى لم أره بالمرة .. من لخمتى .. وصعدت دورا بعد دور وأنا أعد الأدوار واحد بعد الآخر ، حتى وصلت الى السادس ووجدت يافطة تشير الى المدرسة « أكاديمية الفن المعاصر » .

دققت الجرس وأنا لا أتوقع وجود أحد فى المدرسة فى هذه الساعة . وكانت مفاجأة لى عندما فتح الباب وظهرت فتاة فى العشرين من عمرها على الأكثر .. جمالها « صاعق » .. فى هذا الوقت المبكر فى أول يوم لى فى باريس .. قوام ممشوق ولكنه ممتلىء بحساب .. صدر أسطورى .. بل هو صدر من صدور « تشيانو » العظيم .. لقد تسمرت تماما أمام هذا المنظر غير المتوقع أبدا .. ولم أسمع ما قالته فى أول الأمر .. فكررته — ففهمت أنها تسألنى عن حاجتى . وكانت حاجتى ينم عليها كل جزء فى وجهى .. ولكننى تمالكت تماما ونطقت باسم المدرسة .. فأجابت بنعم ولكن المدرسة لا تفتح الا فى الرابعة بعد الظهر . لقد قرأت فى وجهى التعب من الحمل الثقيل الذى

كنت أحمله على كتفي فاشفقت على ، واشارت بان أضعه داخل الباب وأن أحضر بعد الظهر لمقابلة مدام « بكوبيه » . وكان هـذا الاسم حاضرا فى ذاكرتى حيث أن الخطاب الذى وصلنى من المدرسة وأنا فى لندن وكان مكتوبا بالانجليزية كان موقعا « بوكيبه » . ففعلت ذلك ووضعت رسومى بالداخل ـ وكنت خائفا من أن أفقدها لأى سبب كان ـ على كل حال فقد شكرتها وتزلت مسرعا على السلالم أيضا . خرجت من البناية الى الميدان Square ولم أعرف الى أين أذهب . لم أكن أعرف أى انسان فى باريس سوى صديق لحامد سعيد هو على ما أذكر « محسن الخشاب » أو أحد « الخشابين » غير (يحيى الخشاب) الذى كنت قد قابلته فى لندن مع حرمه سهير القلماوى . ولكن أين أجد هـذا العنوان .. وهو عنوان لوكاندة صغيرة .. بل كان رقم تليفون ليس الا ، وهو طالب يدرس فى كليه ما . وكيف أجد تليفونا الآن ، وكيف أجد العملة الصغيرة المسدسة الشكل التى كانوا يستعملونها فى ذلك الحين والتى لم أكن أعرفها فى تلك اللحظة .. وهل سأجد هـذا الشخص فى هـذا العنوان ؟ .. وكيف سيكون رده على فى مثل هذه الساعة المبكرة .. وماذا يمكن عمله لى وهو لا يعرفنى بالمرة . هل أقول له ان صديقه حامد سعيد قد أعطانى عنوانه هذا . وماذا أريد منه أنا الآن فى هذه اللحظة ؟ .. دارت هذه الأفكار فى رأسى ، وكانت النتيجة أننى أسقطت هـذا الحل من حسابى . وفكرت فى عنوان السفارة المصرية . ولكننى لم أكن أعرفه . وفكرت فى أن استعمل انجليزيتى بدلا من محـاولة التحدث بالفرنسية ، فمن الجائز جدا أن يكون من أحدثه على معرفة بها وفعلا بدأت التجربة .. وكنت أتوجه بالسؤال الى بعض المـارة ـ الذى كنت أتوسم فيهم معرفة الانجليزية . كيف كان هذا « التوسم » .. لا أعرف ـ وربما كانت مجرد مصادفة ـ حيث أننى كنت كلما اسأل انسانا مارا بالطريق عن Egyptian Embasy السـفارة المصريـة ، كان يجيبنى

بانجليزية ركيكة النطق ولكنها مفهومة تماما . وبعد السؤال أكثر من مرة وبعد أن دلني أكثر من انسان على الطريق — وقد فضلت أن أسير على قدمي بعد أن تخلصت من حمل « رسومى » لكى يمر الوقت أولا ، وثانيا لأنى كنت أريد أن اتفرج على شوارع باريس فى هذه الساعة المبكرة من الصباح ، وكل يسير فى سرعة الى عمله ، لا تلكؤ ولا ابطاء .. ولم يكن يتلكأ فى تلك اللحظة فى باريس كلها على ما أظن سواى وحدى .. والعجيب أننى بعد أكثر من سؤال وبعد أكثر من انسان دلنى على الطريق الى السفارة المصرية وبالانجليزية التى أفهمها جيدا وجدت نفسى فى النهاية وبعد أكثر من ساعتين من المشى قريبا جدا من مكان أكاديمية الفن المعاصر . كيف حدث هذا .. لا أعرف .. هل كنت أسأل عن مكان الأكاديمية ، وهل لاسم الأكاديمية أية صلة باسم السفارة المصرية .. لم أستطع الا أن أضحك مما حدث .

هناك شيء ما لم أتمكن من معرفته تسبب فى هذا الخطأ ولكن هذا الشيء من المؤكد لم أتسبب فيه أنا فقد كان سؤالى واضحا ، وكلمة السفارة المصرية بالانجليزية تقارب فى كلماتها السفارة المصرية بالفرنسية .. فلا وجه اذن للخطأ فى فهم سؤالى . على كل حال قنعت بهذه النتيجة ولم أحاول مرة أخرى السؤال عن السفارة المصرية . واكتفيت بما نلته من تعب السير على الأقدام طوال هذه المدة . لقد كاد النهار أن ينتصف وبدأت أحس بأن معدتى تطالبنى بالطعام — فقد هضمت ما أكلته فى الصباح . وبحثت فى الشوارع القريبة عن مطعم صغير أتناول فيه وجبة ساخنة . وفعلا وجدت مطعما صغيرا به بضع مناضد مصطفه — ولم يكن به الا شخصين اثنين يتناولان الطعام . فدخلت وأخذت مكانى على منضدة منزوية ، ووجدت أمامى قائمة بأصناف الطعام . وجاءنى الجرسون فوضعت اصبعى على أول صنف فى رأس القائمة ، وجاءنى به الجرسون

بعد قليـل . وكان حساء ساخنا مذاقه طيب . ووقف الجرسـون فى انتظار طلباتى فوضعت على صنف فى السطر الثالث أو الرابع على ما أذكر . وابتسم الجرسون وجاءنى بالطلب . ويا لدهشتى فقد كان حساء (شوربة) أيضـا .. ولكن من نوع آخر ففهمت . وبدأت افتش هذه المرة عن كلمات أعرف معناها فى القائمة فوجدت فى النهاية كلمة « سكالوب » فوضعت اصبعى على السطر وابتسم الجارسون وأحضر لى اسكالوبا رائعا محلى بقطع من البطاطس المحمرة ، فأكلته بشهية ، واكتفيت بما أكلت . وجاءنى الجرسون فطلبت منه الحساب وكنت أعرف الكلمات تماما بفرنسية سليمة ، فجاءنى بالحساب فدفعته وانصرفت .. الى أين ؟ .. لا أعرف ... سأمشى .. وأظل أمشى حتى الساعة الرابعة . وبعد ساعة من المشى وجدت نفسى عاجزا عن المواصلة ، فقد تعبت قدماى تماما . فدخلت الى مقهى وطلبت قهوة باللبن وجلست وقتا طويلا وأنـا أتمهل فى شرب القهوة ، وقد حسبت على أن أتوجه الى الأكاديميـة فورا وقد بلغت الساعة الثالثـة بعد الظهر . وفعـلا ذهبت الى البناية رقم ٦ ، وفى هـذه المرة وجـدت الأسانسير وصعدت به الى الدور السادس ، وضغطت على الجرس وكنت أتوقع بل أرجو أن أجد تلك الفتاة التى فتحت لى الباب فى المرة الأولى فى الصباح الباكر .

ولكن للأسف .. فتح الباب وبرزت منه سيدة فى الأربعين من عمرها ، لا هى جميلة ولا هى قبيحة ، ولكنهـا هشت وابتسمت لى وقالت : انك أنت الطالب الانجليزى الجديد .. قالتها بالفرنسية .. فقلت لها بالانجليزية وقد فهمت كلامها .. فعلا أنـا الطالب الجديد ولكنى لست انجليزيا بل مصريا خالصـا . ولكن ظل هـذا الظن مسيطرا على الجميـع مصرين على تلقيبى بالانجليزى ، حتى فرناند ليجيه نفسه كان يخاطبنى على أننى انجليزى . على كل حال استقبلتنى بروح طيبة وفى انجليزية ركيكة للغاية أفهمتنى بأنها حجزت لى مكانا

فى بنسيون قريب من المدرسة ، وأنها ستذهب معى فوراً بعد أن تسجل اسمى فى الأكاديمية ، وأدفع المصاريف المطلوبة مقابل الدراسة • قد حدث كل هــذا فى وقت قصير ــ وقد أعطتنى « كارنيها » ، عبارة عن رقعة من الورق المقوى عليها اسمى وعنوان أكاديمية ليجيه ــ باسمى وبصفتى طالبا أدرس فى الأكاديمية ، وأن هــذا الكارنيه يعطينى الحق فى دخول جميع المتاحف الفرنسية مجانا •

وود اصطحبتنى لكى أرى مكان الدراسة « الأتيليه »• فقد كان الأتيليه ملحقا بشقة سكنية تسكنها مدام بوكييه مديرة الأكاديميــة وزوجها الفنان « بوكييه » ــ والمديرة من أصل روسى أبيض كمــا فهمت منها ، تزوجت بالفرنسى بوكييه ــ وقالت انه فنان مصــور • ولو أنى لم أر له أى عمل أو انتاج طوال دراستى فى الأكاديميــة • اصطحبتنى مدام بوكييه كمــا قلت حيث المرســم ، وهو قاعة ضيقة وطويلة تنزل لها ببضع درجات خشبية ، والأرضية باركيه والاضاءة لا بأس بها ، مدفــأة كهربائية • الجو مغاير لأكاديمية أوزنفانت فى لندن • فمن السعة الكبيرة الى الأرضية الأسمنتية الى الموقد الكبير الذى يوقد بالفحم الى السقف الجمالون العالى حيث يسقط الضوء المخفف بقماش خفيف أبيض يغطى الزجاج •• على كل حال ان المكان نظيف والاضاءة فيه لا بأس بها والمهم هو الأستاذ فرناند ليجيه •

وقالت لى مدام بوكييه ان الدراســة فى الأكاديميــة مسائيــة فقط ــ أى تبدأ الساعة الرابعة بعد الظهر • وللأسف الشديد فالأستاذ ليجيه فى أمريكا وكاد يفرغ من عمل عملين جداريين لأحــد أغنيــاء أمريكا ، ولن تمر بضعة أسابيع حتى يعود الأستاذ للاشراف والتوجيه للطلبة • على كل حال هى نفسها تقوم مقامه ــ فهى فنانة لها مكانتها (كما تقول هى) وقد درست تحت اشراف ليجيه ســنوات طويلة وهى ، تقوم أثناء غيابه بتوجيه الطلبة وتقديم النقد والارشاد • وقالت

لى انها ترحب بأحد تلامذة Ozenfant فهى تعرفه جيدا وأنها ترجو أن أريها بعض الدراسات التى قمت بها تحت اشراف أوزنفانت فأكدت لها انتى سأعرض دراساتى على الأستاذ ليجيه لأعرف رأيه فيها ، وكذا أرحب بأن أعرف رأيها هى أيضا .

ثم سألتها عن مكان البنسيون الذى حجزت لى فيه غرفة طبقا لخطابها فتركتنى بعضا من الوقت حتى ارتدت ملابسها واصطحبتنى الى البنسيون الذى لا يبعد أكثر من بضع خطوات عن بناية الأكاديمية وصعدنا الى الدور الرابع ، واستقبلتنا سيدة فى الخمسين من عمرها رحبت بى ولكنها أسفت لأنها لا يمكنها اعطائى غرفة فى الحال ، حيث أن جميع الغرف مشغولة ، ولكنها كانت تعرف ميعاد وصولى ولذا فقد حجزت لى غرفة فى فندق قريب وذلك لمدة أسبوع أو أسبوعين على أكثر تقدير ، حتى تخلو غرفة لى . وكان تصرفا معقولا وعاقلا . ونادت على زوجها وهو كهل فى الستين من عمره اصطحبنى الى الفندق . وأخذت مفتاح غرفتى وأفهمنى أننى سأتناول طعامى عندهم فى البنسيون . وذكرت له « بصعوبة طبعا » ببضع كلمات أن حقائبى مازالت فى المحطة ، وأنى قد وصلت الى باريس فى ساعة مبكرة جدا وأنى أرغب فى احضارها ، فتطوع الرجل وذهب معى . وأحضرنا الحقائب وتركتها فى الفندق ، ثم اصطحبنى الى البنسيون لتناول العشاء . وقبل تناول العشاء تفاهمنا على الأجر ودفعت أجر شهر كامل — وكان المبلغ كله بالعملة المصرية — لا يتعدى الستة جنيهات ١٠٠٠٠ر١٠٠٠ ألف فرنك وكان الفرنك فى ذلك الحين (١٩٣٩) يعادل ٦ مليمات أو أكثر قليلا . وكان هذا الأجر يشمل كل شىء من سكن وجميع الوجبات والحمام ... الخ .. وكان الأجر مناسبا جدا لميزانيتى ويقل كثيرا عنه فى لندن . وأجلسنى الرجل فى غرفة جلوس مجاورة لغرفة الطعام وبدأ فى محاولة هادئة للتحدث معى وهو يتعمد أن يبطىء فى كلامه حتى أفهم ما يقول . وكنت أفهم كل

ما يقول ولكنني لا أستطيع الرد عليه بنفس السهولة • وكنت أسخط في هذه اللحظات على طريقة تعلمنا للغات في المدارس المصرية • لقد درست اللغـة الفرنسية ٥ سـنوات •• بل ٦ سنوات فهنـاك سنة اعادة •• سنة البكالوريا ، ومع ذلك فانى أجد نفسى الآن عاجزا عن النطق ببضـع جمل قصـيرة تعبر عما أريد أن أقوله ـ بغير تردد أو تلعثم ، وبغير الترجمـة من العربية الى الفرنسية قبل النطق بها • ولكن الرجـل كان يتقبل منى التردد والخطـأ ، ويعيد الكلام مرة ومرات ـ وقد أفادنى هذا كثيرا فيما تلا من أيام وشهور قادمة •

بدأت فى اليوم التالى الذهاب الى الأكاديمية وكانت الدراسـة بعد الظهر كما سبق ان قلت • وكان الدارسون بالأكاديمية لايزيدون على خمسة أو ستة فى تلك الآونة ، كلهم من الجنس اللطيف ما عدا رجل واحد وأنـا • لم يكن هناك موديل حى • كل دارس يرسم ما يشاء باجتهاده الشخصى ـ وفى الغالب يكون الرسم من الخيال والكل تقريبا مشغولون بعمل لوحات كاملة صالحة للعرض فى معظم الأحيان•

كنت فى لندن ومع أوزنفانت أجد الدراسـة تستمر أسـابيع وشهورا حتى أتم ويتم غيرى من الزملاء دراسـة بسيطة ولكنهـا جادة • وهنا فى باريس وفى أكاديمية « فرناند ليجيه » ـ الكل يرسم لوحات كاملة قابلة للعرض فى بضعة أيام • كان هـذا غريبا وجديدا على • لم أستطع المقارنة بين ما كان يتم من عمل فى أكاديمية ليجيه ، ومدرسة تشلسى مثلا فهناك فارق كبير • وأقول الحق فان ما كان يتم تحت نظرى فى باريس شىء له قيمـة بلاشك ، على الأقل كان الناظر يسر لبعض التوافقات فى الألوان ، والجرأة فى اختيارها ، كما كان هناك فكر وارادة فى التكوين •

وقد ترددت كثيرا •• كيف أبدأ •• والأستاذ ليجيه لايزال فى أمريكا • كنت فى المدة الأخيرة اهتم كثيرا بسيزان بتفاحاته التى تتفجر

بأحاسيس عجيبة • لم أكن أفهم كنهها فى تلك اللحظة ، ولكن تكويناته كانت تبعث فى أحساسا « بالبطولة » Heroism وكنت ألاحظ لمساته باللون •• كل لمسة فى موضعها تنفجر من تحتها حياة •• أنا الذى فشلت فى لندن فى أول عمل لى بالألوان الزيتية — جذب نظرى هذا المصور الرائع سيزان ، كى أتعلم منه شيئا عن الألوان البناءة للشكل • ولكن سيزان صعب •• هو أعظم مصور فهم وظيفة اللون كاملة وبنى منها فنه العظيم • هـذا ما كنت أراه وأعتقده ومازلت كذلك حتى هـذه اللحظة •

جذبنى تفاح سيزان •• وشجعنى غياب ليجيه لكى أبدأ التجربة الثانية لى للتصوير الزيتى •

اشتريت سلة صغيرة تشبه سلات سيزان التى رسمها كثيرا • واشتريت تفاحا كثيرا ، ورتبت « طبيعة صامتة » من السلة وبها التفاح ، وقطعة قماش تناثرت عليها بعض التفاحات • شىء قريب مما رأيته فى لوحات سيزان • وسألت مدام بوكييه أين أجد الكنفاش لاشترى ما أحتاجه ، فتطوع مسيو بوكييه وذهب معى واشتريت « الكنفاش والشاسيه » وبعض الألوان التى احتاجها • وقام هو بشد الكانفاش بنفسه على الشاسيه • وبدأت بتنفيذ ما تعلمته وما سمعته من أوزنفانت فى هذا المجال • دراسة بالقلم الرصاص على الورق للتحضير الجاد لما سأقوم بتنفيذه بالألوان • ثم نقله على الكنفاش بعد نقله على الورق الشفاف وصبغ ظهره بلون يمكن أن يضيع مع التلوين النهائى •

قمت بهذه العملية بدقة متناهية •• تلميذ مجتهد ينفذ تعليمات أستاذه بعد أن حفظها عن ظهر قلب •

كانت السلة ذات ذراع كبيرة من الخيرزان المجدول فى نظام لطيف ، وقد شدت انتباهى هـذه الذراع • ونسيت التفاح فى تلك

اللحظة ، وتركز اهتمامي كله على هـذه السلة ونسيجها الممتع . كان كل شيء مرسوما وما على الا أن أضع الألوان ولكن ، حدث شيء رهيب .. لم ألحظه الا بعد فترة انقضت على انهماكي في العمل .

لقد بدأت في استعمال اللون .. ووجدت الفرشاة باللون تنزلق بخفة على ما رسمته من الخيزران المجدول . لا تهتم بالخط المرسوم بل تخلق في انزلاقها وفي سرعتها ذلك النظام البديع للخيزران المجدول، وكذلك في النسيج الجميل للسلة . اندمجت تماما في العمل وأنـا سعيد لأرى السلة تبرز تحت ضربات الفرشاة المملوءة باللون وهي تعرف طريقها تماما وقد محت الخطوط المرسومة وسارت في خط جديد .. هي التي ترسمه لنفسها ــ ولم يستطع أى خط مما رسمته مسبقا أن يحد سيرها ــ فهي تعمل والسـلة تظهر رويدا .. رويدا .. قوية رائعة . وتوقفت عن العمل .. بعد أكثر من ساعة كاملة وأنـا منهمك تماما .. وتركت الفرشـاة من يدى وكذا « الباليت » .. وبدأت أتأمل ما رسمت .. وفوجئت أن بعضا من زملائى الدارسـين يقفون خلفى وهم يظهرون اعجابهم الشديد بالمهارة التى أظهرتها فى رسـم هذه السلة بتلك السهولة وانسياب الفرشاة باللون بسرعة ودقة والسلة تظهر بهذه الروعة .

هكذا عبروا لى عن اعجابهم وانهم يعتقدون اننى تعلمت هـذه المهارة عند أوزنفانت وأننى مصـور زيتى ماهر ... ! ... سبحان الله ! .. ان هـذه كانت تجربتى الثانية ــ بعد التجربة الأولى مع أوزنفانت ــ وقد منيت بالفشل الذريع مما جعلنى أعدل تماما عن أية محاولة أخرى للتصـوير بالألوان الزيتية . كيف يمكن أن أنجح .. وهـل هـذا النجـاح فعلا .. لقـد تخليت تماما عن تعليمـات أوزنفانت عند أول لمسـة للفرشـاة على الكنفـاش . هـذا التحضير الطويل بالرسـم والنقل بالشفاف ــ والعنايـة الفائقـة بعمليـة النقل .. كل هـذا قد محتـه الفرشـاة المنسـابة فى حريـة على

الكنفاش .. كيف يمكنني تحطيم تعليمات أوزنفانت وأنجح .. هذه مسألة ينبغي التفكير فيها .. ينبغي امتحان كل شيء .

ولكني كنت متيقنا تماما بأن أوزنفانت كان على حق وأن تعليماته صحيحة . ولكن ما حدث الآن .. قد أعجبني .. والنتيجة كانت محسوسة حازت اعجاب الزملاء كما حازت اعجابي .. هل أنا مخطيء ؟ .. أم أن هناك أكثر من طريق Approach « وأن جميع الطرق تذهب الى روما » — كما يقولون .

أوقفت العمل واكتفيت بهذا النجاح الذي هنأني عليه الزملاء، وكذا مدام بوكييه ومسيو بوكييه .

كانت احدى الطالبات أميريكية .. تتكلم الفرنسية بجانب الانجليزية بالطبع ، فسرعان ما تعرفت عليها حيث كنت أستعين بمعرفتها للفرنسية للتعبير عما كنت لا أستطيع التعبير عنه بالفرنسية . لم تكن مس « جلوجو » — وكان هذا اسمها — تمت بصلة للجمال ، ولكن كان في ملامحها سهولة وطيبة — عرفت فيما بعد أنها يهودية تدرس الفن منذ عامين مع فرناند ليجيه في باريس ، وأنها ستعود آخر هذا العام الى أمريكا . توطدت صلتي بجلوجو عن طريق اللغة أولا . وثانيا لاعجابها الشديد بمقدرتي في « تصوير السلة » . وقد دعوتها الى غرفتي في الفندق لترى أعمالي بالقلم الرصاص عند أوزنفانت في لندن . وقد زاد اعجابها بما رأت .. وقالت انه بالرغم من اعجابها بما رأت من مهارتي في رسم « السلة » الا أنها ترى أن دراساتي بالقلم عند أوزنفانت أكثر عمقا وجدية ، وتنم عن فهم ودراية بالقيم التشكيلية الحقة في غير صخب أو استعراض .

فاجأتني جلوجو بهذا الرأى السليم ، وزاد اعجابي بتقييمها الرصين — وقد توطدت صداقتنا فيما تلا من أيام وأحداث .

بدأت فى الأيام التالية السير قدما فى محاولتى هـذه فى التصوير الزيتى ـ وكان على أن أبدأ تجربتى مع « التفـاح » التفـاح الذى أغرانى به « سيزان » العظيم .. ولم تزل مشاهدتى لتفاحة فى لوحاته حاضرة فى مخيلتى ـ وكنت أتمنى حظـا مع التفـاح مثل ما نلته مع « السلة » . وبدأت التجربة مع التفاحة الأولى .. وبسرعة مع الثانية .. ولكن كان ما شهدت من تفاح سيزان مسيطرا على ذهنى .. لم أستطع الاستمرار .. توقفت تماما وشعرت بالفشل الذريع .

كيف جرؤت على هذه التجربة ؟ كيف أرسم تفاحا .. وتفـاح سيزان يدغدغ فكرى وحسى .. كل ما عملته .. أننى صبغت التفاح بالألوان ـ أهـذا هو سيزان ؟ .. بئس ما عملت .. اننى صبغت التفاح بالألوان .. لقد فشلت ثانية . اننى أخجل مما فعلت .. لقد نجحت تجربتى مع السلة لأننى كنت حرا تماما فى الطريقـة والفكر والمعالجة .. ضربت عرض الحائط بكل التعاليم التى حفظتها .. وقد نجحت .. ولكن تجربتى فشلت مع التفاح لأن سيزان كان يسيطر على فكرى وحسى ، وحاولت أن أسير على منواله .. وبكل بساطة فشلت.

وكانت هـذه التجربة « النصف فاشلة » هى الأخيرة لى فى التصوير الزيتى فى فرنسا . ولم أبدأ التجربة الثالثة الا فى مصر فى « المنيب » ، تلك القرية التى ولدت ونشأت فيها .

شعرت بتعب وارهاق .. مرضت ولزمت الفراش وانتابتنى حمى شديدة وقامت بالعناية بى من أول لحظة « جلوجو » الأمريكية . كنت أهذى من الحمى ولكنى كنت أشعر أنها بجانبى طوال الصباح ، ثم بعد مواعيد الأكاديميـة فى المساء . كانت عجيبـة تلك الزميلة « جلوجو » التى لم يكن قد انقضى على تعارفنا كزملاء فى المدرسـة سوى نيف وأسبوع . لم يكن بيننا أى شىء سوى علاقة صـداقة بريئة بدأت منذ فترة قريبة جدا ولكنهـا تطوعت فى اخلاص وصدق

للعناية بى فى مرضى وفى غير مرضى ، حتى أننى لم أستطع نسـيان هذه الفتاة الأمريكية اليهودية الخالية من الجمال الأنثوى الذى يجذب الرجال ، ولكن قلبها كان مليئا بالخير والحنان •

لقد مرت السنون ــ أربعون عاما الآن ــ وأنــا لم أنس هذه الفتاة وتلك الصداقة البريئة التى أقامتها هى بيننا بعطائها الدائم ــ ولم تفكر لحظــة واحدة فى الأخذ أو الجزاء • شكرا لك يا « جلوجو » مرة ثانية حيث أنت وحيثما كنت •

كان الرجل الكهل صاحب البنسيون يأتينى بما يلزمنى من غذاء يناســب مرضى كل يوم ، يحمله بنفسه ويسألنى اذا كنت فى حاجــة الى شيء •

شفيت من الحمى وانتقلت الى غرفتى فى البنسيون •• فقد جاء الرجل الكهل واصطحبنى اليها ــ وقد كانت حجرة متسعة مريحــة هادئة فى آخر الشقة بها مدفأة جيدة وبها كل الراحات •• وعدت الى الأكاديمية وبدأت العمل من جديد •• ولكن بالقلم الرصــاص هذه المرة •• فقد تركت أية رغبة فى العودة الى ألوان الزيت •

ولمــا لم يكن هناك « موديل » فكنت أرسم من ذاكرتى •• الانسان دائما •• والمرأة على وجه الخصــوص •• وبعد بضعة أيام جاءت مدام بوكييه بنبأ عودة الأستاذ ليجيه من أمريكا وأنه سيحضر الى الأكاديمية غدا بعد الظهر •

وفى الموعد حضر الأستاذ • وكانت الأكاديمية التى لم أر فيهــا فى الأيام التى مضت أكثر من ستة طلبة قد امتــلأت بما يقرب من الخمسة عشر طالبا وهو أقصى عدد تحتمله سعة القاعة المعدة لاستقبال الطلبــة •

حضر ليجيه •• رجل بسيط للغاية فى لباسه ، وتلك «الكاسكيت»

التي يضعها على رأسه مما يلبسه العمال . ربع القوام تغلب على قوامه السمنة وملامحه مريحة • لم يفكر فى أية أناقة فى لباسه ولم يفكر فى حركته ومشيته وقيامه وجلوسه • كان بسيطا فى كل شيء •• كل شيء فى فرناند ليجيه •• مظهره بالذات كان يختلف عنه عند أوزنفانت • كل شيء عند أوزنفانت كان محسوبا •• مظهره وحركاته ولباسه •• كنت أعقد مقارنة سريعة بين الاثنين فى الثواني الأولى التي رأيت فيها فرناند ليجيه •

أحببت ليجيه فى بساطته المتناهية •• قامت مدام بوكييه بتعريفه بالطلبة الجدد بعد أن سلم على القدامى بروح صداقة ومحبة ظاهرتين • وجاء دورى فعرفته بي على أني جئت من لندن من عند أوزنفانت الذى رشح لى أكاديميته فى باريس لتكملة تعليمي ؛ حيث سافر هو الى أمريكا • فهش فى وجهي وسلم على فى حرارة — ومنذ ذلك الحين وهو يناديني بالطالب الانجليزي • وبعد وقفة وتحية وكلام دعانا جميعا لشرب البيرة فى مقهى مجاور — وفعلا ذهبنا جميعا وشربنا البيرة على حسابه •

لم يحضر ليجيه الى الأكاديمية أسبوعا كاملا • ثم بدأ يحضر بانتظام يوما بعد يوم •• كان يمارس النقد لكل طالب على حدة ، وليس كما كان يمارسه أوزنفانت • وجاء دورى بعد أيام •• كنت أرسم رأس امرأة •• بالقلم الرصاص •• وكنت أستعين فى الرؤية برؤوس الزميلات كلما احتجت الى ذلك •• وقلما كنت أحتاج • جاءني ليجيه محييا باسما مرحبا بالانجليزي الذى جاء من لندن ، وطلب أن يرى بعض ما رسمته مع أوزنفانت فى لندن — وكنت أتوقع ذلك — بل كنت أرغب فى أن أعرف رأيه بالذات فى أعمالى مع أوزنفانت • فأحضرت بعض هذه الرسومات معى •• بل كنت آتى بها كل يوم متوقعا حضوره • وبدأت أريه واحدة بعد أخرى وقد

توقف عند دراسة ليد .. بد مطبقة الأصابع .. فى حجم اليد الطبيعية مكبرة أكثر من ستة أضعاف .. كانت دراسة واعية معمارية ، والنور فيها يلعب دورا متكاملا مع معمارية الشكل ـ وقد اقتبست كثيرا من شـكل التوقع فى التصميم . توقف ليجيه طويلا أمـام هـذه الدراسـة وقـال انها ممتازة ـ وأنه يشـعر بالحـرارة والدفء Chaleur تنبعث منها ـ وأنه أعجب بها للغاية ـ وقال انه متأكد من أننى سأصـل الى مستوى رفيع فى المستقبل . وشجعنى كلامه كثيرا .

وقد مر فى اليوم التالى ، وقد اعتاد فى كل مرة يأتى فيهـا الى الأكاديمية أن يبدى اهتمامه بى والتحدث الى وتوجيه بعض النصائح المفيدة فيما أعمله . وفعلا كانت ملاحظاته على العمل دائما مفيدة وفى الطريق الصحيح والى الأحسن دائما . وبعد مرور بضعة أسابيع دعانا (طلبة الأكاديمية) الى مرسمه لنرى عملا جديدا يقوم بتنفيذه . وهو يفضـل أن نراه فى مراحل تنفيذه وقبل أن يكتمل لكى نستفيد من متابعة الأستاذ فى طريقته لتنفيذ فكره على الكنفاش . وذهبنـا الى مرسم متواضـع .. لم يكن فيه حائط واحد يتسع لحجم العمل الذى يقوم بتنفيذه فقد كان العمل من نوع الجداريات الكبيرة ولكنه، ينفذ على كنفاش . فما كان من ليجيه الا أن فرش الكنفاش على أرض المرسم وانطلق يرسم ويضـع الألوان . ولـما لم يكن عنده من سعة فى المكان ليرى ما يعمله عن بعد كاف ، فكان يصعد الى المكان المرتفع الذى كان مخصصا للنوم أو الجلوس فى مثل هـذه المراسـم : « صندرة » ولها سلم خشبى .

كان يصعد الى الصندرة ليجد المسافة الكافية ليرى العمل الكبير ككل . وكان له حس تعبيرى رائع فى معالجته للأشياء البسيطة العادية التى نستعملها كل يوم . وقد أعجبنى كثيرا معالجته لبعض « سنون

الريشة » (ريشة الكتابة) .. سنون معدنية عادية .. نسج منها شعرا رائعا بحسه المترع بالشفافية الشعرية واللونية . الواقع أنني استفدت من فرناند ليجيه كفنان مصـــور ممتاز أكثر من استفادتي منه كمدرس أستاذ موجه . على كل حـال انني لم اســتمر في دراستي الا ما يقرب من ستة شهور حيث انتهت الفترة الدراسية وجاءت الاجازة الصيفية . وفي أغسطس ١٩٣٩ قامت الحرب العالمية الثانية . ولم أعد لأكاديمية فرناند ليجيه بعد ذلك أبدا .

الدراسة مع ليجيه كانت بعد الظهر دائما وقد اعطـاني هـذا التوقيت للدراسة الفرصة لزيارة المتاحف في الصباح وخصوصا وان « كارنيه » الأكاديمية كان يعطيني الحق في زيارة المتاحف مجانا كطالب ودارس للفن التشكيلي . وقد كرست معظم الصبحيات لزيارة اللوفر العظيم .. القســم المصري .. السومري .. تمثـال « النصر » ، ساموثراسي Victoire de samothrace « وتمثـال هـيرا أوف ساموث » Hera of Samoth **كان هـؤلاء هم أصـــدقائي** المقربون بالنسبة للنحت في اللوفر وعلى رأسهم تمثـال الكاتب المصري والتمثال الخشبي الصغير « توى » Toue من الفن المصري ورأس « جورا » من السومري ، ثم ما ذكرته من اليوناني القديم عن عصر الأركايك ٥٠٠ قبل الميلاد ـــ كان هؤلاء أصدقاء دائمين لي ؛ لا أزور اللوفر الا وأزورهم وأقضي بعض الوقت مع أحدهم .

أما بالنسبة للتصوير ـــ فكان لي أصدقاء كثيرون أتردد عليهم باستمرار : رمبرانت .. وتحفته الرائعة « سوزان في الحمام » . وبدا وأصابع الموناليزا كانا مما يشـــدني دائما للتوقف أمامها .

ولكن درسي الكبير الذي ظل يشغل تفكيري سنين طويلة كان رسام فرنسا الكبير « بوسان » Poussin .. وكان اللوفر يحوى أكبر مجموعة لهذا الرســام الكبير . وقـــد أخذ كل اهتمـــامي في

الدراسة : حسابه الرياضى لكل شيء ــ لكل سنتى متر مربع فى اللوحة .. لكل لمسة .. لكل بقعة لون .. لكل منطقة ضوء أو اظلام مهما صغرت أو كبرت ــ هذا الفنان ذو الحساب الرياضى والحس الرائع الذى قال عن نفسه انه « لم يترك شيئا .. يضاف أو يدرك » I left nothing كان درسا كبيرا لى ولا يزال .

ثم زميله ومعاصره الكبير « كلود لوران » Claude Loren ذلك الرسام الذى تخصص فى رسم الطبيعة من سماء وماء ومبان .. ذلك الرسام الذى أعطى « للنور » ــ ولا أقول الضوء ــ فالنور فى نظرى شيء مختلف تماما عن الضوء .. النور الذى يشع وينبع من كل شيء .. ليس له مصدر معين .. ولكن كل الأشياء مصدر له .. لقد أعطى هذا الفنان الكبير للنور صفة القدسية .. وللطبيعة سمة لا محدودة .. ان أعماله تملأ النفس بانطلاقه الى اللامحدود ، فى نور قدسى شفاف . وقد لاحظت شيئا ما فى الأشخاص الذين كان يرسمهم .. كانوا بمثابة اضافة ليست على المستوى الذى رسم به الطبيعة .. وقد قرأت فيما بعد عن هذا الفنان أنه كان يستعين بفنان آخر فى رسم الأشخاص فى صوره حيث أنه لم يكن يتقن رسمهم .. وقد يكون هذا صحيحا أو غير صحيح .. ولكن من مظاهر العمل ان رسوم الأشخاص عند « كلود لوران » فى مستوى غير ذلك المستوى الرائع لرسمه الطبيعة .. سماء وبحرا وبناية عمارة وغيرها .

وقد كانت المتاحف الأخرى تأخذ جزءا من وقتى : متحف musée de L'homme **ومتحف الانسان** musée Guimet وهو متحف عن الانسان فى كل مكان ــ وكان رائعا ثم المعارض وقاعات العرض الكبيرة منها والصغيرة .. والتى كانت لا تزيد على حجرة ٤ × ٥ م وبها كراسى وترابيزات قديمة معروضة توضع فوقها

لوحات والبعض الآخر معلق على الحوائط — وكانت هـذه القاعات الصغيرة أكثر بيعا ، وتفتح مجالا طيبا للفنانين الناشئين لتسـويق أعمالهم ، فكانت هذه القاعات تبيع كل شيء ومنها اللوحات الفنية .

فى البنسيون — كنا نتناول الطعام : طعام الغداء والعشـاء فى حجرة الطعام — معا — المقيمون فى البنسيون وآخرون كانوا يأتون لتناول الطعام فقط نظير أجر معين .. وانى أذكر منهم شابا مصريا جاء باريس ليدرس الفلسفة وبدأ بدراسـة اللغة الفرنسية فى « اليانس الفرنسى » Alliance Precmeaire Francaise وربطتنى به صداقة فى تلك الآونة — فكان يأتى الى غرفتى بعد الانتهاء من الطعـام لكى نتحدث سويا . كان حديثنا جادا بين شابين فى مثل ذلك السن — دارس للفن ودارس للفلسفة — وكان الحديث دائما مفيدا — وكان يجد فى آرائى جدية وعمقا لا تتناسب مع سنى فى ذلك الوقت ، وكنت أرى أنـا فيه ذكاء وطموحا من خريج من « دار العلوم » . كان هذا الشاب هو محمود قاسـم الذى أصبح فيما بعد عميدا لدار العـلوم ، وله مؤلفات مرموقة — وقد توفاه الله منذ أمد غير بعيد . وكان هنـاك أيضـا عراقى من غـير المقيمين ، لم أجد له مدخـلا لكى أعرفـه أو اصادقه .. كان متحمسا دائما فى الكلام عن بلده . يشتط فى المديح حتى ليبتسم الجميع فى صمت . وكنت أنـا أشعر بالخجل له للشطط والمبالغة التى كانت تغلب على حديثه عن بلده العراق . وقد انفردت به يوما حـاولت أن ألفت نظره الى موقف السـامعين له من الفرنسيين وغير الفرنسيين ، فما كان منه الا أن سبنى بكل بساطة . فقطعت صلتى به فورا ولم أحاول أن أتحدث اليه فى ذلك على الاطلاق. وقد تدخل محمود قاسم لاصلاح ذات البين ، ولكنى ابتعدت عن كل صلة به .

ثم جاء الى البنسيون أربعة من الانجليز رجـلان وفتاتان ..

الفتاتان وجدتا مكانا للاقامة بالنسيون والرجلان أقاما بالفندق وكانا يأتيان لتناول الطعام معنا .. وقد فرحت لقدوم هؤلاء الانجليز ، فهم يعرفون قدرا من الفرنسية وجاءوا ليتخصصوا فى اللغة واتقانها لتدريسها فى انجلترا .. وكان وجودهم متنفسا لى لكى أتحدث بلغة أعرفها ــ وقد كانت تدور بينى وبينهم بعض الأحاديث ونحن على مائدة الطعام بالانجليزية ، فاعترض القائمون على البنسيون على استعمال اللغة الانجليزية ــ فالواجب علينا جميعا أن نتحدث بالفرنسية ــ فنحن جميعا هنا مطالبون باتقانها ، فأقاموا نظاما جزافيا يغرم كل من يتحدث بلغة غير الفرنسية على مائدة الطعام ، بأن يدفع غرامة قدرها ٢٥ سنتيما ــ أى ربع فرنك . وجاءوا بحصالة على شكل فيل ، كانت تبتلع النقود ابتلاعا ــ وكانت تمتلىء ــ وكان امتلاؤها دائما يكون من حر مالى ــ الا ماندر ــ وقد لاحظ الجميع ذلك فكانت الحصالة توضع دائما بجانبى والواقع أن هذه الحصالة أفادتنى ، فبدأت أتقدم فى الفرنسية فى سرعة لا بأس بها ، وبعد أن كانت الحصالة تمتلىء فى أسبوع أصبحت تمتلىء فى أسبوعين .. ثم فى شهر .. وكانت هذه علامة طيبة على تقدمى فى اللغة الفرنسية .

وكان تقليدا لطيفا من أصحاب الدار أنه عندما تمتلىء الحصالة تفرغ من النقود ، ويقام حفل صغير لأعضاء الدار لتناول « الجلاس » والشمبانيا .. على حساب الحصالة .. أى على حسابى فى أول الأمر .

كانت غرفتى فى نهاية دهليز طويل فى آخر الشقة ــ وفى الغرفة التى تجاورنى تماما كانت تقيم الفتاتان الانجليزيتان .. وقد توطدت صلتى بهما عن طريق اللغة الانجليزية التى كنا نستعملها فى غير وقت الطعام خوفا من الغرامة . وكانت الفتاتان فى الصباح فى دراستهما جادتين مع الشابين الانجليزيين ، ولكن فى المساء كانتا تلهوان وتتمتعان بحياتهما فى باريس وملاهيها .

وكانت حياتي تسير في نظام تام على وتيرة واحدة تقريبـا : الصباح ــ في المتاحف والمعارض .. بعد الظهر ــ في الأكاديميـة في المساء .. قارئا جادا حتى ساعة متأخرة من الليل . وكانت قراءاتي دائما جادة . كنت أحاول أن أبني نفسي .. أن أحقق ذاتي .. كنت أحاول أن أعوض ذلك النقص الذي واكب الفترة الدراسيـة التي عشتها في مصر . لم تكن ثقافتنـا تتعدى الكتب المدرسيـة وبعض المجـلات .. القصص والروايـات .. ولم أكن أعرف عن الثقافـة الا ما هو متاح من مثل ما ذكرت .. والآن وقد فتحت الأبواب على بالذات . عشت مع الفكر الانساني في أعلى مراتبه : سـواء مع الكلمة بناء شخصيتي . ولذا كان الاختيار دائما للقمم وليس أقل من القمم في جميع المجـالات الثقافيـة . وكان هـذا محتما في هـذه المرحلة أو التشكيل أو الموسيقى . وقد تركت الفكر الانساني في مراتبـه مصراعيها أمامي ، وأصبحت كل مناهج الثقافة متاحة في يسر .. فكان على أنـا الآن أن أختار ما يوائم حاجتي وما يمهد لي الطريق الى الأدنى الى ما بعد مراحل تكوين الشخصية ... الى مرحلة النضـوج حيث أتمكن من أن أقبل أو أرفض برأي صائب وحكم ناضج وقد كان لهذا أثر كبير في حياتي المستقبلة . القمم مقياس صعب للغاية .. حتى كان يعتريني اليأس أحيانا كلما فكرت في تلك الخبرات الرائعـة التي وصل اليها هؤلاء البشر الذين اعتلوا تلك القمم . كان هـذا المقياس الصعب ماثلا أمامي لا يبرح مخيلتي لحظـة واحدة .. جعلني هـذا المقياس أعي وأعرف قدر نفسي في كل حقبة من حيـاتي وأعرف أين أنـا من هؤلاء الجبابرة .. جبابرة الفكر والفن .. وكان لهذا الوعي فضيلة كبرى بالنسبة لي ــ فقد بدأت أنقد ذاتي في كل خطوة أخطوها سـواء في مجال العطاء الفني أو في المجال السلوكي والخلقي . كنت أحاسـب نفسي حسابا عسـيرا ، وكان هـذا داعيا لأن أذهب بعيدا في تأملاتي .. في كل ما يمس حياتي .

فى ليلة من الليـالى كنت ساهرا أقرأ كتابـا لـ « الى فور » وكان « الى فور » فى قمتـه فى ذلك الجزء Spirit of the form الأخير من كتابه عن تاريخ الفن التشكيلى • وهو عبارة عن بلورة لفكر « فور » عن الفن والحضـارة والانسان • وكنت مستغرقا فى قراءتى •• وكانت الساعة قد جاوزت منتصف الليل •• عندما سمعت حركة فى الدهليز وباب الحجرة المجـاورة يفتح ثم يقفل فى عنف وأصوات مغمغمـة • فعرفت أن الفتاتين الانجليزيتين قـد عادتا من سهرتهما • وذهب تأثير هذه الأصوات ، وعدت الى القراءة مرة ثانية •

ولكن لم يمض أكثر من بضـع دقائق لا تتجاوز العشر حتى سمعت باب الغرفة المجاورة يفتح وخطوات تأتى نحو بابى •• تركت الكتـاب جانبا وأرهفت السمع لهذه الخطوات • كانت الخطوات غير منتظمة•• ثقيلة •• بطيئة •• مترنحة •• لم أفهم منها شيئا •• غير أنهـا توقفت عند باب غرفتى •• وبعد برهة انفتح الباب ــ الذى لم أكن أغلقـه الا عند النوم ــ انفتح الباب بدفعة غير محسوبة ، وظهرت على عتبته « بولين » كبرى الفتاتين الانجليزيتين • وقفت بولين على عتبـة الباب ، وهى فى قميص شفاف تماما •• شبه عارية •• وقد برز أحد نهديها من القميص ، وقد ارتخت جفونها وتحركت شفتاها ببضـع كلمات غير مفهومة ثم تقدمت نحوى • وقفت لاستقبالها ولا أعرف ماذا تريد فى هـذه الساعة •• تقدمت نحوى فى خطوات مترنحة ، وجسدها الذى كان عاريا تماما الا من تلك الغلالة الرقيقة التى لاتحجب شيئا ــ يهتز فى امتلائه الخفيف ولونه المرمرى الشفاف فى كل خطوة تخطوها نحوى • سألتها بلطف •• هل لها حاجة أقضيها لها ••• ؟ لم تجب وجعلت تتقدم نحوى ، تترنح فى مشيتها • عقدت الدهشـة لسانى برهة •• وقد فهمت أنها سكرى وفى غير وعيها •• وشعرت أن كل ما فيها قد تحول الى رغبة جامحة تطلب الارتواء • ووقفت مذهولا عندما ارتمت بين ذراعى ، وقد تلقفتها خوفا من سقوطها •

كانت هذه صورة ربما تخيلتها فى أحــلام اليقظة منذ بضــع سنوات وكانت الرغبة والغريزة توحى الى بمثل هــذه الصورة . فتاة فى سن العشرين متوسطة الجمال ولكن لها قوام رائع .. ذات بشرة ناصعة البياض شفافة وصدر وجراج مغر .. كان يمكن لهذه الصورة أن تكون فى أحــلام اليقظة كما قلت .. ولكنها الآن حقيقة واقعية .. ولكن أنــا الآن غير ما كنت ، ان أحلامى لم تعد أحلام اليقظة ، وان سيطرتى على شهواتى وغرائزى أصبحت واقعة ، وان فكرى أصبح معلقا بمثل أخرى ترتفع على مستوى الغريزة والرغبة المؤقتة . وبولين هذه سكرى .. وان علاقتى بها لا تتعدى تبادل بضع كلمــات كل يوم بالانجليزية على مائدة الطعام وعندما نتقابل صدفة ، فكيف يمكن لهذه العلاقة أن تمتد الى أكثر من ذلك . لم يكن بينى وبينها أية عاطفة ، وهى الآن تطلب الارتواء واشباع رغبتها ــ وهــذا حق طبيعى لها ولكل امرأة ــ ولكن مع الرجل الذى تتبادل معه نفس الميل ونفس العاطفة ، ولكن ليس مع أى رجل .

كانت هذه اللمحات السريعة من الفكر تمر فى مخيلتى بالرغم من تأثرى بمنظر « بولين » وجسدها الرائع من تحت الغلالة الشفافة ، ينبض كل جزء فيه بالرغبة الحــارة الجامحة . ولكنى تمالكت نفسى تماما ، وانتصرت على نفسى وعلى غرائزى .

تحدثت اليها : هى متعبة فعلا والأجدر بها أن تذهب الى غرفتها لتنام وتستريح ، وأننا يمكن أن نتحدث كثيرا فى الصباح ــ وقرنت حديثى بان أحطتها بذراعى سائرا بها نحو الباب..نحو غرفتها ، ودخلت معها حتى فراشــها ، وساعدتهــا حتى استلقت فى استرخاء تام على الفراش .. ولم تشعر زميلتها بأى شىء من ذلك فقد كانت تغط فى نومهــا .

كانت تجربة .. قاسية على .. شدت كل أعصابى ، وكأن نضالا

شديدا وصراعا مريرا يحتدم داخلي وأنـا أقاوم • كان ما حدث •• يعد فيما مضى حلما وأمنية لي •• بل ولأى شـاب في مثل سني •• ولكن لم أكن كمـا كنت فيما مضى •• لقد وضعت لنفسي مقاييس خاصة لمثل تلك العلاقة •• ان الجنس ينبغي ألا يفهم بهذا المفهوم الحيواني •• انه شيء رائع •• يجب أن نرتفع به وأن نرتفع له •• انه نصف الحياة •• ان امتناعي عن مجـاراة بولين في رغبتها لم يكن ناتجا عن عفة « جسدية » بمفهومها العامي ، ولكنه كان ناتجـا عن عفة فكرية ناتجا عن احترام للجنس ، والارتفـاع به الى المسـتوى اللائق • انه علاقة رائعة بين الرجل والمرأة ، علاقة تمت ونضجت برعاية من الاثنين معـا ، تظللها عاطفة مشـتركة من الحب والاحترام المتبادل • ثم تأتي العلاقة الجنسية ثمرة طبيعية لهذا الحب والاحترام المتبادل • انه الجنس على المستوى الانساني المتحضر •

لم أنم تلك الليلة حتى الصباح وهذه الأفكار في رأسي ، ومازال منظر ذلك الجسـد البض تحت تلك الغـلالة الشفافـة تزيد من اغوائه ــ ينادي ••• وأنـا اتململ في الفراش • هل اخطـأت في حق الغريزة الطبيعية التي ناداها جسد « بولين » الجميل ••• ؟ ••• هل أنـا مقتنع فعلا بتلك الفلسفة التي ملأت بها رأسي عن العفـة الفكرية ؟ •• هل هـذا التفكير كان مقتنعا حقا لي •• ؟ •• أو أنني كنت أعيش في عـالم المثاليات وعـالم ما قرأت في الكتب •• ؟ •• هل أنـا نادم على فوات هـذه الفرصـة ؟ هـل تغضب « بولين » لكرامتها ؟ ربما •• وربما لا •• انها كانت لا تعي تماما ما تفعل • ان الخمر والرغبة كانت تدفعها الى ما فعلت وهي نصف واعية • ولكن لمـاذا هـذا التشكك في قنـاعتي •• لقد تصرفت معها بكياسـة وحكمة ، وربما كانت تلك الأفكار قد تمثلتها فعلا ــ فقد أثبتت الأيام والسنون القادمة أنني كنت كذلك ــ كنت مقتنعا تماما بتلك الأفكار التي تضع الجنس والعـلاقة الجنسية على مستوى انساني

رفيع . لم أر « بولين » فى اليوم التالى على مائدة الطعام وقد حمدت الله على ذلك . كنت اتوقع شيئا ما قد يعترى الفتاة ويعتريني أنا أيضا اذا ما تقابلنا ، ولكنها لم تأت . وقد علمت من زميلتها أنها متوعكة قليلا ، بل وأنهما راحلتان غدا عن باريس .

ورحلت بولين وزميلتها .. ولم أرها بعد ذلك أبدا .

واصلت حياتى فى باريس بين المتحف صباحا والأكاديمية والاستفادة من نقد « ليجيه » Leger عصرا .. ثم الاستقرار فى حجرتى مساء مع الكتاب . ولكنى كنت فى بعض الأمسيات أكسر هذه القاعدة لكى أذهب الى الموسيقى .. الى « كونسرت » الى « أوبرا » . وكان رسم الدخول الى مثل هذه الحفلات فى ذلك الوقت لا يتعدى بضع فرنكات . وقد تعرفت على فاجنر .. وبيتهوفن .. وديبوسى .. وهونجر .. وبيلابارتوك وغيرهم من تلك الحفلات الموسيقية .

وبيتهوفن الذى كان بعيدا عنى فى لندن ، ولم استسغ من موسيقاه الا القليل ، بل لم يرسخ فى ذهنى ولا أقول فى قلبى سوى السيمفونية السادسة « الريفية » ، وفيها كنت أشعر بأن بيتهوفن قد ترجم الطبيعة الى معادلات موسيقية صرفة عبرت تماما عن مضامين أدبية وتصويرية فى نفس الوقت « ذلك الركب الذى خرج يسير فى جو صاف رائق ومن حوله الطبيعة بمنظرها البهيج ، يسعد بها حتى بدأت العاصفة وهدوؤها تلك الابتهالات من الركب لزوال الخطر ـ ابتهالات الى السماء » ـ وقد عبر بيتهوفن عن كل هذا بما لايدع أى شك فى قدراته . ولكن اعجابى وتقديرى لبيتهوفن لم يتعد حتى تلك اللحظة الاعجاب الذهنى بتلك القدرات . كان لباخ وموزار المكانة الأولى التى استحوذت على وجدانى وفى احدى هذه الحفلات وكانت الأوركسترا تعزف كونشرتو « براندنبيرج » لباخ جاورتنى فتاة

لاحظت استغراقها الكامل فى الاصغاء • لم تكن جميلة بمعنى الجمال بالمقاييس المعروفة •• ولكن اصغاءها وتركيز انتباهها التام على الموسيقى أضفى على وجهها مسحة من جمال آخر ، تغلب عليه روحانية أكاد أحس بها تنتشر من حول ذلك الوجه ، فى انتباهته اليقظى للنغم • خرجت من الحفل الى الشارع وكان الجو باردا والسماء تمطر رذاذا خفيفا فاقفلت معطفى وسرت على قدمى الى البيت ، ومازالت الموسيقى والنغم الرائع « لأستاذ الأساتذة » باخ ـ يملأ كل جوانحى •

ها هو أستاذ عملاق قد وصل الى ذلك المستوى الرفيع ـ والرفيع جدا ـ هل يمكن لأحد يأتى بعده أن يصل الى ذلك المستوى ؟ هل يمكن لدارس للفن مثلى أن يصل الى قبس صغير مما وصل اليه ذلك العملاق من قيم ؟ ينبغى أن يكون الهدف هو هذا ـ والا فلا داعى للتمسك بالطريق •

وكانت الأفكار تتزاحم فى مخيلتى وأنا أسير تحت المطر •• هل يمكن لهذه القمم العملاقة التى أقارن نفسى بها أن تدع اليأس ينفذ الى قلبى ؟ اننى فى بداية الطريق • ولكنى أضع أمامى آمالا كبارا •• اسعى لتحقيقها •• واذا كان الهدف كبيرا والغاية سامية فان الطريق سيكون وعرا وشاقا • هل أنا كفؤ لمثل هذه المسيرة ؟ هل ابتعد عن هذه القمم حتى لا يدب اليأس فى نفسى •• أم أقبل التحدى المستمر حتى يستحثنى الى السير فى الطريق ؟

انهم عمالقة ولايمكن الوصول اليهم •• ربما يكون هذا حقا •• ولكن ليكونوا لنا نبراسا ومقياسا لما نحققه ـ ليكونوا لنا علامات تضىء لنا الطريق لما يمكن للانسان أن يحققه •

لم ينقطع رذاذ المطر وأنا أسير فى خطوات منتظمة •• كذا لم تنقطع سلسلة أفكارى عن عمالقة الفن فى كل فرع ، وما أمكنهم تحقيقه

فى حياة قصيرة اذا ما قيست لهذا الهرم الضخم الذى انجزه كل منهم بشخصه • وبالرغم من أنى كنت أشعر بعجز وقصـــور ازاء هؤلاء العمالقة الا أن اليأس لم يدب فى نفسى ، بل ربما كان هـــذا حافزا ومشجعا لأسير فى نفس الدرب ــ ولا يهم الى أين أصل ــ أو الى أى من المستويات الرفيعة يمكننى الوصـــول • المهم هو أن أســير ولا أتوقف بوعى كامل لهـــذا الميزان الدقيق للقيم • لهـــذا الميزان الصارم الذى وضعه هؤلاء العمالقة ومن قبلهم العديدون •• لأقيس به ما أحقق ولأعرف أين أنـــا •• ولأبنى به نقدى الذاتى ومقاييسى للعمل الفنى •

وصلت الى محل سكنى وقد بللنى المطر ولم يكن غزيرا ، بل ان هذا الرذاذ قد ساعد سلسلة أفكارى أن تنساب فى طريقها بغير معوق، وساعد فى ذلك أيضا رتابة الخطوة التى كنت اخطوها باتزان وثبات •

صعدت بضع درجات فى مدخل البناية حتى حاذيت « حارســـة الباب » Concierge فحييتها وعمدت رأسا الى « الأسانسير » ــ المصعد ــ وقد لاحظت أن بابه يكاد يغلق فلحقت به ودلفت الى الداخل••وكانت به فتاة تشبه تماما تلك الفتاة التى كانت تجلس على مقربة منى فى حفل الموسيقى الذى عدت منه فى التو ! وقد دهشت عندما ابتسمت وحيتنى وسألتنى عن « أى الأدوار » سأصعد ، فرددت التحية وذكرت رقم الدور ــ فى فرنسية سليمة هذه المرة ــ ووجهت لى الحديث أثناء سير المصعد معلقة على الحفل الموسيقى وعما اذا كنت قد استمتعت بأداء الأوركسترا لموسيقى باخ • لقد رأتنى هى الأخرى فى الحفل •• لقد كانت ترقبنى أيضا •• فقد تعرفت على فى الحال ! أجبتها ان الحفل كان رائعا • ووصل المصعد الى الدور الرابع ففتحت الباب لأخرج وحييتها فقالت انها هى الأخرى تسكن هـــذا الطابق فافسحت لها لكى تخرج قبلى • ودخلت الى الشقة المقابلة للشـــقة

التى كنت اسكن حجرة منها . ومرت الأيام وكانت الصـدفة تجمعنا فى مقابلات سريعة . وفى مرة وقفنا سويا على باب البناية ننتظر أن يخف المطر ليذهب كل الى حال سبيله ــ وبدأت تجاذبنى الحديث ، وكنت أفهم كل كلامها بالفرنسية ، ولكننى كنت أبحث عن مرادفات للكلمات العربية .. أذ أننى كنت اكون الجملة فى ذهنى أولا بالعربية ثم أجد ما يماثلها فى الفرنسية ، وعندما لا أجد ما يماثلها حاضرا فى ذهنى أستبدلها بكلمة انجليزية .. ومن هنا فهمت هى أننى ربما أكون انجليزيا فى الأصل ، فسألتنى وعرفتها بأنى مصرى ولكنى جئت من لندن حيث كنت أدرس الفن التشكيلى مع أستاذ فرنسى هو « فلان » ونطقت اسم أوزنفانت باعتزاز ، وأنى جئت لأكمـل دراسـتى مع Leger الذى تقع مدرسته فى هذا الحى . فرحبت بى فى باريس وأنها سعيدة لتتعرف على فنان تشكيلى من مصر . وسـألتنى عن اسمى فذكرته لها ، وحاولت نطقه أكثر من مرة وأنـا اصحح لها النطق حتى تمكنت من نطقه صحيحا . وسألتها عن اسمها فذكرت أن اسمها « سيمون » .

انى اذكر كل هذه التفاصيل عن تعرفى بسيمون هذه لأنهـا كانت فى خلال الشهور الباقية لى فى باريس لاتكاد تفترق عنى ، وكان لها أثر كبير فى حياتى . لقد عرفت منها أنها تعمل فى مجال الاعلان .. وهذا العمل لكسب العيش ، وأنها تدرس الموسيقى والغناء ــ وان فنانها المفضل هو باخ ، وانها متدينة . لقد عرفت هـذا فى تلك اللقاءات التى كانت فى معظم الأحيان مرتبة ــ حيث أنزل أنا فى الصباح الى المتاحف وتنزل هى الى عملها وقد تفاهمنا على توقيت معين لهذا اللقاء ــ وفى معظم الأحيـان كنا نسير على الأقـدام مسافات طويلة نتحدث قبل أن نفترق كل فى طريقـه . توطدت الصـلة .. وكثرت اللقاءات .. وكانت تدعونى الى الحفلات الموسيقية كلما وجدت منها ما يعجبها ويعجبنى .

زارتني في حجرتي لترى أعمالي ، وقد أبدت اعجابا شــديدا بتلك الرسوم التي رسمتها في لندن • وقد تنبأت لي بمستقبل حافــل في هذا المضمار •

زادت الألفة بيننا وبدأت تصحح لي لغتي وتصحبني الى المتاحف لنرى سويا الأعمال الفنية ، ولترى هي ما يعجبني منها ، وزالت الكلفة تماما بيننا • وفي يوم استأذنت مني لتصحب بعض أصدقائها الى غرفتي ليتعرفوا علي وعلى أعمالي ، فرحبت بذلك •

وجاءت وجاء اصدقاؤها ولدهشتي كانوا أربعة : امرأة في سن الخمسين تقريبا وثلاثة شبان لم يتجاوزا الثلاثين من عمرهم ــ والثلاثة كانوا « قساوسة » في زيهم المعهود ، وكانوا جميعا في غاية التعاطف معي ومع عمــلي مقدرين له • وبدأوا حوارا جــادا معي عن الفــن والحياة ــ وخرجوا في النهاية وقد شعرت انني كنت ندا للحوار على هذا المستوى الذي أثاروه •

وجاءتني سيمون في اليوم التالي وهي فرحة باسمة وقالت لي • انك أثرت اعجاب الجميع بحوارك المقتضب الحاسم الذي أشــعرهم بأنك تعرف أكثر مما تقول وتبدي ، وأنهم يرجون أن أقبل الدعوة الى حفل موسيقى ديني يقيمونه في مكان ما للأطفال اليتامى •

فقبلت الدعوة شاكرا •• وذهبت فعلا وقد اصحطبتني سيمون وعشت وقتا جميلا مع انشاد الأطفال السريع القصــير المصــوب موسيقيا • كان هــذا اللون جديدا علي •• كانت الأنشودة لا تزيد على دقائق لا تعدو الثلاث أو الأربع ، وهي مملوءة بالحس والجمال • وعدت الى المنزل وأنــا ممتلىء بنشوة لطيفة من تلك الأناشــيد السريعة الجميلة •• الحياة فيها الكثير مما لا أعرف •• ان « باخ » يرتفع بي الى الرفيع من الحــالات النفسية ، وكذلك كان هــؤلاء الأطفال •• ان أناشيدهم لم تبرح ذاكرتي أبدا •

تطورت العلاقة بينى وبين سيمون .. زادت لقاءاتنا .. وتقاربت ميولنا .. وبدأت هى فى الاهتمام بالفن التشكيلى بشكل يكاد يماثل اهتمامهـا بالموسيقى .. كانت كاثوليكية متدينـة .. تؤمن بتعاليم الكنيسة الكاثوليكية ايمانا قاطعا .. طلبت منها يوما ان نزور كنيسة « سان سلبيس » حيث توجد لوحتان كبيرتان للمصور « ديلاكروا » .

وذهبنا فعلا وأمضينا بعض الوقت فى دراسة وتذوق اللوحتين ثم مشاهدة عمارة الكنيسة من الداخل والخـارج . وقد قامت هى ببعض الحركات الروتينية عند دخولها الكنيسة .. وقد اسـترعت انتباهى تلك الحركات .. هل هى فعلا جزء من الدين ؟ أم هى مظهر تقليدى كتعاليم الكنيسة ؟ .

وفى يوم آخر ذهبنا سـويا لزيـارة بعض الكنـائس لتذوق عمارتها ، وانتقلنا من كنيسـة الى أخرى . وفى احدى الكنـائس الصغيرة « سان جوليان ليوفر » سمعت ترتيلا بلغة أعرفها ، وأصغيت السمع فكانت العربية ، وكان القسيس الذى يتلو القداس عربيـا شاميا .. هى كنيسة كاثوليكية تتبع الطقوس الشرقية .

وأمضينا عدة أيام فى زيارات متعددة للكنائس ، وكانت هـذه الزيارات مفيدة لى سـواء من ناحية التشكيل ــ العمارة ــ أو من ناحية تفهمى للطقوس الكنسية المختلفة .

وفى يوم سألت « سيمون » هل يمكنك الصـلاة فى أية كنيسة من هؤلاء ؟ قالت نعم فى كل الكنـائس الكاثوليكيـة أما غيرها من الأرثوذكس أو البروتستانت فلا ... فاظهرت لها دهشتى : ان كل الكنائس مسيحية ــ وهل يعبد الله فى كنيسة ولا يمكن عبادته فى أخرى فلم تحر جوابا ، فلم تكن تعرف كيف تجيب .. ولكن السؤال ظل يلح عليها فى طلب الجواب طيلة الأيام والشهور التالية ، عدت الى المنزل وأنـا أيضا أفكر فى الاجابة .

عندما وصلت الى الأكاديمية بعد أنتهاء اجازة نهاية الأسبوع — أى بعد ظهر يـوم الاثنين التـالى — قابلتنى « جلوجو » الفتـاة الأمريكية — وقالت ان أحدا ما جاء يطلب مقابلتى ، وأن هـذا الأحد ترك بطاقـة باسمه لمـا لم يجدنى ، وناولتنى البطاقة فقرأت الاسم . وكان الاسم الأول جورج أما الثانى فكان ينطق بالفرنسية « أتان » ولم أستطع معرفة جنسية هـذا الشخص من اسمه ، ولم أذكر انني تعرفت على أحد بهذا الاسم من قبل ، وطلبت من « جلوجو » أن تصفه لى — فقالت انه طويل القامة يميل لون بشرته الى السمرة .. شعره أسود ، وأن ملامحه ايطالية على الأغلب . فلم تزدنى هـذه المعلومات شيئا لمعرفة شخصه وأخذت البطاقة . ثم أردفت بانه ذكر أنه سيعود غدا فى ساعة متأخرة بعد الظهر ويرجو أن يجدنى . وفى اليوم التالى انتظرت فى الأكاديمية حضور « جورج أتان » هـذا . وفعلا حضر وكانت هيأته كما وصفته لى « جلوجو » وتقدم للتو منها وطلب منها بفرنسية سليمة أن تعرفه براتب صـديق لأنه لا يعرفه ولم يقابله قبل اليوم . وفعلا تقدمت تصحبه نحوى حيث كنت جالسا أرقب هـذا الضيف . وعندما التقينا قدم نفسه الى بانه جورج حنين وهو مصرى صميم وأن « اتان » هـذه تعنى حنين . وذكر لى أن أصدقائى فى القاهرة وعلى رأسهم يوسف العفيفى وكامل التلمسانى قد أحاطوه علما بأنى أدرس الفن التشكيلى فى باريس مع فرناند ليجيه، وانه هو نفســه كاتب وشاعر ويهتم اهتماما كبيرا بالفنـانين المصريين ، وأنه يقيم حاليا فى باريس ، وانه أراد أن يتعرف على وأنه على استعداد لتقديم معرفته بباريس التى يتردد عليها كثيرا من مساعدتى بالشكل الذى أراه . وقد وجدت فيه شخصا رقيقا له شخصـية جذابة سهل قبوله ودعانى للذهاب معه بعد الأكاديمية ليعرفنى ببعض الأصـدقاء الفرنسيين المثقفين والمهتمين بالثقافة — أدبا وشعرا وفنا تشكيليا — وكذلك لتناول العشاء معه .. فقبلت الدعوة .. وفعلا خرجنا وذهبنا

الى مكان يعرفه هو من قبل ــ وقال ان كثيرا من الفنانين والشعراء يرتادون هذا المكان • وكان المكان يزدان بالمرايا •• حتى السقف كانت به مرآة •• وسألت « جورج » عن اسم هــذا المكان فقال انه « كافيه فلور » Cafée Flore •• وجلسنا نتحدث ، وأراد هو ان يعرف كل شيء عني ، فأجملت له ملخصا عن دراستي مع أوزنفانت في لندن ، وما أنــا الآن بصدده مع ليجيه ، وبالمثل أردت أن أعرف عنه وعن شخصيته واهتماماته وسر اهتمامه بالفنون التشكيليــة ، فذكر لي في اختصار بأنه يكتب الشعر بالفرنسية • وسر اهتمامه الكبير بالفن التشكيلي تلك الصــلة الكبيرة التي ربطت الفن التشــكيلي السريالي بالأدب • وكانت السيريالية في ذلك الوقت سنة ١٩٣٩ في أوجها ، ســواء في الفن التشكيلي أو في الأدب ــ وانه هو نفســه سيريالي النزعة في شعره وكتاباته الأدبية •

عرفني جورج حنين ببعض الكتــاب والشعراء من الجنســين شبانا وشابات •• والكل كان ينحو هــذا النحو السريالي ــ ليس في كتاباتهم فحسب بل في تفكيرهم وسلوكهم أيضا • وكنت أعتقد أن كل فنان مهما كانت نزعته سواء أديبــا أو شاعرا أو تشكيليا فلا يخلو عطاؤه الفني من جزء سيريالي اختزنه في أعماقه •• يظهر في عمله بغير عمد •• ومن هنا كنت أسر لمناقشاتهم في هــذا المجال ، وأتدخل من حين لآخر لأقول رأيي ، ولكنني لم اشتبك أبدا معهم في نقاشهم الحاد وحماستهم المشتعلة •

شباب مثقف يقف على أعتاب الحياة ليأخذ ويعطي •• كنت أفهم حماستهم وحدتهم في النقاش •• ولكنني دائما هادىء رزين وكأنني قد بلغت الخمسين تجربة وخبرة •

تواعدنا أنــا وجورج حنين على اللقاء من حين لآخر •• وفي

اللقاء التالى لنا دعوته للعشاء معى فى البنسيون ، وحاولت تقديمه وتعريفه بالموجودين على طاولة الطعام . فأبى قائلا انه لا داعى للتعارف ، فى لهجة مستعلية لحظتها ــ وتضايقت قليلا ــ ولكنى لم أعلق أهمية ما على هذا ــ فقد يكون محقا ، فهم خليط من البشر ربما لن يقابلهم مرة أخرى . على كل حال تناونا عشاءنا ودعانى لأشاهد « أفلاما صامتة لشارلى تشابلن » ، فى عروض خصصت لنوعية خاصة من المشاهدين . وقد استمتعت بهذه الأفلام التى لم أكن أفكر لحظة فى مشاهدة مثلها ــ فقد كان فكرى كله متجها اتجاها مغايرا تماما لمثل هذه العروض الخفيفة . واستمرت لقاءاتنا حتى نهاية اقامتنا فى باريس . فقد تصادف أن عدنا سويا على نفس المركب الى مصر بعد قيام الحرب الثانية ببضع شهور .

زارنى جورج فى مسكنى مرات عديدة ليتعرف على أعمالى مع أوزنفانت ــ وقد أعجب ببعضها ، ولكنى شعرت بأن اعجابه يشوبه شىء من المجاملة . وفى مرة من المرات رأى بعض الرسوم التى كنت أرسمها بالقلم الحبر .. أشكالا مجردة وخطوطا موحية ــ أبدأ من الطبيعة ــ كرسى ــ جاكتة ــ قطعة قماش .. وأنتهى الى شىء آخر فيه ملامح من الطبيعة ، ولكنه يدفع الخيال الى أبعاد أخرى تذوب فيها الطبيعة ، ولا يبقى منها الا أحاسيس الفنان المدفونة : تجريد موح . توقف جورج حنين كثيرا أمام هذه الاسكتشات وهو يقلب الواحدة بعد الأخرى وهو لايكاد يصدق ما يرى ، والتفت الى قائلا لماذا لم ترنى هذه الرسوم الرائعة ؟ قلت له ــ انى اتسلى برسمها فى الأمسيات التى لا أجد فيها رغبة للقراءة . فقال انها أحسن ما رسمت وانه يرجو أن استمر فى هذا الطريق ، فهو الطريق الصحيح ، فابتسمت وقلت له اننى بدأت أفهم ميولك وما تحبه فى الفن التشكيلى ، ولكن هذا الطريق سينتهى سريعا ولن يبقى منه الا الهزة الأولى التى حركتك . ان هذه

الاسكتشات غير باقية • انها تعبر عن أحاسيس سريعة عابرة • انني أحبها فهي مني ــ وهي تثير في خيالات حرة تنطلق مني بعد أن خففت القيود عنها ، وتركت المجـال للمدفون ليظهر على السطح • انها مسلية ولا أكثر من ذلك • وانبرى جورج حنين يدافع عن هذه الاسكتشات « النصف مجردة والنصف سيريالية » وكان يدافع بحمـاس لم أشهده فيه من قبل • وظل يردد ان هذا هو الطريق وهذا هو المنطلق نحو فن يأتي من أعماق النفس الدفينة النصف واعية أو الغير واعية بالمرة ليعطي ظلالا وظلا للحياة وللطبيعة غير موجودة بغير ما تضفيه عليها النفس البشرية من أعماقها الدفينة ، وأن تلك الرموز التي يخلقها الفنان والتي تأتي من الأعماق الغير واعيـة أو النصف واعية لتترك العنان لخيال المشاهد يسبح فيه ليجد نفسه فيه أو في جزء منه •• ! •• وكنت أجيب •• ولكن لمـاذا يترك الفنـان العنان لخيال المشاهـد ليجد نفسه في شيء ما يتخيله هو يخلقه هو ، ولم يرد ولم يقصـد الفنان بوعيه أو بغير وعيه أن ينقله للمشاهد ان الفنان يعطي بوعيه الكامل ما في أعماقه من لا وعي ، وأن الفنـان الحق هو ما يحمـل الطبيعة تلك الشحنة الوجدانية التي جاءته من أعماق الوعي واللاوعي متكاملين ، ليعطي المشاهد شيئا أكبر من الطبيعة وأكبر من الفنان بقصد واع منه الى حد كبير ــ وعلى المشاهد أن يستقبل ذلك العطاء بأن يكيف نفسه وتكيفه ثقافته لتلقي الرسالة كما هي ــ كما أرادها الفنان الخالق ــ وهـذا في رأيي هو الفنان الحق ــ الذي يقود المشاهد ولا يترك للمشاهد أن يتجول بخياله في العمل ليجد لنفسه شيئا آخر غير ما أراده الفنان • وكانت المناقشـة تدور بيني وبين جورج حنين على هـذا النحو في معظم الأوقات التي نلتقي فيها • هو سيريالي يعتنق السيريالية ويؤمن بها وهو مخلص تماما في معتقداته • أكثر الفنـانين قربا الى قلبـه كان « ايف تانجي » Yve Tanguy الفنان السيريالي المعاصر • وكنت أنـا أيضا أحب هـذا الفنان ،

ولكن كان حبنا لهذا الفنان لأسباب وقيم تختلف من الواحد منا عن الآخر . فكانت رمزية « تانجي » وذلك الخيال الموحي الذي يخلقه الفراغ اللانهائي تؤكده تلك الكتل المتراقصة فيه ، في أعمال تانجي — هي ما يثير مشاعر الشاعر السيريالي جورج حنين . أما أنا فكان يكفيني مقدرة وحس « تانجي » في خلق هذا الفراغ — وتأكيد قيمته « باللعب » بتلك الكتل السابحة فيه . انها قيم جمالية بحتة ينبثق عنها شعر لاشك فيه . أما الرمزية السيريالية بمعناها (الفرويدى) Freudem فلم تكن لها أولوية على القيم الجمالية بأية حال .

سألني جورج حنين عمن يثير اهتمامي من الفنانين .. فقلت له انهم كثيرون ، ولكني أعكف الآن على الدراسة والتعرف على فنان خطير هو « بول سيزان » . فسألني جورج حنين على اجابتي بأن « سيزان » فنان مهم ولكن لماذا نهتم به ، وما خطر مثل هذا الفنان في وقتنا الحالي ، وبالنسبة لك ما هو خطره وأهميته ، وكنت أرجو أن تسترعي اهتمامك حاليا تلك الحركة السيريالية التي تغزو العالم الآن . فقلت لجورج .. انني أتفهم جيدا وجهة نظرك واني لأعتقد أن كل فنان تشكيلي أو أديب يحمل بين جنبيه جزءا « سيرياليا » قد يظهر واضحا في عمله أو أن يكون محتجبا في الظل ، ولكنه ذو أثر لاشك فيه في بناء العمل . أما بالنسبة « لسيزان » وأهميته لي الآن ، فهي أنني بدأت أعالج التصوير بالألوان الزيتية ، وأنني لم أجد الأستاذ الذي يمكن أن يساعدني عندما أكون أنا مستعدا لتلقي المساعدة . وقد فاتت علي الفرصة عندما كنت أدرس مع « أوزنفانت » .. أما « ليجيه » فهو مشغول عنا في هذه الأيام ، وقد صممت على أن أشق الطريق الى التصوير بالزيت بنفسي ، وأن اختار أساتذتي من كبار الأساتذة الذين تركوا علامات جادة على الطريق من أمثال « جيوتو » Jiotto الايطالي ، و « فيلاسكويز » Velasquaze

الاسباني .. ثم سيزان الفرنسي . واني أعتقد أن « سيزان » هو أعظم من عالج اللون كعنصر أساسي لبناء الشكل ، متضافرا ومتكاملا مع جميع العناصر الأخرى من خط وكتلة وفراغ ... الخ .

ليس هذا فحسب فاني أجد أن سيزان قد حول « الخط » الذى كان قيدا يحد الشكل « الفورم » من النمو — الى مساحات من اللون المدروس أكسبتـه صـلابة على عكس ما فعـله التأثريون Impressionists فقد أصبح الفورم عنـدهم هشـا .. عنـدما تخلصوا من الخط واستبدلوه بلمسات لونية .. ولكن هل تعرف يا جورج أن هذا الرجل سيزان ذهب بعيدا فى طريقة معالجة اللون ؟ لقد استبدل بدرجات الظل والنور ألوانا .. ألوانا واضحـة وليست درجات وظلال من اللون . انها معادلات لونية للظل والنور .

قـال جورج — أنك تتعمق فى دراسـتك لسيزان وطريقته فى العمل ولكن هذا « تكنيك » فقط . صناعة برع فيها بغير شك ، ولكن أين الفن ؟ أين الانسان .. ؟ .. فقلت .. ان ما صنعه سيزان ليس « صناعة تكنيك » ولكنه ثورة حقيقية فى التصـوير اللونى . انه أوصل « اللون » الى أعلى وظائفه .. ان اللون عند سيزان لم يعد لونا .. مجرد لون .. بل انه تعدى هـذا النطاق كله .. لقد تحول اللون عند سيزان الى نسيج السطح .. الى ما تحت السطح .. الى المـادة نفسـها .. الى كنه المـادة .. الى الطاقـة الكامنـة فى المـادة .. ثم يرتد ثانية الى السطح حاملا معه ذلك الذىمسه تحت السطح .. انه أكثر من أن يكون مجرد لون .. هو حس مرهف للغاية لصوفية اللون — اذا جاز لى أن أسميها كذلك . لقد بدا على وجه جورج حنين الاهتمام بحديثى وحماسى لسيزان ، بل انى شعرت بأنه بدأ يهتم هو الآخر بسيزان ، وقال لى يبدو انك تحب سـيزان كثيرا وأنك دائب على دراسته دراسـة مستفيضة . وانني بعد ان

سمعت حديثك هــذا سأحاول من جانبي أن أرى سيزان بعين أخرى ..
وربما ذهبنا ســويا الى المتحف فى مرة من المرات لنشــاهد سيزان معا . وقلت مختتما الحديث عن سيزان .. ان مسألة اللون هذه ليست كل سيزان .. ان لسيزان فى أعماله حسا « بالبطولة » Heroeism تشعر به فى « تفاحه » وفى « سلاله » وفى « أشخاصه » وفى « أشجاره وجباله » .. انه فنان عظيم .

افترقنا هــذه الليلة وتواعدنا على اللقاء فى الأسبوع القــادم لنذهب سويا الى « متحف اللوفر » لنشاهد سيزان الذى كنت قريبا منه طوال اقامتى فى باريس .

فى صباح اليوم التالى تقابلت مع « سيمون » وسألتنى أين كنت — فانها لم ترنى منذ بضعة أيام . أخبرتها بما كان بينى وبين الصديق المصرى « جورج حنين » ، وأنه شــاعر ســيريالى يكتب بالفرنسية وهو مثقف ، ورويت لها بعض ما جرى بيننا من حــديث ومناقشات حول الفن . جرى هــذا اللقاء وكانت تسير الى جانبى حيث تذهب الى عملها وأذهب أنــا الى المتحف كالمعتاد أيضــا .
ولكنها فاجأتنى بأنها فى اجازة هــذا اليوم وأنه يوم مشمس والأجدر بنا أن نستمتع بهذا الجو الجميل الذى هو « استثناء » فى فصــل الشتاء واقترحت أن نذهب ســويا الى حديقة الحيوان ولم أكن قد شاهــدتها من قبل . ورحبت بالاقتراح على الفور .. كنت أحب الحيوان والنبــات ، ولم أنس بعد تلك الأشجار الضخمة التى طالمــا استمتعت برؤيتها وتأملها فى « ريتشموند » بضــواحى لندن . وفعلا قادتنى « سيمون » حيث حديقة حيوان باريس ، وقد اشترينا بعض الفطائر « شوسون » لنأكلها فى رحلتنا هذه .

أثناء تنقلنا فى الحديقة توقفت أمام نبات ينبثق فى عنفوان رائع من الأرض ، وينبثق من الأم فرع تلو الفرع بنفس ذلك العنفوان .

حتى أن حركة تدفق عبرت من ذلك الانبثاق وكأنها لن تنتهى أبدا • وقفنا أنـا وسيمون أمام هـذا النبات الذى لم أعرف نوعه ولا اسمه وكذا سيمون ــ ولكنه استحوذ على كل أحاسيسنا واعجابنا ــ بل انه طغى على كل ما رأيناه من حيوان فى الحديقة •

عدنا من الحديقة وقد استمتع كلانا بالجو والنبات والحيوان والصحبة • ولأول مرة أجد أن ذراعينا قد تشابكتا ونحن عائدان • وقبل أن نفترق قالت انها تود أن تعرفنى على فنان بلجيكى عجوز معروف عالميا ، يعرض أعماله حاليا •• وهى تعرفه معرفة شخصية •• كان هذا الفنان هو « جيمس انسور » ــ وقد تواعدنا على الذهاب سويا لمشاهدة معرض « انسور » فى الغد •

عرفتنى سيمون بالفنان الذى رحب بشاب مصرى يشتغل بالفن التشكيلى ، ولكننى فى الواقع لم أجد ما كنت أتوقعه عند انسور التأثيرى سوى تكوينات ومواكب لا بأس بها ، ولكن الفورم عنده يفتقد الى الصلابة التى كنت أنشدها فى كل عمل قد يحوز أعجابى • لم أخرج من معرض انسور بشىء يذكر ، وعدنا الى البيت • وقبل أن تدخل سيمون شقتها قالت انها ستأتى الى حجرتى لتسمعنى أسطوانة جديدة لباخ اشترتها خصيصا لأجلى •

جاءت سيمون فى المسـاء وكانت قد أحضرت « جراموفونا » تركته عندى لمثل هذه المناسبة • جلسنا نتحدث عن باخ وعطائه الفذ فى الموسيقى ، والحس الدينى والروحى الكبير الذى أودعـه فنـه الرائع ــ وبدأنا نستمع الى القطعة القصيرة المسجلة على الاسطوانة وكان اسمها Lévé toi ma chere ame ــ انهضى يا روحى الغالية » • كانت الموسيقى رائعة وأثرها بالغ العنف • كنت أشعر بنوع من التمزق والأسى الشـديد الواقـع على النفس •• كانت الموسيقى كأنهـا تنحر القلب نحرا • لم أستطع فهم نوع الأثر الذى

تركته هـذه القطعة الموسيقية من باخ .. بالذات . بقدر عمق الأثر بقدر ما ترددت فى قبول هـذا الأثر . لم أستطع استساغته تماما بالرغم من اعجـابى الشديد به .

انتهت الموسيقى وظللت صامتا كما صمتت سيمون أيضا ، ولكنها كانت ترقبنى وأنـا سـابح فى تفـكير وتأمل ومازال « سـحر » الموسيقى ــ « لقد كان سحرا حقا » ــ يأخذ بتلابيبى ولا أستطيع منه فكاكا . لقد أحببت « باخ » حبا شـديدا بالقلب والعقل وبكل الجوانح ، ولكن هذه القطعة « انهضى يا روحى الغالية » كانت تختلف عما عرفته من موسيقى باخ . كانت الشحنة الروحية التى أودعهـا باخ فى هذه القطعة من حجم ونوع لم أستطع تحمله .. أو قبوله .

بعد فترة صمت طالت قليلا سألتنى سيمون عن رأيى ، فقلت انها رائعة بلاشـك ولكنى لم أستطع قبولها .. نعم لم أقبلها .. ربما لأنها « مسيحية » أكثر من اللازم .. ان باخ يقول من خـلال هـذه القطعة .. « أنـا مسيحى » .. بل مسيحى منحاز من مذهب معين Secterian .. وكنت أحاول بهذه الكلمـات تبرير أحاسيسى الرافضـة لشىء ما فى هـذه القطعة .. وكان هـذا كله جديدا على بالنسبة لباخ العظيم . وفاجأتنى « سيمون » بقولها انها لم تفكر أبدا فى مثل ما قلته عن هـذه القطعة بالذات ، ولكنها تشعر الآن بأن ما قلته الآن فيه شىء من الصـواب ، ولكنها لم تشعر بأى رفض لتلك الرهبـة وذلك الأسى الذى تحدثت أنـا عنه .. قلت .. ربما لأنك أنت أيضا مسيحية .. بل مسيحية منحازة أيضا .

كانت هـذه القطعة الموسيقية مثارا لتأمل طويل وتفكير مركز حول الدين .. دين الله .. ودين الكنيسة . انسحبت سيمون بعد لحظات وتركت الاسطوانة قائلة انه من المستحسن أن أسمعها مرة أخرى بل مرات . لقد عرفت باخ جيدا .. عرفته فى شوامخه « غير

المنحازة » التى ينطلق بها الى السماوات العلا يبنى عمائر بللورية رائعة ــ يبنى قصورا معلقة رقت وشفت جدرانها حتى يكاد المقدس يستبين من خلالها .. انه يرتفع بنا جميعا من كل الأجناس ، ومن كل الأديان .. ومن هم بغير أديان الى ذلك المستوى الروحى الصافى نستشف منه ذلك المقدس الذى يضفى على الجميع ذلك الشعور الرائع المنطلق الى اللامحدود الى حيث الوحدة الكبرى . لم أشعر أبدا مع روائع باخ بهذا الحس الحزين المتآسى الذى يأخذ بمجامع القلوب ويحبس الأنفاس من الرهبة ــ والخوف والأسى معا .. الذى شعرت به وطغى على أحاسيسى من تلك القطعة لباخ « انهضى يا روحى الغالية » .

كان باخ فى هذه القطعة مسيحيا منحازا لفئة معينة من المسيحية ، .. ولم يكن باخ فى تلك المقطوعة هو باخ المنطلق بنسيجه الموسيقى الذى لا نهاية له .. نسيجه الموسيقى الذى يحملنا معه الى الآفاق الروحية العليا .. يحملنا معه الى اللامحدود .

لم أتقابل مع سيمون فى اليوم التالى لأنى لم أذهب الى المتحف كالمعتاد ، وفضلت صحبة الكتاب فى حجرتى .. وقد استحوذ على الكتاب حتى أنى لم أخرج من الحجرة طيلة اليوم ولم أذهب الى الأكاديمية أيضا بعد الظهر . وفى المساء أدرت اسطوانة باخ مرة ومرات لأستوعبها جيدا ، ولكنى لم أجد بها شيئا يغير من أحاسيسى الأولى ومن رأيى الذى أعلنته لسيمون .. من قبل

وفى يوم جاءتنى سيمون وبصحبتها أحد الشبان القساوسة الذى كنت قد تعرفت به مع زملائه من قبل ، وكان قد أبدى اعجابه بعملى الفنى ، بل أبدى اعجابه بآرائى وشخصيتى كما اخبرتنى سيمون ، وقد حدثها بذلك بعد المقابلة الأولى . جلسنا نتحدث عن أشياء كثيرة ولكنى لاحظت أن زائرى يحاول أن ينحو بالحديث

الى ناحية الدين • والدين والمشاكل الروحيــة لم تزل قابعة داخلى لم تجد حلا شافيا ولا طريقا أو مخرجا مرضيا • وقد ركز زائرى فى حديثه (على الدين) بعد أن أفلح فى جعله محورا للحديث • وقد كان قسا كاثوليكيا بطبيعة الحال • وكان فهمه للمسيحية من خــلال « مسيحية » الكنيسة الكاثوليكية ؛ وكان التفتح الذى بدا منه نحو الفن التشكيلى والأدب فى زيارته السابقة قد شجعنى على مجاراته فى الحديث عن الدين • ولكنى لم أكد أخطو الخطوات الأولى فى هــذا المجال الا وجدته يتكلم من خلال تعاليم الكنيسة الكاثوليكية ؛ وقد ذاب ذلك الانفتاح الذىلاحظته فى تفكيره فىزيارته الأولى • ولاحظت أيضا أنه بدأ يتكلم فى لهجة تبشيرية لم تعجبنى بالمرة • اننى كنت متعاطفا فعلا مع تعاليم وســلوك المسيحية من المسيح نفسه •• روح الله وكلمته ، والتى كانت تتلخص فى نظرى فى الحب •• فى الحب الكبير الذى يحرك الجبال ــ كما جاء على لسان « برجسون » فى كتابته عن سقراط ، فى ذلك الفصل الممتع الذى أفرده له فى كتابه :

The two sources of Morality and Religion

وهذا الحب الكبير الذى كان يحمله عيسى المسيح بين جنبيه ــ والذى كان يبشر به الانسانية جمعاء ــ هو الذى شــدنى للتعرف على ذلك الدين ، الذى ارتكز أساسا على عمودين اثنين : الحب •• والمعاناة ••

• Love & Suffering

أما الحب الكبير الذى يحرك الجبال فكان هدفا أعلى أنشــده دائمــا ــ وأما المعاناة فكانت ترافقنى على الدوام ولكنهــا كانت معاناة فكرية دائما •• ولمأتقبل أبدا أية معاناة جسدية مما افتعلها بعض الصــوفية من المسيحيين وغيرهم بما كانوا يعرضــون أجسادهم لضرب السياط وشــك المسامير •• الخ •• لتطهير النفس عن طريق الألم • لم استسغ هــذا أبدا عندما شعرت بالمحـاولة « التبشيرية » التى جاوزت حدود الفكر الحر ، وان الحوار بدأ من جانبــه كأنه

يقوم بوظيفة « القس » . عندئذ تراجعت حماستي في النقاش وركنت الى الصمت . ولكنه لم يصمت وظل يردد كلاما كثيرا عن الكنيسة والكاثوليكية .. ولم أرد عليه بكلمة واحدة فقد زهدت في الحوار . لاحظت أن سيمون ترمقني بنظراتها محاولة فهم رد الفعل الذى يساورنى ازاء كلام القس ، وكانت قلقة ـ أو هكذا خيل الى وعندما شعرت هي باننى فقدت الاهتمام بالحديث تماما ، وكان القس لايزام الكلام يتدفق من فمه كأنه يلقى بموعظة ـ حاولت سيمون ايقافه عن الكلام . وبعد أكثر من محاولة وقفت قائلة ان الوقت أصبح متأخرا وعليها أن تذهب . وكان وجه القس قد شابه احمرار من حماسته ، وقد تململ قليلا من سلوك سيمون هذا الذى بدا لى أنه جاء في وقته تماما .

خرج الاثنان وقال لى القس .. الى الملتقى .. سنلتقى ثانية لنكمل الحوار .. أليس كذلك .. ؟ .. لم أرد على سؤاله .

ودعتها حتى باب الحجرة وعدت الى المقعد المريح بجانب النافذة استعيد ذلك الحوار الساخن الذى بدأ من ذلك القس المتعصب بطبيعة وظيفته . جلست أفكر وقد انتابنى شيء من القلق .. هل كانت زيارة القس هذه برغبة منه هو أم بايعاز من سيمون . لو كانت الأخيرة لأصاب الصلة التى بدأت تتوطد بينى وبين سيمون ضرر كبير . ان فكرى حر تماما .. وأنا دائب في تحريره من كل الجوامد Dogmas .. انى أبحث داخل أعماقى عن حل لتلك المشكلة الكبرى .. أبحث عن الغاية والهدف .. أبحث عن الطمأنينة الكبرى التى تستكين لها نفسى القلقة .. هل أجد هذه الطمأنينة فيما قاله هذا القس ؟ أجدها في تعاليم الكنيسة .. والكنيسة الكاثوليكية بالذات .

مرت هذه الأسئلة في خاطرى وأنا أجلس بجانب النافذة أراقب

قطرات المطر على زجـاج النافذة . وصوتها الرتيب يدعو الفكر أن ينساب بلا اعاقة . ولكن لمـاذا لا أجرب .. لمـاذا لا أذهب الى الكنيسة واستمع الى القداس مع ذلك الرهط الكبير من البشر الذين يؤمنون بالمسيحية والكنيسة وتعالم الكنيسة .

لقد ظلت هذه الأفكار تتقلب فى ذهنى مرة بالقبول ومرة بالرفض . ولكن فى النهاية .. قبول ماذا .. ليس هنـاك شىء معد للقبول .. ان طريقى غير ذلك بالمرة .. ان طريقى وعر .. بل شـديد الوعورة انى لا استسيغ الحلول السـهلة ، ولا أعتقد ان مثل هـذا الطريق يصلح لى بالمرة . ان هدفى وغايتى أبعد من ذلك بكثير . سـهرت كثيرا وأنـا فى حوار عنيف مع نفسى .. فى حوار مع خبرات الآخرين ممن قرأت لهم ، ومع خبرتى الشخصية التى تتكون وتتبلور ببطء فى أعماقى .. ثم نمت .. ولم أستيقظ الا على دقات الباب .. كانت الخادمة قد أتت بالافطار الذى كنت اتناوله دائما وأنـا فى سريرى . شـعرت فى ذلك اليوم بكسـل شديد ، فلزمت الفراش ولم أترك الحجرة بل انى لم أتناول أى طعام . لقد شعرت بالمرض يداخلنى .. وفى المساء جاءتنى « سيمون » وعلمت منى أننى لم أترك الحجرة بل لم أترك السرير لأنى أشعر بضعف .. فانزعجت وقررت استدعاء الطبيب ، ولكنى رفضت وتناولت بعض أقراص اعطتنى اياها ، وجلست بجـانبى على الفراش تحادثنى وهى منزعجة قليلا من حالتى هذه . ظلت سيمون ساعات طوالا بجـانبى ترقبنى وهى تتحسس جبينى من وقت الى آخر ، ولكننى كنت أشعر بتحسن مستمر .. لم يكن مرضا ولكنى كنت قد سهرت الى ساعة متأخرة من الليل قلقا مفكرا فى كل ما مر بى فى ذلك اليوم .. ولمـا شعرت سيمون بالتحسن الواضح الذى طرأ على .. نصحتنى بالنوم مبكرا ثم انحنت على فى ود ظاهر وقبلتنى .. ثم انصرفت .

عمـلت بالنصيحـة ونمت وأنـا أفـكر في قبـلة سـيمون لي وما نوعهـا ... ! ... هل هي مجرد تعاطف مع ضعفي ، أم هي أكثر من ذلك ... ؟ ...

جاءتني سيمون في الصـباح تسأل عن حـالي وكانت باسـمة فطمأنتها بأن كل شيء على ما يرام وأنني ذاهب الى المتحف بعد فترة قصيرة . فاستأذنت هي في الانصراف لأنها على موعد هام مع شخصية كبيرة وستزورني في المسـاء ، وتركتني وانصرفت .. لم أذهب الى المتحف وفضلت أن استريح تماما اليوم أيضا وتناولت كتابا لالي فور Eli Faure : النسخـة الفرنسـية وقد اشتريتهـا بثمن بخس بعكس النسخة الانجليزية المترجمـة التي كان ثمنهـا يبلغ أضعافا مضاعفة .

لقد قرأت كتاب تاريخ الفن « لالي فور » بالانجليزية في لندن سواء في مكتبة المتحف البريطـاني أو بالاستعارة لبعض الأجزاء من حامد سعيد ــ وكان الكتاب يتألف من خمسة أجزاء : الفن القديم .. الفن في العصـور الوسـطى .. الفن في عصر النهضـــة .. الفن الحديث .. ثم الجزء الخامس Esprit des Formes (روح الفورم) وهـذا الجـزء لم تسنح لي الفرصـة لقراءته كامـلا قبل ذلك بالانجليزية .. والآن وقـد حصـلت على نسخـة فرنسية ــ وهي الأصل ــ قررت السير قدما في محـاولة قراءتها ، أقول محـاولة قراءتها لأن (فور) كان صعب الفهم حتى لو كان بالعربيـة .. فما بال الأمر بفرنسيتي الضئيلة مع (فور) ، وتلك الجمـل الطويلة التي لا تنتهي ، والألفـاظ المنتقاة بحساب شـعري رائع . لقد استمتعت بالترجمة الانجليزية وكانت على مستوى رفيع ، ولكنني كنت أعتقد أن الأصل الفرنسي سيكون أمتع .. اذا تمكنت من اللغة . وكنت أسير في قراءتي بتؤدة .. وانقل سـطورا بأكملهـا الى كراسـة خاصـة

بالكتاب ، وأفرد مساحة للكلمات التى لم يتضح لى معناها تماما الا فى السياق • وانتظرت حضــور « سيمون » فى المساء لتوضح لى معانى هذه الكلمات ، واستعيد قراءة السطور التى تعثرت فى فهم معناها • كانت صعوبة قراءة (فور) بالفرنسية واضحة تماما لكثرة ما كنت انقله الى كراستى من كلمات لا أعرف معناها بالضبط ، مما دعـا سيمون الى أن تحضر الى فى المساء فى أغلب الأيام لتشرح لى معنى الكلمات • وكانت هـذه أيضا فرصة لنقرأ فصولا بأكملها سويا •• وكانت الظروف كلها تقارب بينى وبين سيمون حتى أننا لم نعد نفترق الا لتذهب الى عملها صباحا ، أما الأمسيات فكنا نقضيها معا ، اما فى الذهاب الى « كونشرت » فى سـهرة فى الخارج ، واما نسهر معا فى حجرتى سـواء لسماع الموسـيقى أم القراءة سـويا بالفرنسـية ، وشرح ما لا أستطيع فهمه لغويا •• أم للتحدث فى نواع مختلفة ثقافية كانت أو اجتماعية •

وفى يوم جـاءتنى سـيمون تقول بأنها تود تقـديمى وتعريفى بشخصية كبيرة جدا لها مكانتها فى الشعر والأدب والدين أيضـــا ، هى على صلة قربى بعيدة بهذه الشخصية • فسألتها عن اسم هـذه الشخصـية فذكرت اسـم « بول كلوديل » Paul Cloudeh ولم آكن قد سمعت هذا الاسم من قبل •• اذ لم يكن لى صلة ما بأدب المعاصرين الفرنسيين •• فى تلك الفترة الزمنية •• وسألتها لمـاذا تريدين تقديمى لهذه الشخصية الكبيرة فى الأدب والشعر والدين ؟ وكنت أفضل أن اتعرف على شخصية مهمة فى الفن التشكيلى •• فابتسمت قائلة : انك ستراه ولن تندم على هـذا اللقاء •• انه رجل عظيم •• انه شاعر فرنسا •• شاعر الكاثوليكية •• وانه يتحـدث الانجليزية فقد تولى السفارة فى الولايات المتحدة لفترة ما •

وبعد يومين جاءتنى « سيمون » فرحة قائلة : سنذهب سـويا غدا لتقابل كلوديل ••• فقد حدثته عنك •

وفى المساء فتحت الكتاب كالعادة ولكننى لم أستطع أن أفهم شيئا مما أقرأ .. وقد استولت على أفكار كثيرة حول هـذه المقابلة غدا مع كلوديل .. لمـاذا تصر « سيمون » على تقديمى لبول كلوديل بالذات ؟ .. وقد ذكرت فى حديثها أنه شاعر الكاثوليكية فى فرنسا .. لم أستطع أن أحدد الهدف من اهتمامها هـذا .. هل هناك علاقة بين ذلك الحوار الحاد الذى جرى بينى وبين القس صديقها فى غرفتى منذ بضع أسابيع .. ؟ .. هل فسرت شغفى بالمعرفة .. وقرآتى حول الأديان وتركيزى على الدين المسيحى فى هذه الفترة بالذات ــ على أنه ميل لاعتنـاق المسيحيـة . أرجو ألا يـكون الأمر كذلك ، والا فستكون سيمون ومن حولها من أصدقاء من القساوسة قد أساءوا فهم دراساتى وتأملاتى حول الدين . انه شغف بالمعرفة ليس الا .. معرفة الذات من خلال التجربة الشخصية وتجارب الآخرين .. ان كل فروع المعرفة من علوم وفنون تصب فى النهاية فى نهر واحد .. ذلك النهر الذى يصب فى اللامحدود .. وهو الهدف والغاية .

كانت تأملاتى التى لا تنقطع وأنـا أعيش عليها وأتغذى بها فى كل وقت سـواء كنت أعمل أو أقرأ أو أرسم أو أركن الى المقعد المريح فى غرفتى وحيدا مع فكرى المشتعل دائما .. يعمل باستمرار يحـاور ويجادل كل الأفكار التى ترد عليه من أى منبع كان . ان الظروف هى التى جعلتنى أركز على المسيحية ، وعلى التصـوف المسيحى بالذات لأن كل الكتب المتاحة فى ذلك الوقت فى انجلترا أو أوروبا فى هـذا الصدد كانت أغلبيتها مسيحية . لقد قرأت القليل من الأديان الأخرى الآسيوية ، وتعاليم « بوذا » . وحياته بالذات ، وكان لها أثر كبير فى تفكيرى . وفى باريس وأنـا محاط بفتاة متدينة تتعصب لكاثوليكيتها وثلاثة من رجال الدين المسيحى قساوسـة شبان متفتحة أذهـانهم بشكل ممتاز ولكن الى حدود لا يمكنهم تخطيهـا .. حدود تعاليم

الكنيسة الكاثوليكية .. وزياراتي مع سيمون للكنائس والغناء الديني الذي كانت تشدو به وهي مع نفسها .. كل هذا جعلني أعطي الكثير من اهتمامي للبحث والتفكير في هذا الاتجاه .. حبا في المعرفة .. ورغبة في تفهم الى أي الحدود يقف عندها هـذا النوع من الفكر والبصيرة . التي استقرت في قالب صاغته الأجيال حتى أصبح قالبا راسخا متكاملا براقا . يضفي على العامة من الناس طمأنينة للنفس هي ركيزة لها تثبتها في حالات القلق والهزات العنيفة التي لا تخلو منها الحيـاة .. تضفي نوعا من الروحانيـة التي تتسم بالغموض تحن اليه النفس — أي نفس — وتأوي الى ظلاله كلمـا ألم بها حدث أو نزلت بها نازلة .. أو ربما كان ذلك الغموض وذلك الجو الذي تضفيه الشموع والتراتيل والبخور مما تحن اليه النفس وتهفو اليه حناياها الباطنة . ان الانسان من قديم الازل وقبل الأديان السماوية كان يلجأ الى الطقوس ويخلقها لتلائم مزاجه واحتياجاته الروحية .. وكان البعض يسمى هـذه الطقوس سحرا .. ولكنهـا لا تفترق عن أي طقوس دينية فرضتها الأديان وطورتها الأجيـال ، لتلائم الزمـان والمكان والمجتمـع المواكب لها .. ولكن هل هـذا يكفي .. ربما يكفي العامة والكثرة من الناس .. ولكن الخاصـة وخاصة الخاصـة .. لا أظن .. لقد عشـت التجربة بنفسي في فترة لاحقة ، وحضرت أكثر من قداس وأنـا أرجو أن أجد شيئا في تلك الطقوس الدينيـة .. وانفعلت فعـلا ازاءها وازاء ذلك الجو الخافت القاتم الحزين الذي تضفيه تلك التراتيل وتلك الشموع والجمع الكبير الذي حضر الى المكان لهدف واحد ، أو هكذا ظنوا .. هو واحد في الظاهر فقط .

لقد عشت التجربة كاملة وأنـا أحاول أن استقبل بقلب مفتوح وعقل نصف مغلق لكل همسـة روحانية أو شبه روحانية قد تأتي مع تلك الطقوس .. وقد تأثرت فعلا وشعرت كيف أن الكثير من هؤلاء

الذين تجمعوا فى هذا المكان يتأثرون وقد لمست الراحة والطمأنينة بل والاعتداد بالنفس Self comlucemy بعد خروجهم من الكنيسة . لقد كنت معهم أستشعر أحاسيسهم ، تأثرت مثلهم ، ولكن لما خرجت معهم كان فهمى لكل هـذا مغايرا تماما لفهمهم . ان الكثرة كانت تؤدى الواجب ، ولكنى كنت أبحث .. أريد أن أعرف .. ولكن هل عرفت .. ؟ أظن أننى فى الطريق الى المعرفة .. دارت فى رأسى كل هـذه الأفـكار حول مقابلتى الموعودة « لبول كلوديل » شـاعر الكاثوليكية الكبير .

اصطحبتنى سيمون فى اليوم المحدد الى حيث ألتقى كلوديل .. ورأيت كلوديل . رجل ممتلىء الجسم مستدير الوجه .. فيه جدية ووقار .. هيئته تدعو للاحترام .. قابلنى الرجل ببشاشـة .. وهو يصافحنى بينما تنطق سيمون باسمى تعرفه بى .. « راتب سديك » كما ينطقه الخواجات .. وكنت أتوقع أن يطلب كلوديل منها اعـادة نطق الاسم ليستوعبه .. حيث كان الجميع من الخواجات يطلبون منى ذلك لسـماع هـذا الاسم الغريب ـ ولكنـه لم يأبه لذلك ـ وابتدأنى الكلام بالانجليزية قائلا : انه عرف من صديقتى سـيمون أننى شاب مصرى يقرأ كثيرا عن الدين ، ويبحث باهتمام زائد فى الدين المسيحى ، وأنه يرحب بى وأنه سيساعدنى . وفى لحظـات قصار تناول كتابا كان قد أعده من قبل وأخرج قلمه ووقع باسـمه على ركن من أركان صفحة الكتاب الأولى ودفعه الى قائلا : اقرأ هـذا الكتاب وسيساعدك فى الاهتداء الى ما تبحث عنه . وصافحنى مرة ثانيـة مودعا . والتفت الى سيمون وتحدث معها قليلا .. بالفرنسية طبعا .. وودعته وجاءت واصطحبتنى الى الخارج . ورويدا رويدا بدأ الدم يصعد الى رأسى وأشعر بسخونة تعترينى . وحاولت سيمون أن تعرف منى شيئا عما يدور فى رأسى نتيجة للمقابلة .. ولكنى لم أحر جوابا . ان المقابلة كلها لم تستغرق سـوى دقائق .. انه لم يهتم بمعرفة اسمى

كما ينبغي ، ان سيمون رتبت هـذه المقابلة على أسـاس خـاطىء وعلى فهم خاطىء لى على الأقل ، وما هـذا الكتاب الذى اهدانيه ، ومهره بتوقيعه والذى سيساعدنى على أن أجد ما أبحث عنه ،

سرت وسارت سيمون معى فى شـوارع باريس ولم تحـاول أن تقطع على حبل تفكيرى الا بعد أن سرنا على أقدامنا أكثر من سـاعة بأكملها .. وبدأت سيمون الحديث قائلة .. الأجدر بنا أن نذهب الى البيت حيث أن الجو بدأ يتغير وأن المطر على وشك أن ينهمر ،

وذهبنا الى البيت وصعدت معى الى غرفتى ، وجلست بجانبى على السرير ، وكانت الحجرة دافئة .. والمدفـأة ساخنة .. وبدأتنى سيمون الحديث .. لـماذا أنت ساهم هكذا .. ألم تسر بمقابلة رجل عظيم مثل كلوديل ؟ .. وكان لكلماتها هـذه وقع أسوأ من كل ما سبق ، فبدأت أتكلم بهدوء .. مصطنع .. فقد كنت « أغلى » من الداخل ، قلت لها .. هل تظنين أن مجرد مقابلتى لرجل عظيم كـما تقولين فيه سرور لى ، هل مجرد مصافحتى لكلوديل .. الذى لم يهتم حتى بمعرفة اسمى كما ينبغى ، فيه سرور لى ؟ ان اللقاء كان معدا وكان « ممسرحا » ، هـذه الكلمات القليلة التى نطقها بالانجليزية ، وهذا الكتاب الذى اعطانيه والذى لم أعرف ما هو حتى الآن ، وهذا التوقيع الذى مهر الكتاب به ... ماذا يظن هذا الرجل فى نفسه .. انه رجل مغرور .. هذا رأيى فيه اذا أردت أن تعرفيه ، وكان صوتى يرتفع شيئا فشيئا واختلطت الفرنسية بالانجليزية لتسعفنى فى التعبير ، وبدأ هدوئى الذى تملكته فى البداية يتلاشى تماما .. واستمعت الى سيمون فى دهشة تزايدت عندما سمعت نعتى كلوديل بالغرور ،

وفتحت الكتاب بعد أن قرأت العنوان .. وكان عبارة عن رسائل متبادلة بين بول كلوديل وجاك ريفيير Jack Revier ، ووضـعت الكتـاب جانبا وقد شـعرت بأننى متوتر أكثر من اللازم ، وقـلت

لسيمون : انى آسف لافلات الزمام منى .. ربما أكون قد أخطأت فى التسرع بالحكم . ولكنى شعرت بأنه لم يعاملنى كما ينبغى .. وبدأت سيمون بعد هـذا الاعتذار بالتحدث الى بهدوء مشوب بالعطف بل والحنو .. قائلة : انى أفهم شعورك تماما ، حيث أنتى أعرف اعتزازك بنفسك . ولكنك نظرت للأمر بغير ما هو واقع .. هل تعرف ما قاله لى كلوديل قبل أن تنصرف ؟ لقد قال انه أعجب بك لأول وهلة وانه يتوسـم فيك خيرا كثيرا بل أعلن لى عن رغبته فى لقائك ثانية ، وقد دعانا نحن الاثنين لمشاهدة العرض الأول لمسرحيته التى كان يتابع بروفاتها عندما التقينا به ــ وقد أعطانى فعلا دعوة موقعة منه لحضـور الحفل .. العرض الأول لمسرحيتـه « جان أوبوشير » Jeanue Au Bûchir « جان فى حلقـة اللهب » أو حرق جـان دارك .. وهل تعرف .. قالت سيمون : ان هونيجر Honiger هو الذى وضع موسيقاها .. والجميع يتوقع لها نجاحا كبيرا ، وأن الصحف تتحدث عن هـذا العرض المقبل على أنه سيكون حدثا هاما فى مجـال الأدب والموسـيقى والاخراج المسرحى .. وانك لم تعرف شيئا عن بول كلوديل حتى الآن سوى حديثى أنـا عنه وأنه ينبغى لك أن تتعرف عليه من خـلال أعماله ، وقد أهداك هو هذا الكتـاب وهو عبارة عن رسائل متبادلة بين شاب مثلك يبحث عن الحقيقة .. ويرجو المعرفة الحقة .. وأن رسائل كلوديل له تعتبر ذات شأن كبير فى هـذا المجال ، ويمكنك قراءة الكتـاب وسأساعدك من جانبى فى فهم ما تتعثر فى فهمه من اللغة الفرنسية .. هذه واحدة ــ ينبغى لك أن تبدأها لتعرف شيئا مهما عن كلوديل من كتابه ، ثم أمامك الثانية ــ ذلك العمل المسرحى الرائع الذى دعاك كلوديل نفسه لمشاهدته فى عرضـه الأول ، وهـذه الدعوة فى ذاتهـا دليل على اهتمامه بك ، وهـذا الاهتمام واضح بكل المقاييس .

كان حديث سيمون الهادىء المتزن له أثر كبير فى تهدئتى وجعلنى

انظر الى ما حدث بموضـوعية أكثر .. وقد كان فيما قالته سيمون الكثير من الصحة .. وافترقنا على أن نلتقى فى الغد .. وفى اليوم التالى جاءتنى سيمون فى المساء المبكر ومعها اسـطوانة لقطعـة موسيقية لباخ (توكاتا) استمعنا اليها سـويا عدة مرات .. وكانت جميلة رائعة فيها سعة وعظمة وبناء صرحى .. وقد قلت لسيمون أن هذه القطعة لباخ غير تلك التى سمعناها منذ مدة (انهضى يا روحى الغالية) . ان هـذه القطعة ليس لها صلة بالمسيحية بالذات .. وليس بها أى نوع من الانتماء الى فرقة أو مذهب دينى معين .. انها حرة طليقة تطلب اللامحدود واللانهـائى . فابتسمت سيمون وأمنت على كلامى قائلة بأنها تفهم الآن حديثى عن القطعة السابقة وتدرك الفرق بين القطعتين ــ وما قصـد بوقوع باخ فى « الحزبية الدينيـة » أو الانتماء الى فرقة أو مذهب معين مما يصبح قيدا على الفنان فى حسه وعطائه .. عموما فان موسيقى باخ تخرج عن هـذا النطـاق الا فى النذر اليسـير الذى قابلته أنـا فى بعض أعماله . وذكرت سيمون بعض الملاحظات على كلامى وانها تستفيد منه . وعند انصرافها ذكرتنى بموعد افتتاح مسرحية كلوديل وأنها ستأتى الى مبكرة لكى تصحبنى الى المسرح .

وفى اليوم التالى ، وفى الموعد المحدد جاءت سيمون ودقت باب حجرتى ودخلت ، وظلت واقفة وهى تستحثنى على الاسراع فى ارتداء ملابسى لكى نصـل الى المسرح قبل رفع الستار بفترة ، حتى يمكننى مشاهدة المسرح وبناءه من الداخل فى الضوء وقبل اطفاء الأنوار . انه مسرح حديث رائع .

وقفت سيمون فى وسط الحجرة .. ووقفت أنـا أنظر اليهـا وأتأملها من اخمص قدميها الى أعلى رأسها . لم تكن سيمون التى أعرفها ، تبدو دائمـا فى حذاء (زحافى) بغير كعب ، أرب الى حذاء

الرجال .. وثوب بسيط للغاية ، ووجه بسيط بغير مساحيق أو أية محاولة للتجميل . وهى الآن ترتدى ثوبا أزرق جميــلا يلف قوامها فى بساطة ورشــاقة ، وقد رشقت على صــدرها زهرة قرمزية ، وفى قدميها حذاء ذو كعب عال ، جعلها تظهر أطول مما اعتدته أنــا منها .. ولكنه كان يزيدها رشاقة .. وعلى رأســها قبعة زينت بزهرة صغيرة على جانب منها .. أما وجهها فقد وضعت عليــه « مكياجا » خفيفا جدا من المساحيق مع طلاء شفتيها بلون أحمر يميل الى القتامة .. جعلت أتأمل سيمون « الجديدة » فى صمت بينما هى تواصــل كلامها تحثنى على الاسراع . لقد كنت دائما أعجب بسيمون الفتــاة البسيطة المتدينة التى تحب الموسيقى وتترنم بتراتيل باخ .. الفتاة العطوفــة التى دأبت على مساعدتى بمجرد أن تشعر بأننى فى حاجة الى المساعدة وبغير أن أطلبها . كانت تكبرنى ببضــع سنين ، وكانت تعرف عن الحياة أكثر مما أعرف ، فهى تعيش فى خضمها ، ولكننى كنت أعيش أنــا فى شبه عزلة عنها . كان الفن والفكر والقراءة المستمرة والتأمل الطويل فى المسائل الفكرية والروحية تعزلنى عن الحيــاة العادية .. كانت سيمون تأخذ الدين والفكر والموسيقى كجزء من الحياة اليومية تمارسها ببساطة وبغير أى تعقيد .. أما أنــا فكل هــذه الأمور كانت معقدة أشد التعقيد ، وجزء منها كان مازال هلاميا لم يتبلور بعد .

كنت أرى « سيمون » فتاة لها فكر وروح يتكاملان مع البيئة .. مع المجتمع .. فى انسجام تام .. بلا عقد أو معاناة .. فهى تتنقــل كالعصفور الصغير فى جميع أرجاء الحياة خفيفة تسعد بكل شىء ــ تسعد بالعمل ــ تسعد بنزهة لطيفة ــ تسعد بلحن تسمعه ــ تسعد بمنظر طبيعى جميل تراه .. انها حققت نوعا من الانسجام بينها وبين البيئة والعالم ــ بيئتها وعالمها ــ وبهذا كانت تلمس أطراف الســعادة بهذا التعامل .. لذا كنت أراها دائما على هــذا الشكل .. لها روح عالية تملا عليهــا حياتها فى كل ما تعمل .. وهــذه الروح العاليــة

هى التى قربت بينى وبينها طوال هـذه المدة • والآن وهى تقف أمامى فى أتم زينة وقد لف ذلك الرداء الجميل جسدها فى التئام تام ؛ وأبرز مفاتنه التى لم أرها من قبل — فقد رأيت فيها جمالا لم أره من قبل • رأيت لها جسدا مكتنزا ناضجا به رغبـة ونداء أكاد اسمعه • اقتربت منها وقبلتها ، فاحمر وجهها قليلا وقالت لى : دع هـذا الآن واسرع حان موعد ذهابنا الى المسرح •• فقلت لها •• انى لم أرك جميلة الى هـذا الحد من قبل •• فضحكت وقالت •• انها غلطتك •• وجرتنى من ذراعى بعد أن ارتديت ملابسى وذهبنا الى المسرح وقد تشابكت ذراعانا وشـعرت لأول مرة أننى كنت فخورا بالسـير مع سيمون على هذا النحو •

وصلنا الى المسرح « باليه دى شايوت » قبل ميعاد رفع الستار ببضع دقائق وأخذنا أماكننا وكانت أماكن ممتازة •• فهى بدعوة من كلوديل نفسه •• وبدأت أجول بيظرى فى المسرح •• كانت الحوائط مغطاة بنوع من المطـاط الأحمر الطوبى وبنقوش مذهبة ؛ والستار أزرق ، والكراسى مكسوة بالقطيفة الحمراء •• وكان مسرحا أنيقـا متوسط الحجم يبرز فيه الذوق الفرنسى فى اختيار الألوان والتنسيق الجميل الذى كان يبدو فى كل ركن وفى كل شىء •• فى كل لمسة فى أنحاء المسرح •

كان كل شىء فى هـذا المكان جديدا على — لم أر من قبـل مسرحا بهذا الذوق الرفيع •• سـواء من الناحيـة المعمارية أو من ناحية التنسيق والانسجام فى المساحات والألوان وفى كل شىء وقالت لى سيمون ان التصميم قد صمم هندسـيا لاظهار الصـوت نقيـا وفى أحسن حالة • وكنت أجول ببصرى فى أرجاء المسرح كافة حينما نبهتنى سيمون لدخول « كلوديل » الى الشرفة المخصصة له • وما كاد كلوديل يأخذ مكانه حتى سـمعنا دقات المسرح التقليدية ايذانا ببدء العرض •

وكان موضوع المسرحية من الناحية التاريخية معروفا لدى فهو (محاكمة جان دارك) ثم الحكم عليها بايعاز سياسى من الانجليز بالموت حرقا . ولكن كان تناول كلوديل لهذا الموضوع جديدا تماما .. وقد أخذنى العرض الى آفاق وقمم من الاستمتاع الحق بكل ما فى المسرحية — سواء النص — أو التمثيل أو الاخراج .. ثم الموسيقى الرائعة التى وضعها « هونيجر » خصيصا للمسرحية .

وانتهت المسرحية وقد حل فى نفسى تقدير كبير « لكلوديل » — ولو اننى لم أفهم كثيرا من الكلام — وكانت سيمون تساعد فى همس فى التفسير وتوضيح الكلام . وانتهت المسرحية .. وقوبلت بتصفيق متصل لفترة زمنية طويلة ، ووقف كلوديل والجمهور يحييه وهو يرد التحية .. ثم خرج من الشرفة .. الى حيث لا أعلم . وبدأت استعد للخروج ولكن سيمون همست فى أذنى بأنه ينبغى لنا أن نذهب لكلوديل ونشكره على دعوته لنا ولنهنئه بهذا النجاح الكبير للمسرحية ، فسألتها أين سنقابله .. فقالت انها تعرف مكانه .. فهو فى غرفة من غرف المسرح يستريح قبل أن يرحل . وفعلا ذهبنا اليه ، وكانت تعرف طريقها تماما ودقت الباب مستأذنة فى الدخول ودخلنا .

وعندما رآنا حيانا بابتسامة خفيفة .. قائلا آه .. انت المصرى .. قلت نعم وانى جئت لاشكرك على دعوتك لنا لمشاهدة المسرحية التى استمتعت بها تماما وكذا على هديتك لى ذلك الكتاب الذى لم أقرأه بعد . وانى اذ جئت للشكر وللتهنئة على ذلك النجاح الكبير للمسرحية الرائعة فانى أود أن اسأل سؤالا ظل يحيرنى طويلا ولا أجد له جوابا وظننت أنك يمكن أن تخرجنى من حيرتى هذه بالاجابة والايضاح فابتسم كلوديل وقال .. وماذا تريد أن تسأل .. ؟

فقلت ببساطة .. « لماذا أنت كاثوليكى » .. فصمت قليلا .. وقال انه سؤال ذكى .. أما الاجابة والايضاح فستقوم أنت بها بعد

أن تزداد معارفك وتنمو خبراتك مع السنين القادمة . وودعنا بابتسامة فيها شيء من الوداعة . وتبادلت سيمون معه بضع كلمات قبل أن تخرج من عنده . وسألتني ماذا كنت أقول له بالضبط ـ كان حديثي معه بالانجليزية ـ ولم تستطع سيمون متابعة الحديث بطبيعة الحال بالرغم من فهمها لكثير من الكلمات ؛ فأعدت عليها ما قلته وسؤالي له .. « لماذا هو كاثوليكي » .. واجابته لي . ونظرت الى سيمون في دهشة بالغة .. وبدأت تردد .. لماذا هو كاثوليكي .. انه شاعر الكاثوليكية في فرنسا .. بل انه شاعر الكاثوليكية في العالم كله .. وانت تسأله .. لماذا هو كاثوليكي ... ! ... فقلت في هدوء متعمد محاولا التخفيف من حماستها .. نعم سألته هذا السؤال ولم يجبني عليه .. وربما أسألك انت نفس السؤال .. لماذا أنت كاثوليكية .. ؟ .. وربما يمكنك انت الاجابة ؛ فأجابت .. نعم يمكنني الاجابة .. لماذا أنا كاثوليكية .. ! .. انى كاثوليكية لأنى كاثوليكية .. ولا اجابة غير ذلك . فقلت نعم هي الاجابة الصحيحة وأنا أقبلها منك ولكنى لا أقبلها من كلوديل . ربما الاجابة تنتهي الى مثل ما أجبت ، ولكنى أعتقد أن هناك مشوارا طويلا قبل أن نصل الى اجابتك هذه وحتى يقتنع شخص مثلى يبحث ويدقق في كل شيء بالنسبة لهذه القضايا بالذات ـ فأنا في حالة شك وفي حالة بحث عن نفسى والأسئلة تملأ رأسى ولا أجد لها اجابة شافية . وربما كانت اجابة كلوديل هي أكثر صوابا عن أية اجابة أخرى وأننى أستطيع الاجابة عليها بنفسى عندما « تزداد معارفى وتنمو خبراتى » على حد قول كلوديل . فقالت سيمون : انك تعقد الأشياء.. خذ الأمور ببساطة أكثر فقلت : ان مزاجي النفسي في هذه الفترة يميل الى المركب من القضايا وليس الى البسيط منها ؛ والواقع يا سيمون لست أنا الذى أعقد القضايا .. بل هي مسائل معقدة بطبيعتها يصعب حلها والاجابة عليها بمثل هذه البساطة التى تتخيلينها

انك أسـعد حالا منى فان مثل هذه القضايا محلولة مقدما بالنسبة لك .. فانت تؤمنين .. وأنـا أشك .. أشك فى الحلول المفروضة السهلة .. وهـذه وسيلتى فى التعلم وكسب الخبرة .. الشـك والمعاناة والبحث والتأمل هذه هى وسيلتى فى اكتساب الخبرة ــ الخبرة هى تأمل الحدث وليست الحدث نفسه .. شعرت بأن الحديث قد طال ونحن واقفـان خارج مبنى المسرح .. فأخذت سيمون من ذراعها وسرنا . كنا معتادين ان نمشى كثيرا على قدمينا قبل أن نقصد المنزل.. ولكن سيمون فضـلت أن تختصر الطريق فى منتصفـه وتعود فى « تاكسى » لأن « الكعب العالى » الذى كانت تضعه للمناسـبة لا يناسب المشى الطويل .. ودعتها على باب مسكنها ودلفت أنـا الى مسكنى وكان ميعاد العشاء قد انتهى . ولم أجرؤ ان أطلب شـيئا من أصحاب المنزل وقد جـاوزت الساعة التاسـعة مساء .. وكنت أحتفظ ببعض الفاكهة فى حجرتى على الدوام فتناولت بعضا منها . وجلست فى مقعدى بعد أن تخففت من ملابسى .. وتزاحمت فى رأسى الأحداث ! المسرحية .. المسرح .. الاخراج .. الموسيقى .. ثم كلوديل نفسه وتعرفـه على بمجرد وـوع نظره على ومناداته لى « بالمصرى » . وربما عرفنى لانى كنت بصحبة سيمون .. ! وتلك الاجابة الغامضة عن ســؤالى له .. « لـماذا أنت كاثوليكى » . وكيف لى بأن أعيش التجربة الدينية لكى اكتسب المعرفة والخبرة .. ان بى شـوقا شديدا الى الدين .. نعم ان شـوقى هـذا أصبح يشدنى الى التجربة الدينية . لقد قرأت كثيرا عن تجارب الآخرين .. ولكنى لم أخض التجربة بنفسى حتى نهايتها .. كل ما مر بى فى المـاضى من معاناة ومن ألم ومن ذلك الانجذاب الشـديد للتجربة الدينية كان فى اعتقـادى جزءا صغيرا من التجربة . كنت أشعر بهذا الشـوق الشديد الى المعرفة .. معرفة الطريق الى المطلق .. الى اللامحدود .. وأين هو ذلك المطلق ؟ . أهو فى الداخل .. داخل

النفس كما قال تولستوى The Kingdom of God is within you
أم هو خارج النفس .. فى الطبيعة .. فى القوة الكامنة فى الطبيعة .. فى اخلاقية الطبيعة كما يقول برجسون .. بين المونوتيزم Monothcism .. تولستوى .. والبانتيزم Pantheism .. برجسون .. كانت ذاكرتى تستعيد ما قرأته فى هذا المجال فى الدين ــ فى التصوف ــ فى الزهد : وكلها كانت تفتح الطريق الى المعرفة الجادة ــ ولكنى لم أستطع حتى الآن أن أخوض التجربة بنفسى برغم شوقى الشديد اليها .

وعندما أوصلتنى أفكارى الى هذه المرحلة .. خفت فعلا ... شعرت بالخوف .. انه طريق طويل صعب ومخيف .. ولم أستطع أن أخطو فيه أية خطوات جادة .. سوى المسامى بطبيعته والمخاطر والصعوبات التى تحيط به .. وسوى ذلك الشوق الشديد الذى ينتابنى بين الفينة والأخرى والذى كان يتسبب فى شعورى بالضعف والوهن ، وكانت دموعى تسيل رغما عنى فى كثير من الأحيان . أسرعت الى قلب الصفحة صفحة الفكر وعدت الى « جان فى المحرقة » مسرحية كلوديل وموسيقى هونيجر والمسرح الرائع .. ثم سيمون فى ثوبها الأزرق .. وتلك الزهرة القرمزية التى وضعتها على صدرها .. وذلك الحذاء العالى الكعب الذى أعطاها بعض الطول وأكسبها رشاقة .. لقد بدت فى نظرى فى تلك اللحظة جميلة .. بل فاتنة .. لماذا لم ألحظ ذلك من قبل..هل هو ذلك الثوب وذلك « الماكياج » قد أعطاها تلك الفتنة وذلك الجمال ؟ . أم أن نظرتى أنا لها بدأت تتغير منذ فترة ولم أشعر أنا بهذا التغيير الا فى تلك اللحظة التى رأيتها فيها متجملة متأنقة . نعم انها لم تكن تعنى باظهار نواحى الجمال التى كانت جميع النساء تعنى باظهارها ــ كانت ملابسها عادية وحذاؤها « الرجالى » لم يتغير .. تسير بسرعة دائما وفى جدية دائما .. العمل .. والغناء الدينى .. والأصدقاء من رجال الدين ..

ثم أخيرا الصداقة مع الشاب الفنان المصرى راتب .. كان هـذا كل ما يعنيها .. كانت هذه الجولة من الفكر حول المرحيـة ثم حول « سيمون » كفيلة بتهدئة أفكارى وسحبها نحو عالم أكثر سـهولة وبهجة .. وشعرت بالنعاس ونمت .. صحوت فى اليوم التالى نشطا خفيفا .. تناولت افطارى بشهية وارتديت ملابسى .. ثم نزلت الى الشـارع أنتظر على باب البناية لأرى سيمون قبل أن تذهب الى عملها . ولكنها لم تأت .. وذهبت وحدى آسفا الى المتحف وأمضيت الصباح كله مع سيزان .. فاحصا مدققا فى كل شىء .. وخرجت بحصيلة لا بأس بها من المعرفة والمتعة الرفيعـة فى آن واحد .. وعدت الى النزل .. وبعد استراحة قصـيرة فى غرفتى ذهبت الى غرفة الطعـام حيث كان ميعاد الغذاء قد حان . وهنـاك التقيت بالزميـل المصرى محمود قاسم وتبادلنا الحديث بعض الوقت بالعربية ودفعت الغرامة كالمعتاد ودفعها هو أيضا . وتناولت غذائى الخـالى من اللحم حيث أننى كنت قد أصبحت نباتيا فى باريس بالرغم من روعـة المطبخ الفرنسى ، وكنت آكل كل شىء ما عدا اللحـم . وكانوا يسـتبدلون باللحم لى « الاومليت » المزين « بعش الغراب » — « شامبنيون » أو بطـاطس وخضروات مسلوقة .. وكان هـذا مريحا لى فى تلك الفترة وخصوصا اننى كنت قد تخلصت من عادة التدخين .. وتغلبت ارادتى فى النهاية على تلك العادات والرغبات التى كنت أسيرا لها طوال سنوات عديدة .

فى المساء لم أر سيمون .. وحضر عندى جورج حنين وكنت لم أره منذ فترة طويلة .. وتحدثنا طويلا عن أشياء كثيرة وحدثتـه عن مسرحيـة كلوديل وعن كلوديل وعن الكتـاب الذى أهـداه الى كلوديل .. وقـال لى جورج ان كلوديل شـاعر مرموق معترف به عالميـا .. على كل حال سنتحدث عن بول كلوديل فيما بعد لانى جئت لاصطحبك الى عرض لأفلام شارلى شابلن الصامتة وميعـاد

بدء العرض قد اقترب ولنسرع لنلحق ببداية العرض • ونزلنا سـويا الى حبث العرض •• وكانت هـذه العروض تعمل لنوعية معينة من المثقفين • ودخلنا قاعة العرض وقد بدأ فعلا فلم نجد متعدا واحدا خاليا فجلسنا على الأرض فى المشى مع الجالسين •

وكان العرض ممتعا فعلا وشابلن كان أكثر من ممتاز • وضحكت كثيرا فى هـذه الأمسية •• ذلك الضحك الذى كنت أفتقر اليه •• فقد كان عزيزا فى هـذه المرحـلة من حياتى ••• ! ••• وفى طريق العودة حدثت جورج عن مسرحية كلوديل ــ فقال انه لم يرها • ولكنه قرأ تقريظا وتقديرا كبيرا للمسرحيـة نصا وآداء وموسـيقى ، وانه سيعمل على مشاهدتها • وافترقنا بعد أن شكرته على دعوته هـذه الأمسية التى استمتعت بها كثيرا ، وتواعدنا على اللقاء فى القريب •

فى اليوم التالى وفى الصباح انتظرت سيمون على باب البناية كالمعتاد ولكنها لم تأت •• فبدأ القلق يساورنى •• فترددت لحظـة فى الصعود الى مسكنها والسـؤال عنها ، ولكنى ارجأت ذلك انتظارا للمساء فقد يكون هناك عائق هين وقد تأتى الى فى المساء • ولكنهـا لم تأت •• وشعرت بأسف شديد وقلق لـما يسكن ، ان يكون قد يحدث لها تسبب فى غيابها هذا • ولكنى حسمت الأمر فى صباح اليوم التالى عندما لم ألتق بها أمام مدخل العمارة ــ فصعدت ثانية الى الطابق الذى تسكن فيه وقرعت الجرس ففتحت لى والدتها وكانت تعرفنى ــ فقد زرت سيمون فى مسكنها وقابلت والديها من قبل •• سألتها عن سيمون فأخبرتنى أنها متوعكة قليلا منذ أمس • فسألتها اذا كنت أستطيع أن أراها ، فطلبت منى الانتظار فى الردهة ودخلت الى غرفة سيمون وغابت قليـلا وقالت اذهب اليها فهى فى انتظـارك • دققت الباب برفق ونظرت الى الداخل فرأيت سيمون جالسة فى الفراش وقد أسندت ظهرها الى ظهر الفراش وغطت ساقيها بالبطـانية • رأيتها

تبتسم فى بشاشة وارتياح لرؤيتى ، فذهبت اليها وسلمت عليها وقبلتها .. وسألتها عن علتها فقالت وهى تبتسم : ليس هناك علة .. ولكنى متعبة قليلا منذ تلك الليلة عندما كنا نشاهد مسرحية كلوديل سويا . وسألتها هل أتعبتك المسرحية ؟ فأجابت بابتسامة ساخرة ، بل أتعبتنى أنت بمناقشاتك التى حيرتنى وجعلتنى اشتغل بالتفكير فيها طوال الوقت . أتعبتنى أنت بعدم اهتمامك بى ، ولم تظهر أى اهتمام الا فى تلك الليلة حينما رأيتنى متجملة قليلا وقد ارتديت ثوبا أنيقا كما قلت لى أنت . وحينما قبلتنى تلك القبلة التى تختلف تماما عن هذه التى قبلتنيها الآن أتعبتنى أنت حينما اكتشفت أنك تعجب بالجمال الظاهرى أيضا وأن مفاتن الجسد تدنيك منى أكثر من مفاتن الروح . لقد مرت كل هذه الأفكار فى خاطرى طوال رقدتى هذه ولم تبرح مخيلتى . ما هى هذه العلاقة التى تربطنى تماما بهذا المصرى الذى يشبه القاهرة التى نراها فى بعض « الكارت بوستال » المصرى .. ما نوعها ؟ . هل هى مجرد علاقة فكرية ، وهل ما جذبنى اليك وربما ما جذبك الى أيضا هو ذلك التقارب الفكرى والروحى بالرغم من اختلاف الدين ... ؟ ... وما مصير تلك العلاقة ؟ . والى أين تذهب .. ؟ .. هل هى صداقة .. مجرد صداقة .. أم حب .. ؟ .. نعم يا راتب .. كل هذه الأفكار أتعبت ذهنى ولم أجد لها جوابا شافيا .. كانت تتكلم فى هدوء ووعى تام بمعنى كل كلمة تقولها .. وكنت أنا أستمع صامتا .. منصتا لكل ما تقوله .. وقد هزنى تفكيرها وكلامها الواضح المعبر عن كل خلجة من تفكيرها .

انها تفكر فى ماهية العلاقة بيننا .. هل هى صداقة .. مجرد تقارب فكرى وروحى .. أم هى حب .. وأنا بالمثل أسأل نفسى هذا السؤال : هل هى صداقة أم حب .. ؟ وما هو الفارق بين الصداقة والحب ؟ الصداقة حب لاشك فى ذلك ولكن نوع الحب هو موضع التساؤل وليس الحب نفسه . انها صداقة بين رجل

وامرأة •• هل يمكن لهذه الصداقة أن تنمو وتظل تنمو بدون أن تنتهي بالحب الشامل المتكامل ، الجامع بين الروح والجسد . وبين الفكر والجنس ، وخصوصا وأن هـذه الصـداقة قد تمت بين شـابين حرين طليقين الا من مثاليتين تتماثلان في جزء وتختلفان في أجزاء • المرأة كاثوليكية مؤمنة •• والرجل مسلم يبحث عن الهدى •• وبين الايمان الصادق البسيط والشـك والبحث عن الهدى •• يكمن خلاف عميق • بين الايمـان الراسخ المقيم والشوق الآمل تمزق شاسـع ، بل ربما كان هناك تقارب يكمن في هذا التضاد •

كانت سيمون تتحدث وأنـا أصغي وتتردد كلماتها في مخيلتي محدثة ذلك الصـدى الفكري الذي أثار هـذه التساؤلات • وكانت كلمات سيمون تستدعي اجابة مني •• ولم أفكر طويلا في الاجابـة فقلت لها : انى أحب الجمال اينما وجد •• جمال الروح ــ جمـال الفكر ــ جمال الطبيعة •• جمال الجسد •• ان جمال جسد المرأة يثيرني دائما •• وان جمـال المرأة عموما يأخذ مني التفاتا واعجابا على الدوام ، وليس من الضروري أن يكون هـذا الاعجاب حسيا وجنسيا •• ولكني فنان يفتنني جمال المرأة في كل جزء منها •• في وجههـا وفي عينيها ، في شـعرها ، في نهديهـا ، في أردافهـا ، في ساقيها ، في قدميها ، في كل جزء منها كما ذكرت • وهـذه الفتنة والاعجاب لا يخلوان من الجانب الحسي بل هو موجود دائما ومتكامل مع الاعجاب الشـكلي • وانى أعتقد أن تكامل الجانب الشـكلي مع الجانب الحسي هو ضروري وأساسي للجمـال الذي يستأثر باعجابي خاصة ــ وبالاعجاب عامة ــ ان نهد المرأة •• في استدارته المتلئة وفي التركيبة الجميلة التي وهبتها الطبيعة له وفي تلك « الحلمة » المدلاة منه في اعتزاز •• ذلك النهد الذي أشبعني طفلا رضيعا ويشبعني رجلا مكتملا ، ذلك النهد لا يمكن فصـل استدارته الشكلية عن حسيته التي ينجذب لها كل ما فينا من أحاسيس الطفولة والرجولة معا • ان

تجريد الشكل عن حسيته ومعنوياته هو عامــل نقص وليس عامــل تكامل .. وأنــا اسعى دائما الى التكامل .

لم تدهش سيمون من اجابتي هذه التي كنت أستعين بالكلمــات الانجليزية العديدة حيث لا تسعفني فرنسيتي في التعبير .. لم تدهش سيمون وقالت : انها تعلم أن هــذه الاحاسيس موجودة عندي فهي ترى في فننا مليئا بالاحاسيس في كل ما أراه وما أفعله وما أرســمه أيضا ، وأنها ترى أن ما قلته الآن تراه هي في ذلك « الترسو » الذى رسمته بالقلم في لندن . فالشكل يتكامل فعلا مع الجانب الحسى بلا أية مبالغة في أى منهما ثم قالت انها مسرورة من حضــورى وأنهــا سعدت بذلك الحوار المفيد ، وأنها الآن في أحسن حال وستذهب الى عملها غدا صباحا حيث سنلتقي كالمعتاد .. في المكان المعتاد .

تركتها مودعا الى الغد ــ وذهبت الى غرفتي وقد قرب النهــار أن ينتصف .. وجلست انتظر ساعة الغداء وأنــا لازلت أفكر فيما قلته أنــا لسيمون .. وقد استعدت الحوار في ذهني فقرة فقرة فلم أجد فيه ما يعيبه فان كل ما قلته أؤمن به . وحينما حانت ساعة الطعــام ذهبت الى قاعة الطعــام ، حيث تناولت طعــامي النباتي كالمعتــاد ، وتبادلت الحديث العادى مع بعض النزلاء بالفرنسية .. ولم أدفع أية رامة هــذه المرة ، حيث كان الجميع من الفرنسيين ومعظمهم من السيدات . واحدة منهن سويسرية ولا تتكلم غير الفرنســية . وكنت اقتضب الاجابة بقدر الامكان حتى لا تطول الجملة واتحــاشى بدء الحديث خوفا من الوقوع في مجال « التغريم » وقرب النهاية وقبل أن أبرح المــائدة قالت « ظاظا » وهى فتاة في سن الثلاثين شــقراء وجهها مملوء بنقط حمراء .. ربما حب الشباب .. وكانت هى الموكلة بحصالة الغرامات : قالت ان الحصــالة قد امتــلات تقريبا وينقصــها بعض الفرنكات ، وأنت لا تخطىء كثيرا الآن حيث أن الانجليزيات قد رحلن ،

والعراقى لم يعد يحضر الا لماما ، وصديقك المصرى الذى يدرس الفرنسية أصبح هو الآخر حذرا للغاية ، ولا أعرف متى ستمتلىء الحصالة حتى نعمل الحفلة المعتادة ونأكل « الجلاس » ونشرب الشمبانيا ، فقد تطول المدة والشهر فى نهايته (كانت الحفلة تقام فى نهاية كل شهر) •• وكانت الحصالة قبل ذلك تمتلىء أكثر من مرة • فسألتها كم ينقص الحصالة من نقود حتى تمتلىء — فأجابت انه مبلغ لا يزيد على خمسة فرنكات • فأخرجت من جيبى خمسة فرنكات ووضعتها على المائدة وقلت الآن قد اكتملت الحصالة ويمكننا اقامة الحفل بشرط أن يكون لى الحق فى الخطأ ٢٠ مرة • ان الخطأ كان يحسب (بربع فرنك) • فضحك الجميع وأشاروا بالموافقة • واتفق الجميع على أن يكون مساء السبت القادم أى بعد ثلاثة أيام هو اليوم المحدد للحفل •

ذهبت الى غرفتى واسترحت قليلا وقد انتويت الذهاب الى الأكاديمية التى كنت أهجرها أياما كثيرة • وفى الميعاد ذهبت اليها •• ووجدت صديقتى الأمريكية « جلوجو » هناك ، فقابلتنى بترحاب كبير وعلمت منها أنها سترحل الى أمريكا فى غضون بضعة أيام ، وقد أعطتنى عنوانها وقالت أنها ستكتب الى وأنها تأمل أن أكاتبها بالمثل • فقلت طبعا سأكتب اليك وانى لن أنسى وقفتك بجانبى أبدا فى المرض وفى الصحة • وأنى أتمنى لك كل التوفيق •

هذه الفتاة الأمريكية اليهودية التى لم تعطها الطبيعة جمالا أو أنوثة قد أعطتها قلبا كبيرا عطوفا ، عوضاعن كل شىء آخر •• بالنسبة لى على الأقل • وهى بجانب هذا القلب الكبير فتاة موهوبة أعتقد انها ستنجح فى فن الاعلان على حد تصورى ، وهذا يفتح أمامها الباب لكسب العيش فى سهولة ويسر أكثر من أى فن آخر • فانى أعتقد مما أراه حولى من الانتاج الجاد للفنانين انه لن يسد

حاجاتهم الضرورية من طعام ومسكن وملبس . لقد باع « أوزنفانت » لوحته (الحياة) التى ظل يعمل فيها أكثر من خمس سنوات غير التحضيرات الأولى ـ ببضع مئات من الجنيهات ، وكان كل عزائه كما قال هو بنفسه أن فرنسا الدولة قد اشترتها لتضعها فى أحد متاحفها . وكان هـذا هو التعويض المعنوى الوحيد الذى أعطى أوزنفانت نوعا من الرضا . أما الجنيهات القليلة التى دفعتها الدولة .. فلو قسمت على عدد الأيام التى قضاها أوزنفانت فى رسم هـذه اللوحة لوجدناها لا تتجاوز الخمسة والعشرين قرشا يوميا .

وهذا هو الحال مع أستاذ كبير مثل أوزنفانت ، وعلته الوحيدة اذا اعتبرناها علة أنه جاد ولا يرضى الا نفسه ولا يستجيب لرغبات السوق ولا الى « المودات » السهلة التى يتقبلها الجمهور بغير عناء منه أو مشقة . ان له نظرية : Purism وهو يسير فى طريق رسمه هو ليطبق النظرية بالعمل والتنفيذ .

اذا كان هـذا هو الحال مع فنان كبير مثل أوزنفانت فما بال الآخرين الصغار ـ هل يمكن للمجتمع السائد الآن أن يعطيهم الأمان المادى نظير عطائهم المعنوى والفنى ؟ .. ها أنذا أقرأ عن فنان بديع مثل « جليانى » الايطالى وقد مات جوعا ومرضا ولم يجد من المجتمع الا الجحود والنكران . وهناك الكثيرون من غير جليانى .. ذهبوا ضحية الجدية والاعتداد بالنفس وعدم التبذل فى فنهم لارضاء الطبقة البورجوازية غير المثقفة . ان هـذه الحقبة من الزمن هى حقبة مجدبة قاسية بالنسبة للفن والفنان التشكيلى بالذات .

ودعت « جلوجو » وهى تهم بمبارحة المكان بعد أن ودعها جميع الزملاء ، وجاءت مدام بوكييه مديرة الأكاديمية وزوجها مسيو بوكييه لتوديعها أيضا ، وتمنى لها الجميع التوفيق ، فقد كانت محبوبة من الجميع لدماثتها وطيبتها .. ثم خرجت « جلوجو » ولم أرها بعد

ذلك مطلقا .. بل لم يصلنى منها أى خطاب كما وعدتنى ــ وكنا فى النصف الأول من عام ١٩٣٩ .

خرج الجميع تقريبا من الأكاديميـة ولم يبق سـواى وزميلة انجليزية وأخرى فرنسية وهما فى مثل سنى تقريبا . ولما كنت فى حالة « حب » « لسيزان » فكنت أحمل معى عند ذهابى للأكاديمية بعض التفاح وأضعه أمامى وأتأمله . وكنت فى معظم الأحيان وفى نهاية الجلسة آكل التفاح بمشاركة الزمـلاء . وجاءتنى الانجليزيـة وطلبت تفاحة فأعطيتها ، وبدأنا نأكل ونتحدث بالانجليزية ونشـير الى الفرنسية وكأنها لا تفهم حديثنا . وقلت للزميلة أرجو أن تعزمى على زميلتنا الفرنسية بتفاحة ، وفوجئنا بانها جاءت من فورها باسـمة وتناولت التفاحة وبدأت تتحدث الانجليزية بطلاقة تامة . وشعرنا بشىء من الحرج لئلا نكون قد قلنا شيئا يمسها على أسـاس أنها لا تفهم الانجليزية . وقد نقلت اليها الزميلة الانجليزية شـعورنا هـذا ، فضحكت وقالت لم يحدث شىء من ذلك .

وقد عقدت الصـداقة بيننا ــ بهذه المناسبة ــ وصرنا نزور المتاحف معا فى بعض الصباحات نناقش الأعمـال معا .. كل يبدى رأيه .. وكانت الصحبة حيـة ومفيدة فى معظم الأحيـان ، وكانت الفرنسية على جانب كبير من الثقافة والذكاء رغم صغر سنها ، وكنت ألمس بعدا ثقافيا جادا وراء الآراء التى تبديها عن الأعمال الفنية .. تشكيلية وغير تشكيلية .. من موسيقى وأدب وخلافه . هـذه الفتاة جعلتنى أفكر فيما نحن عليه فى مصر .. نحن الشباب فى مثل سن تلك الفتاة التى لم تبلغ العشرين بعد ــ وهى على معرفة طيبـة بالفنانين التشكيليين العالميين وكذا الموسيقيين والارباب منهم . وهى تتكلم عنهم عن دراســة وعلم . نحن الشباب فى مصر لم تكن ثقافتنا تتعدى قراءة بعض المقـالات لأدبائنا أو بعض القصص القصـيرة التى تنشر فى

المجلات ــ وكانت الرسالة والثقافة هما أهم مصــدر لثقافتنا فى تلك الحقبة ، يضاف الى ذلك بعض الروايات المترجمــة . وكان العقــاد وطه حسين والمــازنى وتوفيق الحكيم وسلامة موسى هم أئمتنا فى مجال الثقافــة وكنا نعجب بتمثال نهضــة مصر لفنــان مصر الكبير مختار ــ لا للقيم الفنية التى أودعها مختار فى تمثاله ــ ولكن الضجة السياسية الحماســية الوطنيــة التى صاحبت تمويــل اقامة هــذا التمثال كانت هى العنصر الرئيسى فى اعجابنا بالتمثال واهتمامنا به . أما الموسيقى الكلاسيكية الرفيعة فكانت ترفا لا نعرفه حتى الثلاثينات. وكانت البيئة والمجتمع المصرى عاملا غير مساعد تماما على استيعابنا ثقافة أكثر عمقا وأقل ضحالة . تلك الفتاة الفرنسية .. قد نشأت فى بيئة ومجتمع قد أعد لها الكثير من التسهيلات فى مناهل الثقافة : من متاحف وقاعات للموسيقى والأوبرا والمحــاضرات فى شتى العلوم والفنون ، كما أن وعى المجتمع وثقافتــه ككل جعل تنشئة مثل هــذه الفتــاة وتثقيفها أكثر يسرا من مجتمعاتنا المصرية والعربية .

وكان لابد لشاب مثلى أن يبذل مجهودا مضاعفا ، بل مضاعفا عدة مرات حتى يقف على قدميه على نفس مستوى تلك الفتاة . ان مصر التى أعطت الحضــارة والمدنية للبشرية جمعاء يجب أن تقف على قدميهــا مرة ثانيــة لتهب الكثير والكثير جــدا مما اكتنزتــه من روائع ــ ما زالت دفينة فى قلب كل مصرى . أودعتها الأجيال ذلك القلب ليصونها حية ، ولكن فى ثبات وجمود وتوقف ، حتى يحين الوقت ليوقظها ذلك الشباب المتعطش الواعى بتلك المدخرات الثقافية التى تجمدت على المدى الطويل .

كانت صور مصر التى أحببتها بكل قطرة من دمى تتزاحم فى مخيلتى . كنت أرى كل شىء فيها فى ضــوء جديد .. ذلك التراث الضخم من الفن التشكيلى الذى تركه لنا الأجداد والذى لم نكن

نعرفه كما ينبغي أن تكون المعرفة .. معرفة القيمة الفنيـة الكبرى لهذا الفن الرائع .. كان المتحف المصرى يعرف « بالانتيكخانة » — أى محل الأنتيكة — وكلمـة انتيكة لم يكن وقعها عندنا له أى معنى له صلة بالفن ، وبالفن الرفيع الذى أودع ذلك المخزن العتيق . ان القلة النادرة التى تعرفت على قيمـة الفن المصرى القديم فى العشرينات والثلاثينات تعرفت عليه من خـلال نظرة أجنبية غير مصرية — من خلال ما كتبـه « المصرولوجيون » الأجـانب عن كشـوفهم وتقـديرهم لمـا كشفوه من فنون وروائـع ، كانت مدفونـة تحت الأرض ، فكشفوها هم ولكنها ظلت مدفونة بالنسبة لنا نحن المصريين .حتى تلك الفئـة القليلة من الفنانين التشـكيليين الذين سافروا للدراسـة فى الخـارج — كان معظمهم يتعبدون فى محراب الفن الاغريقى بصفـة خاصة والفن الأوروبى بصفة عامة .

وحتى الآن نجد أن الغالبية العظمى من فنانينا وأدبائنا يتعبدون فى ذلك المحراب الاغريقى الأوروبى — والأوروبى المعاصر — ولكنهم لا يجادلون فى عظمة ورفعة الفن المصرى القديم ، لا لفهم حقيقى منهم لذلك الفن الرائع ، ولكن لأن أوروبا قالت بذلك من خـلال كتابها ومفكريها ومتذوقى الفن فيها ، وأحسن هؤلاء فهما للفن المصرى القديم يقف عند السطح .. عند القشور وعند الغرائب والواجهـات المظهرية لفن مصر القديم ، ولكنهم لا يجرؤون على الدخول الى الأعماق .. الى القيم الأسـمى والارفع .. الى تلك السمات الحضـارية المرهفة والضاربة فى أعمق الأعمـاق من القوة والصرحية والعظمـة مع ذلك الارهاف الحضارى الشديد الشفافية : صفاء فى النفس .. ورؤيـا للامحدود .. ونظرة الى المـافوق .. تخرجنا من صغريات الحيـاة الضيقة الى الفسحة الكبيرة التى تنقلنا اليها تلك النظرة ، التى يتسم بها الفن المصرى العريق .

وفى باريس — وفى لندن — كان للفن المصرى القديم وما رأيته

منه فى المتاحف وزن كبير كمصـدر من مصادر الثقافة ، نهلت منه الكثير لبناء النفس والشخصية وتعديل المسار السلوكى الى الأحسن والأرفع • وفى مصر أيضا لم يكن للتراث الأولى الرائع الذى خلفته لنا الأجيال المصرية والعربية ــ أثر ذو بال فى تثقيف الشباب ، لأن مناله بالنسبة لنا كان بعيداً ، ولم نحظ بأى توجيه أو ارشاد يذكر فى هذا الصدد • وحتى القرآن الرائع لقد حفظت الكثير من سوره وآياته عن ظهر قلب ــ ولكنى لم أفقه من معانيه شيئاً ــ كان الحفظ لمجرد الحفظ هو المطلوب ، وكنت أردد الآيات بلا أى مجهود لفهم معانيها • كنا محرومين من التوجيه الصحيح وكان التعليم يكاد يكون آليا •• لغاية محدودة : النجاح والحصول على الشهادة ثم الوظيفة • وكان اذا صادفنا أستاذ له تطلعات ثقافية أدبية فنية أو علمية كنا نلتف حوله على الفور •• على الأقل فئة معينة من محبى المعرفة كانت تبادر بالالتفاف حول هذا الأستاذ • وقد صادفنى أنا وبعض الزملاء بعض هؤلاء الأساتذة •• وكان سفرى للدراسة خارج مصر وشوقى الشديد للمعرفة والعلم هو من نتائج هذا اللقاء مع بعض من هؤلاء الأساتذة الأفاضل ، الذين أشاروا ولو من بعيد الى مجالات الثقافة الواسعة والمتعددة ، سواء فى تراثنا الاقليمى أو فى التراث الانسانى عامة •

واليوم وأنا استعيد هذه الذكريات البعيدة •• واستعيد ما قرأت ــ ما كتبه الأوروبيون فى تقييم الفن المصرى القديم ــ أتمنى أن يقوم البعض منا •• نحن الفنانين التشكيليين ، ومن منا له دراية فى عملية التقييم والتذوق ــ فى كتابة تقييم جديد للفن المصرى القديم من وجهة نظر مصرية • وانى أقصد بالتقييم ــ التقييم الفنى التشكيلى بمعنوياته وملابساته الحضارية وذلك من وجهة نظر جديدة عما كتبه الأجانب من جهة نظرهم هم •• أن تراثنا التشكيلى

أكثر روعة من كل ما كتبه الأوربيون عنه . وكنت ألمح فى كثير مما كتبه الأوربيون بعض القصـور فى فهم وادراك تلك الرسالة الحضـارية الرائعة التى سطرها المصريون القدماء على الحجر وبالحجر . ومازالت مناهل الحضـارة الأوربية التى نبعت من بلاد الاغريق تسيطر على فكرهم وحسهم ، والقليل منهم من استطاع التخلص من تلك السيطرة وبالتالى خفف من تعصبه لها .

ان علماء التاريخ والآثار من المصريين قد كتبوا وقيموا ، ولكن لم يستطع أحد منهم حتى الآن أن يسبر أغوار ذلك الفن العريق فى تشكيليته ومعنوياته .

ذهب فكرى بعيدا من باريس الى القاهرة .. الى مصر ومناهل الثقافة فيها ، وتلك المقارنة الصعبة بينها وبين المناهل المتاحة فى أوروبا مع ما لنا من تراث ضخم رائع خلفته لنا الأجيال السالفة ، ولم نستفد منه شـيئا نحن الفنانين التشكيليين بصفة خاصـة ، حيث ان مصر قد أودعت ثقافتها وحضارتها فى التشكيل : فى العمارة .. فى النحت والتصوير فلم تتح لنا الفرصة لتعلم كيف نقرأ لغة الشكل بعد ــ وهى لغة عالمية يفهمها الجميع .

جالت بخاطرى هـذه الخواطر كلها وكانت تشغلنى حماسـة لمـا يمكن عمله لمصر فى هذا المجال .

تركت الأكاديمية مودعا الزملاء وذهبت رأسا الى المنزل ، لم أر « سيمون » فى ذلك المساء ، ولكنى وجدتها فى الصباح على بـاب البناية فى انتظارى ، وقالت ان عندها ساعتين يمكن أن تقضيهما معى فى زيارة اللوفر اذا كنت ذاهبا الى المتحف هـذا الصباح . وقلت نعم انى ذاهب الى « اللوفر » وتسعدنى صحبتك .

وفعلا ذهبنا الى المتحف وامضينا وقتا طيبا فيه ــ كانت تستمع

سيمون الى شرحى لبعض الأعمال فى رغبة صادقة للمعرفة .. وفى هذا اليوم التقيت بسمل فنى استحوذ على مشاعرى تماما ولم آكن أعرفه من قبل ــ كانت لوحة رائعة لمريم وعيسى المسيح مسجى فى حجرها ووجهها الطاهر قد مال قليلا على كتفها اليمنى فى حزن دفين .. حزن عميق .. عميق الى الحد الذى جعلنى أرتعش لحظــة وكأن شرارة كهربائية قد مستنى .. خصــوصا وقد لمحت كفيهــا وأصابعها وقد انطبقت على بعضها متصاعدة وملتصقة فى ميل خفيف معاكس لميل الوجه وكأنهما كاتدرائيــة بأبراجها السامقــة .. ثم جسد المسيح المسجى فى حجرها وذراعه اليمنى قد تدلى بجانبه فى استسلام تام لقدره ، وتلك اليد اليسرى بأصابعها التى التفت على بعضها فى تعبير يشتم منه رائحة الموت . كانت اللوحة بأشخاصها الأربعة بينها مريم الأم و « المجدلية » المحبة ، وجسد المسيح المسجى ، والكل يغرق فى صمت حزين .. صمت لهول الصدمة يعقبه حزن جارف لا يجد مجالا للتعبير سوى ذلك الصمت المخيف .

لقد مرت بى هــذم المشاعر أمام تلك اللوحة « بييتا أفنيون » La Pieta D'avignon ولم أستطع التعبير عن مشاعرى بالكلمة ، ولكنى وجدت من الملامح التى ارتسمت على وجه سيمون أنها تشاركنى نفس الاحساس .

خرجنا من متحف اللوفر صامتين .. وبعد برهة سألت سيمون عن المــكان الذى يمــكن أن أرى فيــه أعمــالا أخرى من هــذه المدرسة ــ مدرسة أفنيون ــ انى قرأت عن هذه المدرسة وأن الكثير من انتاجها بغير توقيع ولا يعرف اسم الفنان صانعها ، وانني أحب أن أرى المزيد من مثل هذه الأعمال ولكنى لا أعرف أين توجد ــ ان بعضها فى متحف اللوفر ، ولكنى أعرف أن أعمالا كثيرة أخرى فى خارج باريس . وقالت سيمون .. نعم يا راتب سنذهب ســويا الى

ذلك المكان الجميل انه « فونتين بلو » ـ ان هنـاك قصـورا رائعة وكنـائس ومتاحف من القرن الخامس عشر ـ سنرتب رحـلة الى فونتين بلو فى الأسبوع القادم .. انه مكان جميل وبه غابات خفيفـة جميلة .. سنأخذ غذاءنا معنا ونقضى اليوم بأكمله ونعود فى المساء .. سترى ما تريد أن تراه من الأعمال الفنية وسنستمتع بالطبيعة الخلابة هناك . وأرجو أن يكون الجو صحوا فى ذلك اليوم .

قلت لها ان هـذا سيكون تغييرا جميلا بالنسبة لأنى لم أبرح باريس طيلة الشـهور الطويلة التى أمضيتها فيها ، حتى فرساى لم أشاهدها بعد .

والواقع أن فكرة الخروج من المدينة قد بعثت فى شـوقا الى الخروج الى الطبيعة الطليقة التى لم يدخلها الترتيب والتنسيق بيد الانسان .. ذلك الشوق الذى ظل خاملا فى نفسى طوال دراساتى وتأملاتى فى عطاء الانسان المحدود ـ وقد بدأ الآن يهفو الى عطـاء الطبيعة اللامحدود ـ الذى قابلته فى « برنت ايلاند » فى اسكتلندة . وفى تلك الزيارات القليلة الى « رتشموند » ـ (ضاحية من ضواحى لندن) .. فى جذوع أشجارها الضخمة العملاقة .. ثم ذلك البحر المتد الى ما لا تجـد له العين نهايـة .. وتلك الأمواج الهـادرة ، والصواعق برعدها وبرقها التى عايشتها فى « رامسجيت » .

كانت فـكرة طيبـة واقتراح جـاء فى وقتـه لعمـل زيـارة « لفونتينبلو » .. لقضاء يوم فى أحضان الطبيعة ثم مشاهدة الأعمال الفنية من مدرسة أفنيون وغيرها .. تكون متعة ذات شقين .

أعدت سيمون كل شيء من أكل وشرب وكل ما يلزم الرحلة .. وسافرنا فعلا الى « فونتينبلو » بعد بضعة أيام .. وكان الجو صحوا والسماء صافية .

رحلنا فى الصـباح الباكر ونحن على استعداد تـام للاستمتاع

بالرحلة بكل أهدافها سـواء بما سنراه من أعمال فنية أو بالطبيعـة والغابات الخفيفة التي تحيط بالمنطقة أو بالصحبة بيننا .

وكانت سيمون متوردة الوجه يرسم البشر على وجهها البسـمة والتفاؤل والانشراح .. وكانت الرحلة في القطار مريحة .. ورحنا نشاهد روعة الطبيعة وهي تبرز مفاتنها في مشاهد متغيرة ، فتارة تتألق قرية تحت ضوء الشمس الساطعة .. وتارة تستجيب لظل تغمرها به سحابة مارة فتحنو وتترفق في تلطف مريح .

وكانت حالات ومشـاهد الطبيعة هـذه تعكس علينا أحوالا مشابهة .. فكنت امتلىء فرحا ونشوة ، وتتألق نفسي مع تألق الطبيعة في الضوء الساطع ، ثم تهفو نفسي الى ذلك الترفق والتلطف والحنو كلما دخلت مشاهد الطبيعة في ظل السحاب .. وكنت أشعر بأن سيمون تنفعل مثلي بهذه المشاهد المتغيرة .. بل انى شـعرت بأنها تلتصق بي .. بل وتزداد التصاقا ، وكنت أشعر بدفء هذا الالتصاق .

وفي لحظات كان فكرى يسرح قليلا في تلك العلاقة التي تربطني بسيمون : هل هي مجرد صداقة وتقارب في الفكر .. أم أن هنـاك شيئا آكثر ينمو رويدا رويدا بيننا .

ان فكر سيمون نما كثيرا في طريق يقترب من طريق فكرى بل انى شعرت أن معتقداتها الدينية الجامدة بدأت تهتز تحت ضربات فكرى المتحرر ، حتى أنها ذات يوم قرأت على خطابا أرسـلته لها صديقتها « مدموازيل كوجو » صديقة القساوسـة الذين تعرفت بهم جميعا عن طريق سيمون ، كان الخطـاب ردا على خطاب سيمون لها بعلاقتها وصداقتها التي تنمو بيننا وبين « راتب » وجاء في خطـاب صديقتها أنها تحذرها مني ـــ بل انها شبهتني بالشيطان الذي سيخرجها من معتقداتها ودينها .. وأنها تقدرني حقا كفنان ومفكر وانسان ،

ولكن الخط الذى أسير فيه بعيد جدا عن الخط الذى يجب على سيمون أن تسير فيه ، والطريق غير الطريق .

قفزت هذه الأفكار وما قرأته على سيمون من خطاب صديقتها الى ذهنى فى تلك اللحظات وهى ملتصقة بى والقطار يسير..ان ما قالته صديقتها عنى ربما كان صادقا لو تغيرت كلمة شيطان الى كلمة رجل لا يؤمن بالجامد من الأفكار الموروثة ، ويؤمن بالتجربة والبحث وراء المعرفة الحقة المستقاة من التجربة المباشرة وليس من الأفكار والمعتقدات الجامدة . واذا كان تأثيرى على سيمون قد يدعوها الى الخروج عن جوامد الفكر الموروث فمرحبا بذلك ـ فهو فى صالحها طالما أن لها من العزم وقوة الشخصية ما يمكنها من مجابهة آلام التحول من الأخذ بخبرة الآخرين الى الأخذ بخبرتها (هى) مباشرة بفكرها (هى) وبتأملها للموروث وكذا الحدث المباشر . اننى لست شيطانا كما ذكرت « مدموازيل كوجو » صديقة سيمون فى خطابها ، ولكنى أكسب خبرتى من تأملى للحدث والتجربة ـ وكذا من تأملى لتجارب الآخرين ـ ولكنى أبحث وأمحص كل شىء بنفسى لأجد طريقى .

كانت هذه الأفكار والخواطر تمر فى ذهنى كشريط تتتابع فيه الصور .. كيف ومتى عرفت سيمون .. وكيف نمت علاقتنا التى كانت بدايتها تعلقنا نحن الاثنان بالموسيقى عامة . رأتنى ورأيتها لأول مرة فى قاعة للموسيقى كانت تعزف فيها موسيقى باخ .. الذى أحببناه نحن الاثنــان .. سهراتنا الطويلة مع الموســيقى فى غرفتى والكتب الفرنسية التى كانت تساعدنى فى فهم لغتها . زياراتنا الكثيرة لمتاحف الفن وتذوق الأعمال الفنية ســويا ومناقشة قيمتها . كل هــذا .. بلاشك قد قارب بيننا فكريا وروحيا .

والآن .. وسيمون بجانبى تلتصق بى .. تعترينى رغبة فى أن التصق بها أكثر وأكثر .

التفتت الى سيمون ونظرت فى وجهى طويلا مستفسرة عما يجول فى خاطرى بعد ذلك الصمت الذى طـال برهة ونحن نتأمل مشـاهد الطبيعة ، وسألتنى فيم كنت أفكر ؟ • فقلت لها على الفور ــ اننى كنت أفكر فيها • ولمحت حمرة خفيفة علت خديها ــ وأجابتنى بانها أيضا كانت تفكر فى •

ووصل القطار •• ونزلنا وكل منا يحمل جزءا من المتاع الخفيف الذى جلبنـاه معنا • وقصـدنا للتو الى المتحف •• ثم الى بعض القصور القديمـة حيث شاهدنا أعمالا فنيـة رائعة بلا توقيـع فى أغلبيتها ، وهى من القرن الخامس عشر • وكانت جولتنا سريعة نسبيا حيث بدأنا نشعر بالجوع •

توجهنا الى الحدائق الطبيعية •• غابات خفيفة طبيعية •• تمتد على مساحات كبيرة •• وافترشنا الأرض ، وعلى قطعة من القمـاش المشمع •• أخرجت سيمون بعض السندوتشات وصبت من الترموس قهوة ساخنة • وبدأنا نلتهم السندوتشات فى استمتاع ولذة بعد ذلك المشوار الطويل •

وبعد برهة سألتنى سيمون : انك قلت ونحن فى القطـار أنك كنت تفكر فى •• فهل لى أن أسألك ماذا جال بخاطرك عنى ؟ فقلت لها : « وكنت أتوقع منها هـذا السـؤال فى أية لحظـة » •• نعم سأجيبك •• وانى اتوقع منك أن تجيبنى أنت أيضا على مثل سؤالك• انى كنت أفكر يا سيمون فى علاقتنا منذ بدأت وقد تعانقت أفكارنـا بعد أن تمت تلك العلاقة فى خطوات حثيثة • نعم تعانقت أفكارنـا بل انها التحمت فى أحيان ومواضيع كثيرة ــ وأنت كنت تتغيرين فى نمو دائم وأنـا أيضا ــ وقد تلاقينا روحيا فى كثير من المواضيـع • والآن أنت بجانبى ومنذ لحظـات حيث كنا فى القطار وأنت تلتصقين بى وقد شعرت بالدفء يسرى فى جسدى من جراء هـذا الالتصاق ، فقد كان جسدك يشع هـذا الدفء ــ جال بخـاطرى أن هذا التوافق

والتعانق بيننا فكريا وروحيا قد يطلب التكامل فى التعانق والالتحـام الجسدى كثمرة قد نضجت فعلا وشعرت أنـا بنضوجها .. أشعرنى ذلك الدفء الذى شـع من جسـدك حين التصـق بى ... ! كان تولى هـذا تصريحا أكثر منه تلميحا وكنت جادا فى طريقـة التعبير ولم يكن فى ذلك التصريح أية مغامرة فقد كنت صادقا مع كل كلمـة قلتها . وكنت لا أتوقع أن تجيبنى هى بنفس الأسـلوب .. بنفس الصراحة ، ولكنها فاجأتنى بقولها انها تعمدت فعلا أن تلتصق بى وكانت تتمنى أن أجيبها بالمثل ، ولكن جديتى فى كل شيء كانت تخفيها قليلا . فربما لم أكن راغبا فى الاستجابة لهذا الميل الحسى — بل انها تمنت ونحن فى غمرة الانشراح فى هـذه الرحلة الجميلة ، والطبيعـة تتغير أمامنا فى بهجة رائعة .. فقد تمنت أن تلتصق بى أكثر بل وأن آخذها بين ذراعى وأقبلها . فاجأتنى سيمون بصراحتها التى فاقت صراحتى ، وكانت هى أيضا جـادة فى تعبيراتها ولم تتدلل ولم يأخـذها خجل مما تقوله على الاطلاق .. ومنذ تلك اللحظة بدأت علاقتى بسيمون تأخذ طريقا طبيعيا تماما .. فكريا وحسيا وجنسيا .. علاقة تكامل بين الفكر العلوى والجسد الأرضى .. وكأن هـذا كان محتوما منذ البداية ولكن هذا الجسـد الأرضى فى مثل هذه الحـالة لم يعد أرضيا .. فقد ارتفع الى مستوى الفـكر العلوى وأصبح الاثنـان وحدة متكاملة .. متبادلة الجذور — بين اثنين على مستوى ثقافى متقـارب .

الجنس كان مشكلة حقيقية بالنسبة لى . قبل سفرى الى لندن وفى السنة الأولى من اقامتى بها . ان الجنس مشـكلة كل شاب فى سن المراهقـة وما بعدها .. ولكنها مشكلة يسهل حلها على الكثير من الشباب بطريقة أو أخرى .. أما بالنسبة لى فقد كان حلها عسيرا .. شاقا .. على . كنت أشـعر بأننى امتهن نفسى حقيقة بتلك العلاقات الجنسية العابرة سـواء المـأجورة منها أم غير المـأجورة . وكنت

أشعر بالاستياء بعد الممارسة بأي نوع من هذين النوعين . وكنت اجتاز هـذا الشعور بالاستياء بأن هـذه رغبة غريزية وحاجة طبيعية تماما لا ينبغي كبتها . ولكن بعد فترة جاوزت العام وأكثر من دراساتي وقراءاتي وتأملاتي المتصـلة حول هـذا الموضوع ــ أدركت أن هذه العلاقة الجنسية لا ينبغي لها أن تكبت ولكن أيضا لا ينبغي لها أن تمارس على ذلك المستوى الحيواني العابر في ذلك الحين وأنـا في لندن . وعندما وصلت الى هـذا القرار وكان قرارا يتناسب مع حالتي النفسية والفكريـة .. امتنعت فعلا عن السعي لاشبـاع رغبـاتي الجنسية عن هـذا الطريق الحيواني العابر . وقد ساعد على هـذا قراءاتي وتفهمي لهذه العلاقة على مستوياتها الأرفع . قرأت قصـة للكاتب والرسـام الانجليزي « د٠هـ٠ لورنس » وكان عنوانهـا « الرجل الذى مات » ــ كان لورانس كاتبا ورساما جريئا ، وكان البوليس الانجليزي قد أغلق له معرضـا للوحاته وصوره بدعوى انها اباحية لمجرد انه يرسم العرى ممتزجا بالرغبة .. كانت القصة رمزية.. بدأت بقطيع من الدجاجات بينها ديك يمارس العمليـة الجنسية مع الدجاجات كما يشاء ولأى عدد منهن .. والمشهد الثاني كان لعبد من العبيد يغتصب جارية ويمـارس معها الجنس علنـا وفي حوش الدجاج . أما المشهد الأخير فكان عيسى المسيح وقد عـاد الى الحياة الأرضية ومارى المجدلية تطيب له جروحه بدهانها بالزيت وتعتني به حتى تصح جروحه وتلتئم ، ويصح هو ، ثم تنتهي القصـة بأن يعيش المسيح حياة جديدة ناجحة جنسيا مع مارى المجدلية على ذلك المستوى الرفيع بين رجل ارتفع الى أن يخلق (الرائع) وبين امرأة قد كرسـت له كل الحب والرعاية . جاءتني هـذه القصـة على « الطبطاب » كما يقولون فتبينت قرارى وتفكيرى ، وأن ممارسة الجنس ينبغي أن تكون على مثل هذا المستوى الرفيع .

وكانت مشاهد القصة الثلاثة .. علاقة الديك بدجاجاته واغتصاب

العبد للجارية فى حوش الدجاج . ثم تلك العلاقة الرفيعة بين المسيح ومارى المجدلية — كانت توضح تماما الفرق بين المستويات لتلك العلاقة . وقد ساعدنى أيضا فى التسامى بتلك الرغبة انهماكى الجاد فى الدرس وفى المتحف وفى الكتاب .. كما أخذتنى قراءاتى عن التجارب الدينية والتصوف الى أمانة روحية وفكرية . أخذتنى بعيدا عن تفكيرى السابق فى الجنس والجرى وراء الاشباع على ذلك المستوى الرخيص — ولو أنه لم يكن يبدو لى رخيصا فى ذلك الوقت .

فى باريس وبعد تلك الرحلة الى « فونتين بلو » .. استقرت علاقتى مع سيمون فى تكامل تام . ولكن لم يمر على هذه العلاقة المتكاملة أسبوعان حتى فاجأتنى سيمون بشىء لم أكن قد أعرته اهتماما ، وهو وجودها — أى سيمون — شبه الدائم معى فى حجرتى فى معظم الأمسيات وبقاؤها معى الى ساعة متأخرة . فاجأتنى سيمون بهذا قائلة : انه يجدر بنا أن نجد لنا مكانا مستقلا نعيش فيه أمسياتنا معا ولتجد أنت المكان المناسب لك ولعملك ولاستقرارك بل أنها قامت بالبحث عن مرسم للايجار وقد اشترت كل معداته من فنان يابانى كان يقطنه وهو راحل الى بلده ، وبدأت تعد هذه المعدات من حوامل للرسم وفرش وألوان وكنفاش وشاسيهات « خشبية » .. وكنبة سرير كبيرة .. الخ .. الخ .

فاجأتنى سيمون بكل هذا مرة واحدة وهى تتحدث عن أمر واقع فعلا وعلى أن أتقبله بغير تردد . وكان وقع كلامها غريبا على ولم أستطع استساغته فى اللحظات الأولى .. وتولانى صمت شديد .. ولم أقل كلمة واحدة ، وكانت هى تنظر الى فى استغراب .. وهى تنتظر أن أقول شيئا .. وبعد فترة من الصمت قلت لها .. سيمون .. انه لم تدر فى خلدى اطلاقا فكرة الزواج . اذ وأنا فى هذه الآونة بعيد جدا عن امكانية تكوين أسرة أو استقرار عائلى — اننى دارس فن . ودارس الفن الجاد سيظل دارسا للفن مدى الحياة — وقد

لا تتاح له الفرصة ــ ماديا على الأقل ــ فى الزواج والاستقرار العائلى بمفهومه المعتاد . وخصوصا وأنا لست موسرا ، وأعتقد أن الانتاج الفنى الجاد لايمكن معطيه من أى ثراء أو رخاء فى العيش .. قلت هذا وصمت ناظرا الى عينيها استشف أثر كلامى هذا عليها . ابتسمت سيمون .. قبلتنى .. قائلة .. انك يا راتب قد ألمحت الى ذلك مرارا وذلك بالنسبة لفكرة الزواج وتكوين أسرة . وأنى قد وعيت هذه التلميحات بل انك قد أبديت رأيا صريحا فى أن حياتك ودراساتك والطريق الذى تسير فيه يدفعك الى نوع من الزهد فى الحياة الأسرية الرتيبة بل فى الذهد فى كل ما هو رتيب ، وان حياتك فى سنك المبكرة قد أملت عليك الكثير من هذا الشعور .. وذلك كما حكيت أنت بنفسك .. بل اننى ألمح فيك نزعة الى الزهد فى كل المتع الدنيوية المعتادة التى يحبها كل الناس . وانى أردت أن احيطك بجو مستقر نسبيا لتعمل فيه براحة أكثر .. اننى أؤمن بأنك فنان جاد وتسعى الى عطاء جاد والى مستويات ثقافية عليا ، وانى أحببتك يا راتب لهذا كله وأردت أن أحيطك بكل ما ييسر لك حياتك فى باريس ، ولم أفكر لحظة فى مسألة الزواج هذه بالنسبة لك أو بالنسبة لى ــ فى هذه الآونة بالذات ــ ان كل تفكيرى كان منصبا عليك ان تجد الجو المناسب المستقر لدراستك وعملك .

كانت كلماتها تنساب من فمها بتمهل وتركيز تؤكد اخلاصا ووفاء وحبا نادرا بغير غاية أو هدف شخصى . وشعرت فى تلك اللحظة أن فى كلماتها هذه أيضا ــ بادرة واضحة للتحرر .. التحرر من معتقداتها الدينية الكنسية الجامدة ــ اعترانى صمت بعد سماع كلماتها ، وأظن أن ملامحى قد نمت عن أسف أو حزن بدا لسيمون .. فجلست ملتصقة بى تحاول أن تفهم « لماذا هذا الحزن الذى ارتسم على وجهى وذلك الصمت .. هل اساءت هى التعبير أم أن كلماتها قد ساءتنى فى شىء ؟ » .. همست سيمون بتلك الكلمات

متسائلة .. قلت .. كنت استرجع أحداث الشهور التى مضت منذ بدأت علاقتنا .. والآن أنت تعطين كل شيء بسماحة وصدق للمشاعر .. ولا تسألين مقابلا لعطائك . ان علاقة كل رجل وامرأة ينبغى أن تنتهى بالزواج الذى يعترف به المجتمع ، ولكنك أنت تتنازلين عن حقك وتنزلين على رأيى المتحرر . وما هو مصير علاقتك بالكنيسة ؟ .. وماذا ستقولين للقس عند « الاعتراف » ؟ .. هذا ما جال فى خاطرى يا سيمون وشغل تفكيرى . قالت سيمون بتصميم ان العطاء متبادل بيننا لقد أعطيتنى الكثير والكثير جدا .. ألم تلحظ التغير الكبير فى شخصيتى منذ أن عرفتك ... ؟ ... اننى انسانة أخرى غير تلك التى عرفنى بها أصدقائى ومعارفى من قبل . ان الكثيرين منهم وخصوصا « مدموازيل كوجو » واثنين من القسس الذين عرفتك بهم من قبل قد نبهونى أكثر من مرة اننى أنزلق الى طريق منحدر لا يستهدف الغاية المرجوة : الدين وتعاليم الكنيسة .. ولكن واحدا من القساوسة الثلاثة .. ذلك الذى كان يجب أن يناقشك دائما فى الفن والدين والحياة عموما .. هذا القس .. كان يعلم بنمو علاقتنا وكان يبارك هذه العلاقة . انه يحبك ويقدرك ويعتقد أنك ستصل يوما الى تحقيق الكثير . كان يقول لى ان الحب يطهر النفس ويرتفع بالانسان الى المستوى الذى يتفوق فيه على نفسه .

وانى أشعر الآن أننى على ذلك المستوى الروحى الذى اتفوق فيه على نفسى .. بل أننى فعلا قد تفوقت على نفسى .. وعلى تلك المعتقدات الجامدة التى كانت تسيطر على .. سأقول خبرا جديدا .. اننى لم أعد أذهب الى الكنيسة لأصلى بانتظام . ان صلاتى أصبحت بين جدران حجرتى .. فى الشارع .. فى الحديقة بين أحضان الطبيعة .. كل خطوة أخطوها كانت صلاة ..

هذا كان من عطائك .. وانى لأشعر بصفاء وفرح داخلى يتجدد

دائما .. على مر الأيام معك .. وبالمشاركة الفكرية التى نمت وتنمو وتتجدد على الدوام .. كان هـذا قدرى .. لم أكن أتوقع فى يوم من الأيام ما حدث اليوم .. التقى بشاب مصرى .. فنان .. يبحث فى كل اتجاه لكى يحقق ذاته .. هـذا اللقاء .. قد غير حياتى تماما . اننى أشعر بأن علاقتنا هذه كانت محتومة وجاءت فى انسجام تام مع نفوسنا المتفتحة للمعرفة .. أنت أيضا قد تغيرت يا راتب .

كانت سيمون والكلمات تتدفق من بين شفتيها هادئة تماما تزن كل كلمـة وتضغط عليها فى تأكيد واضح لايمانها بكل ما تقول .. كنت أستمع اليها وأنـا سعيد لمـا أسمع ــ خائفا مما أسمع ــ لقد تغيرت سيمون بالفعل وسريعا فى شـهور معدودة .. أمكنهـا أن تغير محور حياتها .. ذلك المحور الذى كان يشـدها الى نوع من الايمـان المطلق بالدين بذلك المفهوم الكنسى التقليدى المحـدد .. ذلك الايمان الذى أعطاها استقرارا روحيا بسيطا ، يكفى لممارسـة حياتها الدنيوية بغير قلق أو شك فى معتقداتها الروحية . انها تمارس الغناء الدينى والعزف على البيانو ــ تلك المقطوعات الروحية الرائعة التى نسجها « باخ » العظيم من خيوط الفكر والروح والايمان .. كانت سعيدة فى حياتها .. تمارس حياتها الدنيوية فى سهولة ويسر .. بل فى انشراح وسعادة تامة ، مستندة روحيـا الى تعاليم الكنيسـة التى بلورتها الأجيال وأصبحت ملجأ روحيا آمنا لعامة الناس .

حينما عرفت سيمون فى مبدأ الأمر .. كانت تسير دائما فى مشية جادة ولكنها فى بشر دائم .. فقد كانت فى اطمئنان تام للجانب الروحى من حياتها ، وقد أعفتها الكنيسة ومعتقداتها من أى شـك قد يدعوها للبحث والتأمـل فى مسـتويات روحيـة أعلى . كانت الكنيسـة الكاثوليكية وتعاليمها هى المحور الروحى والدعامة الثابتة التى تدور حولها حياة سيمون .

قلت انني اكنت سعيدا لأن أسمع هـذه الكلـمـات التي قالتهـ سيمون ــ وكنت أيضا خائفا لنفس تلك الكلمات •• ان كلماتها هذه قد هدمت ركنا مهما فى معتقداتها الروحيـة • وبدا لى ان محور حياتها قد تغير •

لم تعد الكنيسة وتعاليمها تكفى لاشـباع سيمون روحيـا . ومعنى هذا أنها انتقلت الى محور آخر •• أو أنها على وشك أن تنتقل الى محور آخر • هـذه الفترة •• فترة الشك فى محور ايمانها الروحي التى تكاد تفقده •• هى فترة خطيرة ــ لقد مررت بها أنـا شخصيا •• وأنـا الآن فى صدد البحث والتأمل ، لأجد طريقى الى الأمـان الروحى ، الذى لم أجده فى المعتقدات التى ورثتهـا وليدا ويافعا • وأنـا الآن أمسح « السبورة » شابا ، وما كتب على هـذه السبورة بغير وعى منى أو ارادة •• انتى أحـاول كل يوم أن أمحو سـطورا لكى اسطر غيرها •• بضـع سطور محـلاة •• موروثة •• أبدلها بسطور أخرى مدروسـة نتيجة تأمل جديد ودراسة • انتى أكتب سطورا على سـبورتى بنفسى اليوم •• أبحث ما ورثتـه من معتقدات وقيم •• وأضعهـا تحت الفحص الدقيق •• بالعقـل •• بالوجـدان •• بالتـأمل العميق •• أقبل منهـا ما يستسيغه العقل والوجدان •• وأرفض ما غير ذلك • انتى أحـاول أن ارتب البيت وأضع لنفسى مقياسا للقيم •• من تجاربى الشخصية وكذا من تجارب الآخرين الذين قـدموا لى خبرتهم من خـلال أعمـالهم سـواء : بالكلمة •• بالنغم أو بالتشكيل • انها كلها مناهل للثقافة تبنى دائما •• تبنى ذلك المقياس للقيم الذى بدونه لا أستطيع التقدم الى الأمام فى النقد الذاتى وبالتالى فى تحقيق الذات • لقد خفت على سيمون •• ان الطريق الذى أتبعته أنـا شاق وطويل وخطير أيضا •• وهى تثق بى •• لقد أحبتنى •• هـذا صحيح •• ولقد أحببتها •• ولكن كان هدف حبها هو (راتب) ولكن كان هدفى أنـا لم يكن (سيمون) ••

انها صديقة وعزيزة لدى جدا .. ولكن هدفى كان أعلى من ذلك .. انني كنت أبحث عن نفسى داخل نفسى .. وانى أدرك خطورة ذلك الطريق .. ومن هنا كنت أخاف على سيمون لأنى كنت أحبها وأنى لم أكن هدفا ثابتا لها ، فهى تعرف ــ وقد أكدت لها ذلك ــ اننى قد أرحل ذات يوم عنها .. وأن طريقى هــذا الذى أسير فيه الآن قد يبعدنى عن أية امرأة .. هــذا كان تفكيرى فى ذلك الحين .. لقد أخفيت خوفى هــذا عن سيمون وقلت فى نفسى انهــا على مر الأيام ستتعلم مشقة الطريق ، واذا ما غاب عنها « راتب » فى يوم من الأيام فهى تعرف طريق العودة تماما .. العودة الى أحضــان الكنيسة الكاثوليكية .. ولأدعها تسير التجربة الجديدة فهى تجربة ــ كما أن لها مخــاطرها ــ فبالتأكيد لها فوائــد .. فهى تفتح الأبواب لقيم جديــدة .

جاءت الأجازة الدراسية .. وجاءتنى سيمون تقترح أن نذهب سويا الى « بريتانى » ... مقاطعة من مقاطعات فرنسا ، وذلك خلال أجازتها فى شهر أغسطس « سنة ١٩٣٩ » ، حيث لها أقارب هنــاك ويمكننا الاقامة معهم اذا شئنا .. فقلت لها اننى أفــكر فى الرحيل منذ الآن الى « شارتر » لدراســة الكتدرائية الرائعة التى قرأت كثيرا عنها الكثير ، ولم أشاهــدها بعد ، ويمكنهــا هى أن تلحق بى اذا شاءت عندما تحل اجازتهــا فى أغسطس وعندما تأتى الى شــارتر فيمكننا التفكير فى مسألة « برتانى » هــذه ولم ترض سيمون عن هذا الترتيب قائلة اننى سأبعد عنها مدة طويلة ، وانها تفضل أن أظل فى باريس حتى أغسطس ونرحل معا .. ولكنى كنت قد عزمت فعلا على الرحيل وحدى لكى أعيش مع نفسى بعيدا عن سيمون وعن أى مؤثرات أخرى حتى أجد العزلة التى أنشدها للتأمل والدرس .

أعددت كل ما احتاج اليه من ملابس وغيرها تكفى لمدة الاجازة

الصيفية فى حقيبة ، ومعها كتاب واحد عن تاريخ الفن « لالى فور » الجزء الثانى عن فن القرون الوسطى .

كما أخذت صندوق ألوانى وحامـلا خفيفا وبعض اللوحـات الخشبية (ابلكاش) وفى عزمى أن أخرج الى الطبيعة أجرب حظى فى رسم (المناظر الخارجية) Landscape متمثلا « بسيزان » الذى كان يملأ على تفكيرى تماما فى هذه الحقبة من الزمان .

وفعلا رحلت بعد أن ودعت سيمون ووعدتها بان أكتب اليهـا بمجرد أن استقر فى عنوان ثابت لاقامتى .. سافرت الى شارتر .. لم أجد سكنا فى شارتر نفسها .. بحثت فى قرية مجـاورة لا تبعد عنها كثيرا .. لم أجد الا حجرة صغيرة مظلمـة ملحقـة « بقهوة » يؤمها العمال لشرب القهوة والنبيذ وتناول طعامهم البسيط .

فراش حديدى قديم . دولاب لا يمكن فتح ضلفته بدون أن تسقط .. ثم أجد عناء فى اعادتها الى حالها فى كل مرة .. فقررت أن أترك الدولاب مفتوحا والضلفة بجواره ليس الا .

كرسى أعرج بثلاثة أرجل لا يرى وضعته مستندا الى الحـائط حتى يمكننى الجلوس عليه اذا كان لابد من الجلوس .. وفى المساء وعلى ذلك السرير الخشن يبـدأ البعوض الفرنسى الذى فقد كل صفات فرنسيته فى الأناقة واللطف .

يبدأ فى اللدغ بغير استئذان وكأنه يدافع عن وطنه .. تلك الغرفة المظلمـة التى لا أظن أن هنـاك انسانا غيرى قد اقتحمها على ساكنيها من « الناموس » من قبل .

قبلت السكنى فى هذه الغرفة على مضض لانى لم أجد غيرها أولا ولأن صاحبتها ــ وهى صاحبة القهوة أيضا ــ وعدتنى بتقديم بعض الوجبات الساخنـة من وقت لآخر ، وذلك بجـانب رخص الأسعار سواء للغرفة أو للوجبات .

كان غرضى الأول هو العيش بجانب تلك العمـارة الدينيـة الرائعة ـ « كتدرائية شارتر » التى بنتها أجيال وأجيال على مدى مما يقرب من القرنين من الزمان •

كنت مشوقا الى هذه التجربة •• معايشة أعظم أثر معمـارى فى أوروبا من العصر القوطى • كنت أبدأ يومى فى شـارتر عند أول ضوء ـ كما يقول العسكريون • أولا لأهرب من لدغات البعوض ، ثم حقارة الغرفة والرائحة التى كانت تنبعث من جدرانها الرطبة • لم أر فى حياتى أحقر من هـذه الغرفة ولم أعرف السبب الحقيقى فى قبولى الاقامة فيها بالرغم من المبررات التى ذكرتها من قبل •• هل هى المرأة الطيبة صاحبة القهوة والمكان التى عاملنى برقـة وطيبة قل أن أجدها فى غير أهل الريف الطيبين ؟ أم هى تلك القهوة التى كنت آخذ مكانى فى أحد أركانها حيث كنت أتناول طعـامى من بيض وخبز وجبن وبعض الخضروات والفاكهة ، وذلك الثمن الزهيد جدا الذى كانت تتقاضاه صاحبة المنزل ، أم جلستى التى قد تطول لشرب كوب من القهوة بعد الغذاء ـ لا حبا فى القهوة ـ ولكن لأشاهـد هؤلاء النفر القليـل من العمال الذين يأتون لتناول غـذاءهم فى القهوة •

زجاجة من النبيذ ـ ورغيف كبير من الخبز الأسمر ـ قطعة من الجبن •• ومطواه كبيرة فى يد كل منهم ليقطع بها شرائح الخبز والجبن يلتهمها ولكن فى بطء وتأن •

أذرعـه مفتولة قوية وأصابع اليد فى خشـونتها تقبض على السكين لتقطع شرائح الخبز •• كل اصبع له دور معين فى القبض على السكين •• وتلك الوجوه التى لفحها الهواء والشمس •• كل هذا كان يشد انتباهى تماما ـ متأملا ايـاه فى كل حركة وفى كل ايماءة من أحدهم •

كانوا يتحدثون فى أمور تهمهم وهم فى شبه سعادة موقوتة بانتهائهم من تناول ذلك الطعام والشراب البسيط .. كان فكرى ينتقل الى قريتنا « المنيب » بالجيزة .. والفلاح المصرى البسيط وقد انتهى من عمله فى الحقل عند الظهر وجلس يستريح فى انتظار طعام الغداء .. حين تحضر زوجته أو ابنته « المشنة » وقد امتلأت « بالبتاو » ، الخبز الفلاحى الأسمر المصنوع من الذرة ثم صحن « المش » وفحل أو فحلين من البصل .. وقلة الماء التى يجرع منها ما يشاء حتى يرتوى بعد أكلة سعد بها عن قناعة لاشك فيها .

ملامح الانشراح والسعادة « العابرة » التى تبدو على وجوه هؤلاء العمال فى فرنسا .. فى شارتر .. وهؤلاء الفلاحين فى قرية من قرى مصر .. بعد الانتهاء من عمل وتناول وجبة بسيطة .. أثارت فى .. فى نفسى .. فى فكرى بل فى وجدانى كله الذى كنت أعيش به فى تلك الحقبة الزمنية .. كانت تثير الكثير من التساؤلات .

هذه الطبقة الكادحة من العمال والفلاحين .. تجد متعة كبيرة فى هذا الطعام البسيط بل ان علامات الاستمتاع قد تجد سبيلا الى ملامح وجوههم بين الفينة والفينة ولكنى كنت أشعر وأنا أراقبهم أنه استمتاع « مكتوم » .

أنا شخصيا أتناول طعامى عدة مرات فى اليوم ولا أشعر بأية متعة ، سوى أن أسد جوعى فى أسرع وقت ممكن لأفرغ لشىء أكثر أهمية وأكثر متعة .. ربما لقما ، ان تناول الطعام فيه متعة حسية لاشك فيها ان مضغ وابتلاع « لقمة » سائغة يقبلها الذوق .. هو استمتاع حسى .

ولكن هؤلاء العمال والفلاحون .. ان انشراحهم وسعادتهم

المكتومة أثناء تناول الطعام تأخذ شكلا آخر غير الشكل الحسى .. انها أكثر من ذلك بغير شك .

ان هناك سرورا وفرحا ما يسرى فى نفوسهم مما جعل الاستمتاع بالطعام أكثر من متعة حسية . نعم .. انه العمل .. ان كلا من هؤلاء الرجال قد أنجز عملا ما يشعر فى قرارة نفسه وربما بغير وعى كامل منه ــ بأنه أدى شيئا مهما لنفسه ومجتمعه .. انه ليس سلبيا مثلى وأنا فى تلك الحقبة ــ انه ايجابى منتج ، ولذلك فهو سعيد بقناعة .

وفى تلك اللحظة التى نعت نفسى بالسلبية بغير وعى كامل بدأت أفكر حول هذه السلبية ، ولماذا هى سلبية هل أنا الآن أعمل ؟ هل أنا الآن منتج ؟ ماذا أعمل وماذا أنتج ؟ ..

لقد جئت لهذه القرية « شارتر » لكى أعيش فى كنف كاتدرائيتها الرائعة استمتع بمشاهدة كل ما فيها من روائع العمارة والنحت التى أنتجها عقل ووجدان شعب بأسره .. شعب فرنسا الذى أودعتها تلك الصفوة الممتازة من الفنانين والعمال الذين قاموا بهذا العمل الجبار .

الاستمتاع بالمشاهدة .. عملية سلبية ؟ فى فترات الراحة من المشاهدة كنت أذهب الى حديقة صغيرة وراء الكتدرائية ملحقة بها وهى تطل على منظر جميل والجأ الى كتاب رائع لكاتب فنان رائع هو « الى فور » والكتاب كان عن تاريخ الفن : الجزء الخاص بالعصور الوسطى وكنت أعيش مع الكتاب والكاتب فترات طويلة ، ثم أجد نفسى محتاجا الى الراحة .. فيذهب بصرى بعد أن أضع الكتاب جانبا الى المنظر الجميل الذى أطل عليه من حديقة الكتدرائية وقد ينسحب بصرى من الطبيعة الى عمارة الكتدرائية مرة أخرى .. المشاهدة والقراءة « عملية سلبية » ولكنى ذكرت أننى أخلد الى

الراحة من المشاهدة الى الكتاب ، وأخذ الى الراحة من الكتاب الى الطبيعة ثم العودة ثانية الى المشاهدة للعمل الفنى .. اذن فالعملية ليست كلها سلبية بل أن مجهودا ذهنيا ووجدانيا يبذل بالرغم من كل شىء وهذا ايجابى بغير شك .

صحيح أن المشاهدة والدراسة للعمل الفنى والقراءة الجادة هى عملية استقبال وليست عملية عطاء وخلق فى حد ذاتها ، ولكنها ايجابية ومجهدة اذا أردناها كذلك ، وسلبية ومريحة اذا أردناها كذلك أيضا .

ان بين العطاء والخلق وبين الاستقبال والأخذ فارقا لاشك فيه ولكن الاثنين فى جديتهما محتاجان لمجهود ايجابى .

عشت شهرين كاملين فى شارتر . مع الكتدرائية ــ مع الكتاب مع محاولات خفيفة لرسم المناظر الريفية فى فترات متقطعة باللون ، وسيزان العظيم لا يبرح مخيلتى بفسكره ، واستعماله لعنصر اللون لتحقيق أروع ما حققه اللون فى فهم الطبيعة .. بشفافية تظهر الجوهر الكامن فى كل ما يعالجه من تفاحة من شجرة من جبل ... الخ .

كان استعمال سيزان للون حافزا قويا لى لأبدأ من جديد فى محاولة لفهم عنصر اللون عنده ومحاولة تطبيق هذا الفهم ! .. لقد فشلت فى استعمال اللون فى بداية دراستى عند « أوزنفانت » فى لندن .. ولكن فى باريس وعند « فرناند ليجيه » شعرت ببعض النجاح فى محاولتى الأولى ، وقد شجعنى زملائى على المضى فى التجربة على كل حال .

أعتقد أننى بدأت التجربة جادا فى محاولاتى مصمما على المضى حتى أحقق بعض ما فهمته من سيزان وغيره من المصورين الكبار : أمثال فيلاسكويز الأسبانى ومانيه الفرنسى وغيرهم .

كانت الحصيلة بضع لوحات صغيرة بالألوان الزيتية على خشب الأبلاكاش لحقول القمح المجاورة لشارتر • وكان انهماكي الشديد في رسم هذه اللوحات من الطبيعة مباشرة مدعاة لنوع من السرور والانشراح الداخلي الصامت •

انها كانت بداية واعدة •

كانت مشاهداتي الدارسة لكتدرائية شارتر تركز على خاصتين اثنتين في معظمها : النحت والعمارة •• ولكن تلك التجربة الصغيرة التي خضتها مع اللون أمام حقول القمح •• جذبت انتباهي أكثر وأكثر لتلك النوافذ الزجاجية المرسومة في الكتدرائية •• كنت قد شاهدتها مرات ومرات ، ولكن بعد أن مستني جاذبية اللون أثناء ممارستي له فبدأت نظرتي لهذه النوافذ تأخذ مني اهتماما أكثر وأكثر •• كنت أعيش داخل الكتدرائية وقتا أطول مع هذه الرسوم الملونة ، وذلك الضوء الخافت الذي ينبعث منها في جلال ورهبة منصبا على تمثال للمسيح ــ مصلوبا •• ثم ذلك الانسان الذي انطرح على وجهه تحت أقدام المسيح في شبه غيبوبة •• يصلي •• ربما •• أو يستمع الى حديث متبادل بين نفسه وضميره • ربما •

انه يؤمن •• وهذا يكفي ! لاحظت أثناء تجوالي داخل الكنيسة أن بعض النوافذ غير موجودة •• وهذا ما لم ألحظه من قبل •• ولكني رأيت بعد ذلك عمالا ينزعون النوافذ واحدة تلو الأخرى بعناية فائقة •• انها كنوز لاشك في ذلك •• وقلت في نفسي انهم ينزعونها لينظفوها أو ليرمموها ! ولكن ألم يكن يجدر بهم أن يقوموا بهذه المهمة وهي ثابتة في أماكنها تجنبا لأية مخاطرة للكسر أثناء نزعها ثم اعادة تركيبها • وقف تفكيري عند هذا الحد •• لم أحاول أن أفهم أكثر من أنهم ينزعونها في عناية تامة وهذا يرضيني •

وفى خـلال عـودتى من الكتدرائيـة الى حجرتى فى القريـة المجاورة ــ كنت ألمح يافطات خطت عليها بضـع كلمات كانت تشغل تفكيرى برهة ثم أنساها ، لانشـغال فكرى فيما شـاهدته اليوم ، أو قل ما وعيته مما شاهـدته ولكن كانت تعترضنى يافطـة أخرى بنفس الكلمات مع اختـلاف بسيط فى الأرقـام وكان ما كتب على اليافطة لا يزيدعلى ثلاث كلمات « مخبأ لأجل أربعين » ثم يتغير الرقم فى اليافطة التالية الى « ستين » •

لم أستطع فهم ما تعنيه هـذه اليافطـات •• مخبأ • ؟ ••• لمـاذا هذه المخابىء ؟ ولمن هى ؟ ••

طوال مدة اقامتى فى « شارتر » التى جاوزت الشـهرين لم يخرج تفكيرى عن تأمل تلك التحفة المعمارية والمتكاملة من العمارة والنحت والتصـوير •• والتى لا تبزها تحفـة أخرى فى أوروبـا بأسرها •• ان أجيالا عديدة متلاحقة من الفرنسيين أودعت أحاسيسها وقيمهـا وجسـدتها فى عمل جمـاعى رائع بز كل عمل آخر غيره • لم أكن أقرأ الصحف ولم أكن اهتم بالأخبـار السياسـية أو غـير السياسـية •• كل اهتمامى كان ينصب على « شـارتر » وكتـاب « الى فور » حتى جاءتنى صاحبة الحجرة التى أسكنها فى اليوم التالى بخطـاب ، لم يكن أحد يعرف عنوانى سـوى « سيمون » ففتحت الخطـاب ، قرأته وعلمت ببساطة تامة لمـاذا تنزع نوافـذ « شارتر » ولمـاذا هذه اليافطات تعلن عن « مخـابىء » •• انها الحرب ! ••

طلبت منى سيمون العودة فورا الى باريس •• لمـاذا •• انها الحرب ، وربمـا سأضطر الى العودة الى مصر •• ! نعم ربمـا لن يستطيع أبى وأخى ارسال أية نقود لى فان الطريـق سيغلق بحرا وجوا •• هذا لاشك فيه •

اذن فمن الصواب أن أعود فورا الى باريس لتدبير الأمر .. سواء بالرحيل الى مصر أم بغيره .. ان الحرب لن تطول فى هذه المرة .. هكذا كنت أظن ، فقد ارتفعت أدوات الدمار بارتقاء التكنولوجيا فى العالم الغربى .. وأن هذه الأدوات المتطورة لكفيلة بالقضاء على الملايين من البشر فى طرفة عين .. ولن تمر شهور قليلة حتى ينتهى كل شيء .. الى الخراب .

ولكن اذا انتهى كل شيء .. الى الخراب . فما لوجودى فى باريس « عاصمة النور » كما يسمونها — أى معنى .. وهل يمكن لتلك الشعلة المتوهجة فى ضمير ذلك الشعب الرائع الذى ابدع « شارتر » وغيرها من الأعمال ذات القيم الرفيعة — هل يمكن لهذه الشعلة أن تنطفىء ؟

انى أشعر بضيق شديد كلما اقترب تفكيرى من ذلك المصير الذى يتهدد تلك الشعوب العظيمة التى فكرت وأبدعت تلك القيم الرفيعة التى تعيش عليها وفيها الانسانية جمعاء .

الحرب معناها القتل مع سبق الاصرار .. القتل للملايين .. الحرب يخطط لها على المدى الطويل طبقة من التجار ... تجار السلاح وآلات الدمار .

يصدر قرارها طغم من السياسيين ذوى الأطماع فى التوسع .. والمجد .. والجميع يجدون من الحجج ما يبرر الجريمة .

انى أشعر بثقل فظيع يجثم فوق صدرى حتى يكاد أن يكتم أنفاسى كلما جنح بى الفكر والخيال الى ما سيصير اليه العالم من خراب ، ليس فقط خراب مادى ولكنه خراب نفسى وخلقى يستمر أثره أزمنة طويلة ، حتى تتمكن الشعوب والأفراد من رأب ذلك الصدع الذى أصابها جسديا ومعنويا .

وكنت أسير فى شوارع شارتر أراقب سلوك الناس وانفعالاتهم تجاه ذلك الدمار القادم .. ولكنى كنت أفاجأ دائما باللامبالاة تسود ملامح الأفراد .. لا انفعال و لاخوف ولا حتى علامات تشير الى شيء من هذا .

فقط كنت ألاحظ أن الكل يسعى لشراء ما يمكن تخزينه مما يحتاجون اليه من مواد غذائية أو غيرها ، وخصوصا « القهوة » « البن » . وهذه كانت ظاهرة لفتت انتباهى فالكل تقريبا يشترى البن وبأية كمية .. لم أعرف السبب ، فقد كان السبب بعيدا عن تفكيرى فى ذلك الحين .

حزمت أمرى وحزمت حوائجى القليلة ورحلت من شارتر التى شدتنى طوال شهرين كاملين .. متعبدا فى ذلك المحراب الرائع.. محراب الفن والعمارة .. محراب الفكر والتأمل . بين عمارة شارتر وفكر « الى فور » ثم ذلك الوارد الجديد .. الحرب .

رحلت الى باريس ومازال فكرى وحسى كله فى شارتر .. عدت الى حجرتى ولم أكن قد أخبرت « سيمون » بتاريخ عودتى ولكنى علمت من أهل المنزل أنها كانت تسأل عنى يوميا فى الآونة الأخيرة .. وفعلا لم ينته اليوم حتى دق جرس التليفون ونادونى لأسمع كلمتين اثنتين من سيمون .. انها حاضرة الى .

حضرت سيمون .. وكان عناق طويل .. صاحبه شعور خفيف من الخوف من ناحية سيمون ، ولكنى لم أفهم له سببا فى تلك اللحظة .

تحدثنا طويلا عن رحلتى الى شارتر ، وقد تجنبت سيمون الحديث عن الحرب حتى اقتربت لحظة انصرافها وقالت لى أنها ستلقانى فى صباح اليوم التالى ، وسنتكلم عن الخطوات المقبلة التى

يتعين علينـــا أن نخطوها فى الظروف الراهنــة ، والحرب مازالت فى بدايتها •

ذهبت الى فراشى مبكرا بعد تناول عشاء خفيف جدا •• ولكنى لم أستطع النوم •• كنت أتقلب يمينا ويسارا ثم ما ألبث أن أترك الفراش لأتمشى فى الحجرة جيئة وذهابا حتى أتعب ! ثم ألقى بنفسى فى الفراش لعل النعاس يأتينى فيريحنى من ذلك الفكر المتشـــائم الذى ما يزال فى مطـــاردة أى نعاس قد يأتى ••• !

ان الحرب بدأت وأين بـــدأت ــ فى أوروبـــا ــ فى العـــالم « المتحضر » •• وهل هو عالم متحضر حقا ؟ انه عالم « متقدم » فعـــلا •• متقدم صناعيـــا وتقنيا •• عـــالم غنى بثرواته الذاتيـــة وبما يمتصه من دماء مستعمراته فى افريقيا وآسيا وغيرها •• انه عالم لا يشبع •• يرغب فى المزيد دائما •

لقد حوصرت ألمـــانيا فى عقر دارها بعد الحرب العالمية الأولى•• وتقاســـم المنتصرون مستعمراتها ، وهى الآن تطلب نصيبها المسروق وتطمع فى أن تستولى على نصيب أوفر مما فقدته فى الحرب الأولى •• انها دولة قوية أعدت نفسها عسكريا واقتصـــاديا للحرب المقبلة •• لابد أن تنتصر •• لكى تحقق آمالا رسمتها لنفســـها طوال ســـتين مضت • لقد وضعت نفسها اقتصاديا وصناعيا وعسكريا •• ونفسيا فى « ريجيم » •• نظام قاس تحت زعامة رجل قوى : هتلر الذى أعدها لتلك اللحظـــة التى اطمئن فيها الى تمام استعداده ومؤازرة زميله « موسولينى » •

اجتاح بولندا •• ولم تجد أوروبا مناصا من أن تعلن الحرب •• واندلع اللهب •• واندفع فى رأسى ــ ذلك الفكر المخيف لتوقعـــات مخيفة حتما ، ستأتى مع ذلك اللهب •

كنت أرقد فى فراشى أتقلب يمينا وشمالا ، التمس النعـــاس

لأهرب ولو للحظات من تلك الصـور التي تتلاحق في مخيلتي .. صـور تضيق بها أنفاسي حتى تجعلني أترك الفراش مرات ومرات وألجـأ الى المشي في الحجرة جيئة وذهابا . ولكن هيهات أن تتركني هذه الصور المهدرة لكل ما هو انساني داخل الانسان .

انسان في زي .. ذو شكل ولون معين .. استظل تحت عـلم ذي ألوان معينـة .. يصـوب رصاصاته نحو أخ في الانسـانيـة لا يعرف عنه شيئا سـوى أنه يرتدي زيـا مخالفالزيه ويستظل بعلم اختلفت ألوانه عن علمه . انه يطلق الرصاص ليقتل ... يقتل عن عمد وما درى أنه بقتله أخـا في الانسانية انما قتل الانسان داخل نفسه هو أيضا .

لقد طاردتني هذه الأفكار وظلت تطاردني طوال حياتي . فبينما كان الحب الكبير .. الحب الطاغي .. لكل ما هو انسان .. لكل ما هو كائن ، لكل ما هو حي أو جامد .. كان هـذا الحب الطاغي الذي أحاطني من كل جانب ــ في تلك الحقبـة من حياتي .. كان هذا الحب يسحب من أعماق نفسي كل غلظة أو عنف .. حتى رقت الرقة في جنباتي ، وأصبحت يكاد دمعي ينهمر عند أية ومضـة من رقة في النفس البشرية ــ عند أية لمحة من عمل خير شجاع .. عند أية همسة من شهامة في الحق .

لقـد مرت على فترات .. قبـل أن يشـملني هـذا الحس الرهيف .. كنت أنظر الى العنف على أنه طريق .. بل انه الطريق الوحيد لمقاومة أي خطـأ أو ظلم يقع علي أو على أي شخص ينتمي الي .. لقد مارست العنف والقوة في حل كثير من القضايا .

والآن وفي هـذه الحقبة من حياتي وأنـا في باريس وقد قامت الحرب فعلا .. لقد شعرت وأنـا في ذلك الفيض من الرقة والحس

المرهف .. بالسلام .. سلام يجعل كل جسدى فى استرخاء كامل ممتع وكل أحاسيسى فى يقظة تامة واستمتاع بهذا الشعور الغامر .

ومضات سريعة تمر .. وسرعان ما تنتهى .. ولكن هل هى قد انتهت فعلا .. ؟ لا أظن .

لقد كانت تعاودنى فى فترات متباعدة . كان لها أثر واضح فى تكوين خلفيـة جديدة تماما لتفكيرى ومحـاولة بناء شخصيتى .. فكل قراءاتى سارت على هـذا النحو من الفكر تغذيه وتصقله .

تناقض عجيب هذا .. يبين ما هو حادث فعلا من دمار وهدم فى هذه الحرب ، وبين ما يحدث فى داخل نفسى وفكرى من احسـاس بالسلام البناء .

ان عملية البناء الداخلى قد بدأت حقا فى فكرى عندما دقت طبول الحرب .

عزمت على الرحيل من عاصمة النور الأوروبية الى عاصمة النور للعالم القديم التى سادها السلام مئات السنين وسادتها القيم آلافـا أخرى .. الى مصر .

جاءتنى سيمون ودعتنى للخروج وتناول وجبة خفيفة فى حديقة « التويليرى » حيث كانت هناك « كافيتريا » صغيرة تفى بالغرض .

ذهبنا سويا وتناولنا بعضا من قطع « الساندوتش » وعصير البرتقال ، وبدأت سيمون الحديث ، وكان فكرى مشغولا بالعودة الى مصر . بدأت سيمون تسألنى عما عزمت عليه ؟ وقبل أن أجيب .. بدأت هى تتحدث عن فكرها ، وانها تكره عودتى الى مصر .. لقد كنا قد استأجرنا مرسـما لطيفا فى حى مجـاور ، وبدأت هى فى تنسيقه واعداده ببعض مستلزمات المعيشة من فراش ومقاعد .. الخ على أن تقيم فيه سـويا . كما أنها لم تنس البيانو الذى يخصهـا

فقد نقلته بالفعل الى المرسم الذى استأجرناه واشترينا كل معداته من حامل للرسم وألوان وفرش « وكنفاس وشاسيهات » — من فنان يابانى قد انتوى الرحيل الى بلده .. وكان كل ما دفعته فى هـذه المعدات لا يتجاوز المـائتى فرنك (بسعر ذلك الوقت = ١٤٠ قرشا . مائة وأربعون قرشا . الفرنك سبعة مليمات) أما ايجـار المرسـم فكان ١٥٠ مائة وخمسين فرنكا فرنسيا للشهر الواحد . كان حلمـا جميلا كاد أن يتحقق تماما لولا هـذه الحرب اللعينة : مرسم جميل فى قلب باريس ورفيقة محبـة تشاطرنى طموحى وأفـكارى بغير التزام منى .

كانت علاقة ممتازة أعطتنى الكثير مما كنت فى حاجة اليه .. حب ورعاية وفهم .. هذا كل ما كنت أحتاجه .

ان النقود التى كانت تأتينى من مصر كانت قليلة ولكنهـا كانت تكفينى مع القناعة والاحتشام .

ولقد أفهمتنى سيمون أن المعيشة فى « المرسم » ستكلفنا أقل كثيرا من المعيشة فى « البنسيون » وذلك بالنسبة لى على الأقـل ، وانها ستشاطرنى بطبيعة الحـال فى النفقات .. واننى سأفرغ تماما للرسم والقراءة فى ذلك المكان الفسيح نسبيا والمريح تماما لى كدارس فى هذه المرحلة بالذات .

كاد كل شىء أن يتحقق ، وقد بدأت أفكر جديا فى تحقيق هذا الحلم وأن أبقى فى باريس ولكن .. ماذا سـيكون مصيرى اذا ما انقطعت عنى تلك الجنيهـات القليلة التى يرسـلها لى أبى كل شهر . هناك احتمال كبير فى أن ينقطع الاتصال طوال مدة الحرب .. وربما تطول هذه الحرب كأختها الأولى ، ولو أنى لا أتوقع هـذا بعد أن تقدمت آلات الحرب ، والتى يمكنها افنـاء البشر فى يسر أكثر ووقت أقصر عن مثيلتها السابقة .

هل فى مقدورى أن أجد عملا أتعيش منه خلال هـذه المدة اذا ما انقطع عنى المدد من مصر ؟ أجبت نفسى بالنفى .. اننى لا أعرف عملا يناسبنى يمكن أن أكسب عيشى منه ، أما الفن فهو آخر شىء ممكن أن يتعيش منه فنان ناشىء أو قل دارس للفن فى بداية الطريق .

فوجئت باجابة أخرى جاءت فى نفس اللحظـة ــ فقد تحـدثت سيمون بعد صمت .. وكأنها تقرأ ما يمر فى خاطرى من فكر وتساؤل، فقالت .. راتب .. لا تفكر طويلا فى تدبير معيشتك اذا ما انقطع الاتصال بينك وبين أهلك فى مصر .. سأتكفل أنـا بكل ما تريد .. لا تعترض .. فأنا أفهم خلقك وتفكيرك تماما .. ان هـذا سيكون قرضا تدفعه لى عندما تعود الأمور الى طبيعتها ، ولن تحتاج لأن تعمل شيئا آخر يعطلك عن دراسـتك لتكسب عيشك .. وأقول لك شـيئا آخـر .. اذا ما تأزم الموقف فى باريس سـنرحل الى الريف ــ الى برتيانى حيث لى أقارب هناك . وسيكون هـذا جميلا ومناسبا لك فيمكنك أن تكمل تجربتك التى بدأتها فى شارتر فى رسم الطبيعة Land Skape كان كلام سيمون هذا يقع فى نفسى موقعا غريبا .. يبدو أنه منطقى ، ويمكن أن يكون واقعيـا .. فقد كنت أعرف سيمون وأعرف حبهـا لى وحرصـها على استبقائى فى فرنسا ، بل هى تأمل أن أتزوجها فى يوم ما بالرغم من أنها قد عرفت عزوفى التام عن فكرة الزواج فى هذه الحقبة . ولكن ستسير الأمور الى هـذا المصير اذا أنـا قبلت عرض سيمون . من أين لى أن أسدد هـذا القرض اذا طـال أمـد الحرب سـنين طويلة ؟ تجيب سيمون .. « ستكون قد وصلت الى درجة ممتازة كفنان ويمكنك أن تكسـب الكثير » . كنت أهز رأسى مبتسما .. لم أفكر اننى سأكسب ماديا من ممارستى للفن التشكيلى ! ان الفن لم يكن لى سوى طريق ولم يكن غاية فى ذاته .. ان ممارستى للفن التشكيلى

كانت عملية أخلاقية وخلفيــة فى نفس الوقت تعمــل على فهم الذات والقيم التى حققتها خبرات السابقين تضىء لنا الطريق لتحقيق الذات •

أقمت فى باريس ما يزيد قليلا على العشرة شهور •• لم تكن كلها فترة عطـاء متصــل بمعنى التحقيق •• ولكنهـا كانت فترة استقبال وتأمل •• احسس طريقى فى تؤدة وتريث • لقد اختزنت الكثير من المشاهدة والقراءة ، وحان الوقت لأن أتجول فى منحنيات النفس لأفهم ••• !

كانت قراءاتى وممارساتى ســواء فى العطـاء والتحقيق أو فى دراساتى فى المتاحف •• تصب•• فى تلك الآونة •• فيضا •• لطيفا من النور على تلك المنحنيات •• أحــاول أن أفهم •• هناك أحاسيس لطيفة تسرى فى عقلى ووجدانى •• قبس من السلام الروحى يكاد يلم بى بعد غياب طويل •• منذ أن بدأت المعاناة •• وقد توالت الأزمات الروحية والتساؤلات •• بغير اجابة على الاطلاق •

منذ الرحلة الى رامسجيت فى هذه الآونة بالذات •• تغير الوضع قليلا •• النفس تهدأ •• وترق تحت هفات رقيقة تأتى فى هجس من الداخل بين الفينة والفينة • هل كان بداية للتصالح مع النفس •• هل كان هذا نوعا من السلام الداخلى جاء بعد لأى •• بالرغم من طبول الحرب التى تدق فى الخارج •• ؟ ربما كان كذلك •

كانت هذه هى الخلفية النفسية التى كنت أعيشها عندما كان على أن أحسم الأمر •

هل أبقى فى فرنسا •• أم أعود الى مصر ؟ ولكن لقد حسم الأمر عنــدما تلقيت خطابا من والدى يعلمنى بمرضــه ويرجــو أن يرانى فى مصر •

سألتنى سيمون عن محتوى الخطاب فقلت لها أن أبى مريض • وهذا كل ما فى الأمر •

أحست سيمون بأن قرارى بالعودة الى مصر سيكون داميا فى هذه الحالة ولكنها لم تقل لى شيئا • ولكنى شاهدت تغيرا طفيفا طرأ على ملامح وجهها •

ان علاقتنا قد تقدمت كثيرا ، وكنا قد رتبنا الكثير حتى يمكننا أن نقيم سويا ونعمل سويا فى تفاهم وتجانس الى حد بعيد ، فى الفكر والهدف ، وقد بذلت سيمون مجهودا كبيرا لنصل الى ذلك ، وقد غيرت كثيرا من فكرها وعاداتها لتلتقى بفكرى وعاداتى •• والآن وقد وقع ما لم يكن فى الحسبان ـ بالنسبة لنا على الأقل •• فهل نفترق بهذه البساطة •• واذا عدت أنا الى مصر فهل هناك سبيل الى العودة الى باريس •• ومتى •• وقد تطول الحرب سنوات عدة كل هذا كان يجول فى خاطرى •• عندما جذبت سيمون ذراعى قائلة لننزل بسرعة •• انها ـ الغارة ـ وقد سمعت صفير الانذار ، ولكنى أمهلتها قليلا حتى أنبه جيرانى فى الشقة المقابلة لأنهما كانا زوجين طاعنين فى السن وقد ضعف سمعهما فرجتنى المرأة أن أنبههما على الباب بشدة ، اذا لم ينفع الجرس •

وبعد أن قرعت الجرس والباب عدة مرات فتحت المرأة الباب ، ولما رأتنى فهمت أنها الغارة ، فأسرعت بالنزول بعد أن أيقظت زوجها ، وقد ساعدناهما أنا وسيمون فى ذلك •

ونزلنا جميعا الى المخبأ فى الميدان أسفل المنزل •• وكان باب المخبأ مغطى ببطانية مبللة بالماء فلم أعرف لذلك سببا الا عندما شرحت لى سيمون أن ذلك يقى الى حد ما من الغازات السامة المتوقعة فى هذه الحرب •

وقلت لسيمون انني لا أملك قناعا ضد الغازات السامة وقد كانوا قد وزعوا علينـا فى لندن فى أزمة ١٩٣٨ الأقنعة لكل المواطنين بدون أى مقابل •• فقالت ستحضر الأقنعة غدا ولكن سندفع ثمنها مقدما وقد يعيدوا لنا الثمن بعد اعادتهـا عند انتهـاء الحرب •• فضحكت معتقدا أنها تسخر ولكنها لم تكن كذلك •

توالت الانذارات بالغارات الجوية •• وقد نزح معظم سكان البناية التى كنت أسكنها الى أماكن فى الريف أكثر أمنا من باريس كما كانوا يعتقدون ، ولكن سيمون لم ترحل وتركت أبويها يرحلان وحدهما الى « برتانى » وظلت هى بجـانبى •• ملتصقة بى تماما •• لا تريد أن تفارقنى لحظة •• أنها كانت أكثر من ممتازة بل رائعـة فى كل تصرفاتها الشجاعة •

كنا نمضى لحظات ليست بالقصـيرة فى المخبـأ •• ملتصقين تماما •• تتحدث فى همس وأنـا أسمع •• انها كانت تحدثنى عن « برتانى » وعن أهلها هنـاك ، وعن المكان الهادىء الذى يمكن أن نعيش فيه سويا حتى تنتهى الحرب •• كان حديثها يقع فى نفسى موقعا طيبـا وكان يمكن أن يحقق لى رغبـة أكيده فى العيش مع سيمون فى فرنسا ، وأن استمر فى عملى كدارس للفن •• ولكن هل يمكن أن أكون سـلبيا بالنسبة لمـا يجرى الآن ، وما سيجرى فى الغد عندما يدخل الألمـان فرنسا ؟ ••

كان هذا متوقعا •• وكيف ستكون باريس الجميلة وقد تحطمت معالمها الرائعة تحت قنابل هتلر ؟ •

أفقت من أحلامى ورغباتى عند هـذا الخاطر المخيف •• باريس تحت قنابل هتلر •• قوافل المدنيين التى كانت ترحـل من باريس وطائرات هتلر تطـاردهم بمدافعها ورشاشاتها •• رجـال فى سن

الشيخوخة ونساء يحملن أطفالهن يتدفقن فى غير طريق هربا من رصاصات هوجاء أو رصاصات موجهة عمدا .

كنت اتخيل هذه المسيرات الطويلة من البشر تفر هربا من العنف والحرب والقتل .. هذه الصور التى كنت أتأملها فى الخيال حدثت فعلا .. هذه الصور الرهيبة لم تبرح مخيلتى حتى الآن .. لقد حدثت فى الأربعينات فى حرب هتلر ، ولكنها ظلت تحدث .. هذه الصور لازمتنى طوال حياتى فهى حقيقة لا ينقطع وجودها مادام الانسان موجودا .

ظلت الأيام تمر وأنا فى حيرة من أمرى .. كنت أسمع آراء كثيرة من حوالى .. ان هذه الحرب ستكون قصيرة جدا بالمقارنة بالحرب العالمية الأولى . ان آلات الدمار أقوى عشرات المرات عاملا فى المدة السابقة ، ومن المحتمل أن هذه الآلات بقوتها تكون عاملا على ايقاف الحرب فى وقت قريب . كنت أسمع هذه الآراء من حولى وخصوصا وأنا فى المخبأ .. كانت هذه الآراء تصدر عن اناس مرهقين يخففون الوطأة عن أنفسهم بهذه الآمال المتفائلة .. وكنت أتمنى فى نفسى أن يكون هذا الاحتمال موجودا .. وأن تنتهى الحرب كما كانوا يقدرون فى بضعة شهور .. كان هذا الاحتمال قائما عند هؤلاء وربما عندى أنا أيضا وكان هذا يريحنى من حيرتى .. ولكن هل أرحل أم أبقى بالرغم من هذا الاحتمال .

ولكن حسم الأمر .. فقد اتصلت بى السفارة المصرية وأخبرتنى أن الطريق الى مصر قد يقطع بحرا وجوا فى أية لحظة واذا أردت الرحيل الى مصر فينبغى أن تسرع ، وأنهم مستعدون أن يمدونى بالمال وتذاكر السفر اذا رغبت على أن أسدد كل هذا عند عودتى . فكان هذا حاسما بالنسبة لترددى .. وأخبرت سيمون

بعزمى هــذا بل أننى استلمت كل ما يلزمنى من مال وتذاكر للسفر وتحدد يوم الرحيل .

كانت سيمون تجاهد لتخفى حزنها ، ولكنى كنت اطمئنها بأنى سأعود حتما الى باريس عندما تنتهى هذه الحرب . وعندئذ رتبت حاجياتى فى حقيبتين وحزمت دراساتى فى لندن وفى باريس وغلفتها جيدا بمساعدة سيمون ، ولكنى لم أستطع أن أحمل كل كتبى فاخترت منها ما أريد وتركت الباقى عند سيمون وكان كثيرا .

وعندما حلت ســاعة الرحيل ذهبت معى سيمون الى محطــة القطار الذاهب الى مارسيليا . وركبت القطــار .. ولكن لم أجد مكانا سوى موضع لقدمى ، واطللت من النافذة لأودع سيمون .. تعلقت فى رقبتى ــ بدأ القطار يتحرك وهى لا تريد تركى .. فرفعت يديها برفق وقبلتها وأنــا أقول لها الى اللقــاء .. سأعود ثانيــة وقريبــا .

ولم أعد الى باريس الا بعد نيف وأربعين سنة .

وصلت الى مارسيليا بعد عناء أكثر من عشرين ساعة فى هــذا القطار اللعين .. واقفا على قدمى .. الكل يرحل عن باريس بعد تلك الانذارات بالغــارات المتواليــة .. الكل يريد أن يلجــأ الى الريف بعيدا عن العاصمة .. التى ستكون هــدفا أكيدا للغارات والدمار . الطرق تزدحم بالسيارات الخاصــة بالفارين من الخطر المتوقع ، بل كان هناك صفوف من الراجلين يحملون القليل من المتاع اللازم لهجرتهم الى الريف القريب .

كانت هذه المسيرات الراجلة والراكبة تمر أمام عينى وأنــا لا أكاد أجد موضعا مريحا لقدمى فى هــذا القطار المشحون تماما بالآدميين .. كانت هذه الصور المرئية تمر سراعا أمام نظرى ولكن

يصاحبها صور أخرى غير مرئية تمر عبر الفكر والخاطر . هل هـذا الدمار وهلاك الملايين من البشر .. وذلك التقدم الرائع فى العـلوم والفنون الذى حققته أوروبا .. هل لهذا الفكر الحضـارى المتقدم أن يندثر أو أن يتراجع .. هل هو قدر الهى أم هو عبث الانسـان أم هو الاثنان معا ؟

ان فكر الانسان لن يندثر .. لن يقف أو يتراجع . انه سيمضى قدما ولكن فى طريق آخر .. طريق غير خير ولا بناء للتقدم وسـعادة الانسان .. انه سيمضى بسرعة وجـدية ليكشف عن آلات للدمار أشد فتكا من سابقتها ــ ليقتل أكثر ويخرب أكثر .. لكى ينتصر .. ولكن هل سينتصر .. انه ينتحر .

ركبت الباخرة .. وكان فـكرى لايزال مشـغولا بسيمون والحرب .. كنت أتمشى على ظهر المركب وأنـا أسمع من حولى يروون قصصا عن الغواصات الألمـانية التى « يزدحم » بها البحر الأبيض ، وعن البواخر التى أغرقتها هـذه الغواصـات .. وأنهم يتوقعون شيئا من هذا يحدث لباخرتنا . كنت لا أعير أية أهميـة لمثل هذه الروايات والتوقعات لم أكن أخاف من المصير مهما كان .. لقد رغبت فى الموت فى لحظـات مرت بى منذ وقت كبير .. مرت لحظات نسيت أو تناسيت تلك الأحاديث العابرة التى كان يتناولها الكثير من الركاب . شدت تفكيرى : مصر . لقد غبت عنها ما يقرب من الأربع سنوات .. رحلت عنها وأنـا لم اتجاوز التاسعة عشرة .. شاب رياضى فيه من الجدية بقدر ما فيه من مرح وحب للحياة ، وها هو يعود الى الوطن ولم يتجاوز الثالثة والعشرين ، وقد ذهب عنه الشطر الثانى ولم يبق سوى الشطر الأول .. ذهب عنه المرح تماما ولم يبق سـوى الجد .. لقد نحل الجسد تماما .. نقص وزنى ما يربو على العشرين كيلو جراما منذ أن رحلت عن مصر حتى عدت

الياء .. لم يفارقنى العزوف عن الكلام منذ أن رحلت الى « شارتر » .
فلم يكن يفارقنى الكتاب أو المشاهدة والدراسة داخل وخارج الكتدرائية الرائعة ثم بعض المحاولات فى دراسة الطبيعة بالألوان فى الحقول المجاورة .. ثم يكن لى أصدقاء أو معارف أتحدث معهم . والواقع أنى لم يكن عندى أى دافع للحديث مع الغير .. لقد كنت مستقبلا طوال الوقت تقريبا . وكنت أتبادل الحديث مع نفسى .. مع الكتاب .. مع العمارة الرائعة .. والطبيعة الغنية المغنية .

منذ ذلك الحين ولسنوات تلت كان العست حديقة رائعة تشفى على النفس الحائرة سكونا ينتشر فيه الفكر بسهولة ويسر أكثر .

جلست على مقعد أرنو الى البحر .. واسترسل بصرى الى سطحه الممتد .. وحركة الموج وهديره يغنيه شكلا ونغما ، وكلما انفرجت زاوية الرؤية بين البصر وسطح البحر زاد امتداده .. الى أين ؟ الى ما لانهاية ؟ لا ! ان الاسكندرية تنتظرنا على بعد بضعة مئات من الأميال .. هذا اذا لم يصدق حدس البعض من الركاب عن الغواصات الألمانية المنتشرة فى البحر الأبيض .

كنت قابعا فى ركن بعيد ما عن باقى المسافرين .. ومر بى أحدهم وكنت سابحا مع الأفق الممتد على سطح البحر ولم أشعر الا وقد توقفت قدماه فجأة ، وعاد الى مرددا اسمى فى دهشة فرفعت عينى لأجد « جورج حنين » أمامى .. وهو يقول انها صدفة سعيدة أن أجدك معى على ظهر الباخرة فى الطريق الى مصر .. لقد بحثت عنك فى باريس فى البنسيون وفى الأكاديمية ولكن لم يدلنى أحد على مكان وجودك ، فالكل كانوا قد رحلوا عن باريس تقريبا .. وها أنذا أجدك اليوم وكنت أظن أنك قد رحلت الى مصر منذ أمد بعيد .

حييته مسرورا بلقياه ، فقد كان انسانا ممتازا ، ولم أنس بعد الحوار الذى استمر بيننا فى جلسات طويلة حول الفن التشكيلى والمدارس المعاصرة وسيزان بالذات •

كان جورج حنين بطبيعته قليل الكلام ، الا اذا أثير موضـوع فى الأدب •• فى الشعر •• فى الفن التشكيلى وعلى الأخص موضوع اهتمامه الكبير بالحركة التشكيلية فى مصر •• فهو يقبل على الحديث عنها فى حماس بالغ ، وهو على صلة وثيقة بالفنانين الشبان سـواء من المصريين أو الأجانب •

جلس جورج بجانبى يحـدثنى عن اهتمامه الكبير بالحـركة التشكيلية المتحررة تماما من الأكاديميـة والتى ينحو معظمهـا نحو السيريالية التى كان هو نفسه ينحو نحوها فى كتاباته وأشعاره ، وأخذ يذكر اسماء لفنانين شبان كان معظمهم من زمـلائى وأصـدقائى •• وعلى رأسهم كامل التلمسانى الذى حظى بحمـاس كبير من جورج ، وكان زميلا فى دراستى بالمدرسـة الثانوية « السعيدية » ، بل كان معظمهم زملاء بالمدرسة السعيدية •• لم يكن هـذا مصادفة •• فقد كان بالمدرسة السعيدية الثانوية فى ذلك الوقت أستاذ لفن الرسـم عاد لتوه من دراسته فى انجلترا •• متفتح الذهن يهوى الاطلاع على كل ما هو جديد ومعاصر فى الحركة الفنية الأوروبية ، ساخط بالتالى على دراسته الأكاديمية فى انجلترا والتى برز فيها الى حد ما بقدرته وموهبته • ولكن سخطه على الأكاديمية الراكدة التى درس على أساتذتها الانجليز وتعطشه لكل ما هو جميل وجديد جعله ينكب على دراسـة المدارس المعاصرة : التشكيلية •• التكعيبية والتجريدية والسيريالية وغـيرها •• وقد انعكس حماسـه للمدارس الفنيـة المعاصرة على تلاميذه •• فى المدرسـة السعيدية • آخاهم وصادقهم وعاملهم بحب فأحبوه •• لم يكن فـارق السـن كبيرا فلم يتعـد

العشر سنوات ، يعيش فى القسم الداخلى من المدرسة ، يشرف على الطلبة ، فقد كان أعزب .

تجمع حوله نخبة من هواة الفن الموهوبين من طلبة المدرسة .. أذكر منهم : التلمسانى ، فتحى البكرى ، فؤاد كامل ، سعد الحادم ، كمال الملاخ ، وغيرهم .. أراد يوسف العفيفى أن يحقق تلاميذه ما لم يحققه هو كفنان .. نجح العفيفى فى ذلك بلا أى ضغط منه للوصول بهذه الغاية .. يساعد كلا منهم فى اتجاهه بفهم كبير منه لشخصية الطالب ، كان مربيا رائعا ممتازا لا أعتقد أنه كان هناك من يوازيه فى هذا المضمار التربوى الموهوب .

كان جورج حنين يحدثنى عن هؤلاء وغيرهم ممن عرفت ولم أعرف ، وهو يلمح من وقت لآخر بأننى سأكون عنصرا مضيفا الى الجماعة الكثير مما درست وما حصلت من أساتذين كبيرين مثل Fernand Léger ozenfant .. وما شاهدت من عروض سواء فى لندن أو باريس لأساطير ورواد المدارس والحركات الفنية المعاصرة .

كنت انصت دائما وكانت كلماتى قليلة نادرة .. ثم طلب منى عنوانى فى مصر قائلا أنه سيتصل بى لتقديمى للجماعة ، وخصوصا الذين لم أعرفهم من أعضائها .

ظلت السفينة تسير تارة فى بحر هائج الى حد أن يلزمنى الفراش لأهرب من دوار محقق يلم بى ، وتارة يعتدل الجو فأصعد الى السطح محترسا من برودة الجو بارتداء المعطف .. ومعى كتاب ، كان الكتاب هو كل شىء لدى فى هذه الفترة من حياتى .

كنت أسعد تماما بذلك الحوار الصامت الذى كنت أجريه مع فكر المؤلف الذى سطره ببراعة ممتازة على صفحات الكتاب .

كان كتاب تاريخ الفن « لالى فور » Eli Foure الذى بدأت أحد أجزائه فى شارتر .. وظل معى .. حتى الآن .

مر يومان على رحيل الباخرة من مارسيليا ولم نفاجأ بأى من غواصات ألمـانيا ! كنا فى الشهور الأولى من بداية الحرب وكانت التوقعات كثيرة .. وكانت أميل الى المبالغة ولكن ما حدث فعلا بعد ذلك كان أكثر كثيرا من أية مبالغات سمعتها فى ذلك الحين .

كان ركاب الباخرة خليطا من المصريين والأجانب ولكنى لاحظت أن هناك عددا كبيرا من اليهود .. كانت لغتهم التى يتحدثون بها غير مألوفة لدى فى بادىء الأمر ، وكانت فى بعض الأحيان تتغير الى الفرنسـية أو العربيـة ففهمت فى آخر الأمر أنهم يهود نعـم انهم يهود .. هل هم يهود أوروبيون ؟ لا ! أظن انهم يهود من فلسطين . من مصر . من العراق من لبنان .. ربما لأنهم يتكلمون العربيـة . كانوا جميعـا ذاهبون الى فلسـطين .. انهم يتركون أوروبـا .. فرنسا بالذات لانهم يتوقعون أن يغزوها هتلر بجيوشـه فى وقت قريب .. وهم يعلمون أن صديقهم اللدود هتلر سينكل بهم حتما كما نكل باخوانهم فى ألمـانيا ! هكذا فهمت أو قدرت .. هذه الأعداد الكبيرة من اليهود يهرعون الى الاسكندرية ومنها طبعا الى فلسطين.. كان هذا أول عام ١٩٤٠ .

ولم تمض سـوى بضع سنوات حتى قامت الحرب بين اليهود والعرب وقامت دولة اسرائيل .

لم يبق سوى يوم واحد للوصول الى الاسكندرية هكذا علمنا من القبطان .

تقابلت مع جورج حنين .. وفى أثناء الحـديث علمت منه أن « فرويد » قد مات منذ وقت قريب .. وقال جورج ان موت فرويد

خسارة كبيرة للعلم .. فأومأت مصدقا ولكنى . قلت أن فرويد أعطى كل ما فى جعبته على ما أعتقد .

لقد كنت مفتونا بفرويد فترة طويلة . وكنت أقرأ له بفهم شديد ، حتى اننى فكرت فى بداية دراستى للفن أن أتفرغ تماما لدراسة علم النفس ، وأن أترك دراسة الفن الى حين .

وأردفت قائلا .. لقد جذبتنى نظريات فرويد وفروضه فى التحليل النفسى الى حد كبير ولكن .. عندما قرأت له ما قاله فى تفسير لوحة ليوناردو دافنشى وهى للمسيح فى حجر أمه مريم وهى جالسة على ركبتى آن ، وطبقا لفروضه ونظرياته فقد سحب منها قيمها الرائعة وأرجعها الى تعقيدات الجنس عند ليوناردو .. لذلك زهدت فى هذه التفسيرات التى كانت تتناقض تماما مع ما أحسسته من نبض هذا العمل الرائع المترع بالقيمة والجمال .. لقد فتر حماسى فعلا لهذه التحليلات النفسية الى حد بعيد .. ان النفس الخلاقة أكبر من كل هذه التحليلات .. انها فى تكاملها ترتفع فوق كل التناقضات .

لقد قرأت كما لا بأس به من الأدب الروسى وانى لأجد أن عملاقا كبيرا مثل « دوستويفسكى » قد فهم النفس البشرية كما لم يفهمها علماء النفس . لقد غاص فى عمق داخلها وفهم دقائق دقائقها وعرضها على صفحات كتبه عارية تماما بلا أية اضافة أو زخرف .. ان دوستويفسكى فهم النفس البشرية بالبصيرة .. بصيرة الفنان الخلاق .. وبذا أضاف لتراث الانسانية الأدبى ما لم يضفه غيره فى هذا المضمار .

أبلغنا « القبطان » أننا فى صبيحة الغد نصل الى مشارف الاسكندرية .. كان الجميع مغتبطين .. لم نلق حتى الآن أية غواصة أو ما يماثلها من أدوات الحرب البحرية من جانب الألمان

أو الايطاليين ، ونحن الآن على مقربة من الاسكندرية .. من مصر .

دخلت فترتي وأنا منشغل التفكير .. في مصر .. الى أين أنا ذاهب ؟ .. ليس معي سوى بعض من كتبي ورسومي وخبرة لم تكتمل .. هل يسكن للحرب أن تنتهي في بضعة شهور وأتمكن من العودة الى باريس ؟ .. لا أظن . اني ما رأيت الا البداية ، وقد مرت على الحرب بضعة شهور ماذا سأعمل في مصر .. هل سأضطر للعمل في وظيفة ما لكسب العيش ؟ أم سأستمر في دراستي للفن مستفيدا من تلك الخبرة التي اكتسبتها من أساتذتي .. أوزنفانت أولا ثم فرناند ليجيه الذي لم أحظ بأشرافه سوى شهور قليلة . ولكن كانت خبرتي على ما أعتقد أكبر من اشراف الاثنين : المتاحف والمعارض والسهر المضني في القراءة والدرس والتعرف على القسم سواء في المتحف أو في الكتاب .. ان هذه الخبرة التي لم تكتمل بعد قد تكون حافزا للقفز في خضم أغنى وأعقد وأصعب .. عملية الخلق .. التي مارستها تحت قيود اشراف الأساتذة الاجلاء ، والآن يمكنني ممارستها حرة تحت اشراف الوجدان والشوق الى الأرفع .

في صبيحة اليوم التالي وصلت السفينة الى الاسكندرية ... الى مصر .

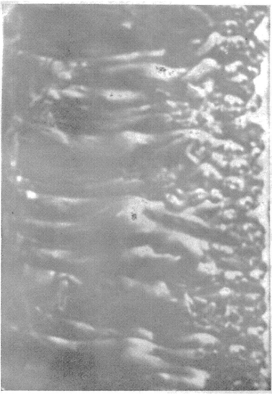

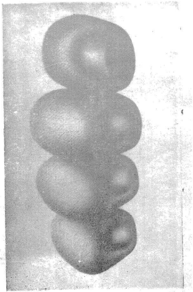

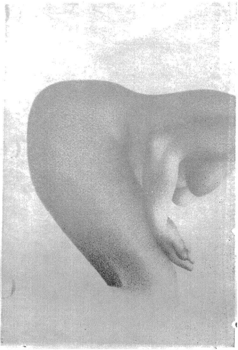

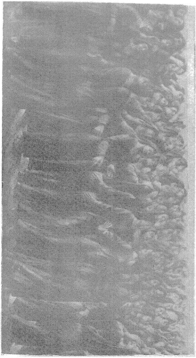

رقم الايداع ٨٩/١٥٦٣
الترقيم الدولى ٣ ـ ٢٠٣٨ ـ ٠١ ـ ٩٧٧

الهيئة المصرية العامة للكتاب

الفنان راتب صديق يصور لنا فى كتابه « تجربتى مع الفن والحياة » مراحل دراسته للرسم والتصوير منذ كان طالبا بالمدرسة الثانوية ، حتى دراساته على أيدى فنانين كبار فى لندن وباريس ، ومحاولاته الدائبة للاستيعاب والإتقان وما صادفه من صعوبات وإحباطات يحاول التغلب عليها كما يصور لنا دراسته وتذوقه لفنون التصوير والنحت والعمارة بمعايشة روائع هذه الفنون معايشة حميمة مباشرة فى المتاحف والكنائس وغيرها . كما يعبر عن تذوقه للفنون الأخرى كروائع الموسيقى الكلاسيكية وعيون الأدب العالمى إلى غيرها من فنون المعرفة كعلم النفس وغيره . كما يعبر عن تأمله الفكرى ومعاناته النفسية للوصول إلى يقين فى مسائل التدين والتصوف والحب والعمل والحرب والسلام . . . كل ذلك فى نسيج واحد مع علاقاته الإنسانية ، بأساتذته وأصدقائه وصديقاته فى أسلوب حى شيق ممتع .

Bibliotheca Alexandrina
0232276

٢٩٠ قرشا

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب